

بِشْرَحِ رِسَالَتِهِ

الْوَسَائِلِ الْمَقْبُولَةِ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ

لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

تَأَلِيفُ

د. مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْحَمَدِ

Abel
Abelan

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه
ومن والاه.

أما بعد فإن السعادة مطلبٌ مُلِحٌّ ، وهدف منشودٌ ، وغاية مبتغاة.

وإن الحديث عنها لمحبب إلى النفوس ، قريب إلى القلوب.

والناس على اختلاف مشاربهم يسعون إلى السعادة ، ويبحثون عنها ،
ويرومون تحصيلها ، وهم في ذلك طرائقٌ قَدَدٌ ، وسبلٌ شتى على حد قول الأول :
كُلُّ مَنْ فِي الْوَجُودِ يَطْلُبُ صَيْدًا غَيْرَ أَنْ الشَّبَاكَ مَخْتَلِفَاتٌ

فذلك دأب الخليقة مذ وجدوا على هذه البسيطة إلى يومنا هذا؛ إذ لا يزال
الحديث عن السعادة ، والبحث في تحقيقها مستمرا لا يكاد ينقطع؛ فالناس كل
الناس يسعون لطردهم ، وتحصيل السعادة.

والأنبياء -عليهم السلام- وهم صفوة البشرية جاؤوا بأقوم الطرق ، وأوضح
المسالك التي تتحقق بها السعادة العاجلة والآجلة؛ إذ هم مبعوثون من لدن رب
العالمين الذي خلق الخلق ، ويعلم ما يصلحهم ، ويسعدهم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك ١٤ .

وإذا حصل زيغٌ عما جاءت به الرسل -عليهم السلام- أو وُجِدَ انحرافٌ في
الأخذ بأسباب السعادة- كان الشقاء بقدر ما يكون من الزيغ والانحراف.

ولقد كان موضوعُ السعادةِ دأبَ الفلاسفةِ، والعلماءِ، والمفكرينِ على مختلفِ العصور؛ إذ هو من أعظم ما يَشغَلُهُمْ، ويأخذُ نصيبه من جهدهم وبخثهم. هذا وإن ممن بحثوا في السعادة، وأخذت منهم نصيباً غير منقوصِ الشيخ العلامة المتفنن المفسرَ الفقيهَ المتشرعَ عبدالرحمن بن ناصر السعدي؛ حيث بحث رحمته الله ذلك الموضوع في سائر مؤلفاته، وأفرد له رسالةً صغيرةً في حجمها عظيمة في بابها، ألا وهي: (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة).

ولقد قرأتها منذ بواكير عمري، وكنت كثير الرجوع إليها، ومعاودة قراءتها، وشرحها في دروس علمية.

وآخر تلك الشروح ما كان في دورتين علميتين، الأولى: في جامع الشهداء في مكة المكرمة بتاريخ ١٤٣٩/١٠/٩ هـ، والأخرى: في مسجد الدعوة في الدمام بتاريخ ١٤٣٩/١١/٧ هـ.

وقد قام الأخ الفاضل الشيخ محمد بن جاسر الشعلاني -حفظه الله- بتفريغ الشرحين في أوراق؛ فشجعني ذلك على إخراج الشرح مطبوعاً؛ إذ كان ذلك أُمْنِيَّةً قديمةً لي.

ولا يخفى أن مقام الإلقاء يختلف عن مقام التأليف؛ إذ التأليف يحتاج إلى مزيد عناية، ودقة، وترابط؛ لذا قمت بإعادة كتابة الشرح، وأفدت من الأفكار التي أُلقيت في الدروس.

وقبل الشروع في الشرح يحسن التقديم للرسالة بتمهيد يتضمن ما يلي:

أولاً: تعريف بالمؤلف.

ثانياً: تعريف بالرسالة.

ثالثاً: آراء الناس في السعادة.

رابعاً: نص الرسالة.

فإلى بيان ذلك ، والله المستعان وعليه التكلان.

محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي : ١١٩٣٢ - ص.ب: ٤٦٠

الزلفي : ٢٠ / ٣ / ١٤٤٢ هـ

جامعة القصيم - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية -

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

@M_ALHAMAD

تمهيد

- أولاً: تعريف بالمؤلف
- ثانياً: تعريف بالرسالة
- ثالثاً: آراء الناس في السعادة
- رابعاً: نص الرسالة الأصل

أولاً: تعريف بالمؤلف

١- نسبه، ومولده، ونشأته: هو الشيخ العلامة الزاهد الورع الفقيه الأصولي المفسر عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي من نواصر بني تميم.

ولد في الثاني عشر من شهر الله المحرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع للهجرة النبوية الشريفة.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ فعاش يتيم الأبوين. وقد كان والده من أهل العلم والصلاح، وكان إماماً في مسجد المسوكف في عنيزة.

ولما توفي والده عطف عليه عليه زوجة والده، وأحبه أكثر من حبها لأولادها؛ فصار عندها موضع العناية؛ فلما شبَّ عن الطوق صار في بيت أخيه الأكبر حمد؛ فنشأ نشأةً سالحة كريمة؛ حيث رعاه أخوه حمد، وأحبه، كرعاية الوالد ومحبه؛ فكان الشيخ عبدالرحمن يُجلُّه ويسميه الوالد.

وكان الشيخ عبدالرحمن معروفاً منذ نشأته بالصلاح، والمحافظة على الصلاة مع الجماعة.

وقد اشتهر -في صباه- بفطنته، وذكائه، ورغبته الشديدة في العلم.

٢- وصفه الخُلقي: كان ذا قامة متوسطة، وشعرٍ كثيفٍ، ووجهِ مستدير ممتلئٍ طلق، ولحية كَثَّةٍ، ولونٍ أبيضٍ مشربٍ بحمرة.

وكان شعره في شبابه في غاية السواد، وبعدما كبر قليلاً صارت لحيته في غاية البياض؛ حيث ابيضَّت لحيته وهو في الثامنة والعشرين من عمره - تقريباً كما أفاد بذلك ابنه محمد -.

وكان على وجهه بهاء، ونور، وصفاوة.

٣- أخلاقه: كان ﷺ آية باهرة في الأخلاق؛ فكان رحيماً بالناس، متودداً لهم، محباً لنفعهم، صبوراً عليهم.

وكان ذا هممة عالية، ونفس واسعة، ونفس مستريضة، ومزاج معتدل، وسماحة ظاهرة تبدوا في سيرته عموماً، وفي سائر مصنفاته، وآرائه. وكان طلق الحيا، ذادعابة، ومرح، لا يُعرف الغضب في وجهه. وكان يُنزل الناس منازلهم، ويحرص على القرب منهم، وإجابة دعواتهم، وزيارة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم.

وكان على جانب كبير من عفة اليد، ونزاهة العرض، وعزة النفس، وحسن الخلق، وشهامة الخاطر، وجزالة المروءة.

وكان محباً لإصلاح ذات البين؛ فما من مشكلة تُعرض عليه إلا ويسعى في حلها برضاً من جميع الأطراف؛ لما أوتي من الحكمة، وحسن التأني، ولما ألقى الله عليه من محبة الخلق له، وانقيادهم لمشورته.

٤- أعماله: قام ﷺ بأعمال جليلة أعظمها دروسه العلمية، وخطبه المنبرية، وتأسيسه وتشجيعه لكثير من الأعمال والمشروعات الخيرية.

وكان مرجع بلدته غنيزة في جميع الأمور؛ فهو المدرس، والواعظ، وإمام الجامع، وخطيبه.

وهو المفتي، وكاتب الوثائق، ومحرم الوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشار الناس فيما ينوبهم.

وكان يقوم بتلك الأعمال حسبةً لله.

وقد عُرض عليه القضاء عام ١٣٦٠هـ فتأبى، وتكدر كثيراً حتى إنه كان يغمى عليه في بعض الأوقات، وكان لا يشتهي الطعام، حتى يسر الله له التخلص منه.

وكان يشرف على المعهد العلمي في عنيزة عندما أُسس عام ١٣٧٣هـ. دون مقابل مادي.

٥- مرضه ووفاته: أصيب عام ١٣٧١هـ قبل وفاته بخمس سنين بمرض ضغط الدم، وتصلب الشرايين، فكان يعتربه مرة بعد أخرى إلى أن توفاه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس ١٣٧٦/٦/٢٣هـ عن تسع وستين سنة.

٦- علمه: حرص الشيخ رحمته الله منذ نشأته على طلب العلم، وأمضى حياته في العلم حفظاً، ودراسة، وتحصيلاً، وتدريساً، وتأليفاً لا يصرفه عنه صارف. وقد أوتى بركة في العلم، والوقت، والتأليف.

وكان ممن كتبت لمؤلفاته السعادة، وكان ذلك مشار إعجاب معاصريه ومن جاؤوا بعده؛ إذ يبهرهم ما كان عليه من القدرة على الكتابة والتحرير بالرغم من شظف العيش، وقلة الإمكانيات، ومعاناة التحصيل والكتابة والنسخ والطباعة. وقد عبر عن ذلك الإعجاب كثير منهم، ومن ذلك ما قاله الشيخ محمد بن مانع رحمته الله، يقول الشيخ عبدالله بن عقيل رحمته الله: «قال الشيخ محمد بن مانع حينما ذكرت له أنا والشيخ عبدالعزيز بن رشيد اقتراحنا بتصنيف شرح على النونية^(١) أو غيرها ينفع الله به وذكرنا له حالة الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ومصنفاته التي انتشرت، فقال: (إن مؤلفات ابن سعدي كما ذكرتم، ولكنني لا أستطيع أنا ولا غيري على مثل ذلك.

إن ابن سعدي عنده تأييد من السماء، ويعاونه ملك على أعماله من كتابة، وفتوى، وتأليف وغير ذلك)»^(٢).

(١) يعني نونية ابن القيم.

(٢) الشيخ العلامة عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل سيرته الذاتية وأهم مراسلاته لأبي عبدالله بلال

ابن محمود الجزائري ٩٦/٤.

وكانت له اليد الطولى ، والأثر العظيم في النهضة العلمية في بلده عزيزة خاصة ،
وفي العالم الإسلامي عامة ، ولا زالت آثاره تتجدد إلى يومنا هذا.
وقد تخرج به أعداد من الطلاب ، وترك عدداً كبيراً من المؤلفات النافعة في
التفسير، والحديث، والأصول، والعقيدة، والفقه، والآداب ونحو ذلك.
ومن هذه المؤلفات: تفسيره المعروف بـ: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام
المنان، ومنها خلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وبهجة قلوب
الأبرار، وغيرها.
ومن الطلاب الذين درسوا عليه: الشيخ عبدالله بن عقيل، والشيخ
عبدالعزیز السلیمان، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبدالله البسام
- رحمهم الله - (١).

(١) انظر تفصيل سيرته في كتابي (تراجم لتسعة من الأعلام) ص ٢٢٣-٣٦٧.

ثانياً: تعريف بالرسالة

١- اسم الرسالة وسبب تأليفها: تعرف هذه الرسالة بـ: (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة) وقد سماها المؤلف بذلك الاسم، وليس لها اسم غيره. وقد كان موضوع السعادة هاجساً لدى الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ حيث كان يبدي ويعيد في شأنها؛ سواء في تفسيره المعروف، أو في سائر مؤلفاته. بل كانت سيرته رحمته الله تطبيقاً عملياً لتمثل السعادة، ونشرها فيمن حوله؛ فكان في غاية ما يكون من السرور، والإسعاد، والتفاؤل؛ حتى ذكر أن تلميذه الشيخ علي الصالح رحمته الله قال في وصفه: «كأنه دخل الجنة، وخرج منها، وسيعود إليها».

فهذه حاله مع السعادة عموماً.

أما إفراده لموضوع السعادة في هذه الرسالة فله قصة بعثته إلى كتابتها، وذلك عندما سافر إلى لبنان للعلاج.

وقد روى أحداث تلك الرحلة ابنه الأستاذ محمد، وأوضح من خلالها سبب تأليف والده لتلك الرسالة.

يقول الأستاذ محمد -حفظه الله-: «في عام ١٣٧٣هـ- أصيب الوالد رحمته الله بارتفاع حاد في ضغط الدم، فأثر ذلك على صحته؛ فلما علم الملك سعود رحمته الله بذلك أمر بإرسال طائرة خاصة من الطائف إلى بريدة، وكان فيها اثنان من الأطباء المتخصصين؛ فلما هبطت الطائرة في مطار بريدة اتجه الطبيبان إلى منزل الوالد؛ للكشف عليه؛ فقررنا نقله إلى لبنان؛ لأن حالته شديدة، وقال أحدهما: إنه سيتم الكشف عليه مرة أخرى في المستشفى الجامعي بلبنان، وتُجرى له

الفحوصات الدقيقة؛ فإذا أمكن علاجه في لبنان فالحمد لله ، وإلا ينقل إلى أوروبا للعلاج.

وهكذا تم نقله إلى لبنان ، وقد رَافقتهُ في تلك الرحلة ، وكان معنا أبو عبود صالح العباد رحمته الله وهو أحد محبي الوالد؛ فكان الوالد يحبه ، وكان يؤنس الوالد ، ويصنع له القهوة والشاي ، وكانا يصليان في المستشفى آخر الليل جميعاً ، وكان الوالد يرتاح له كثيراً ، ويلغي الكلفة بينه وبينه.

وقد كان على متن الطائرة المتوجهة إلى لبنان سبعة أشخاص : قائد الطائرة ، ومسؤول اللاسلكي ، وطبيبان ، والوالد ، وصالح العباد ، وأنا. وكان مع الوالد ألفا ريال فضة ، ولما أخذنا أماكننا في الطائرة ناداني الوالد ، وقال : يا محمد فرّق الألفين عليهم ، وكانت تعادل في ذلك الوقت عشرين ألف ريال أو أكثر في وقتنا الحاضر؛ فأعطيت كل واحدٍ من معنا خمسمائة ريال فضة؛ ففرحوا بذلك ، وشكروا للوالد صنيعه.

وأثناء الطيران كان الاتصالُ مباشراً بيننا وبين الديوان الملكي حتى وصلنا إلى لبنان ، وكان الملك سعود رحمته الله يسأل عن الوالد وهو في الطائرة.

ومن الطريف في هذه الرحلة أن الأطباء لم يُحضروا معهم جوازاتهم ، وقبل وصولنا إلى لبنان أخبروني بذلك ، وقالوا: نحن لبنانيون ، ولكن لم نكن نتوقع أننا سنسافر إلى لبنان؛ لذا لم نحضر جوازات السفر؛ فطلبوا مني أن أتدارك الوضع؛ فاتصلت بسفارة المملكة بلبنان عبر اللاسلكي ونحن في الطائرة ، وأخبرتهم بحال الأطباء ، وأنهم من قبل الملك سعود ، وأنهم لم يحضروا جوازات السفر؛ فحصل الاتصال بين السفارة السعودية والحكومة اللبنانية ، وكان إعطاء الإذن لهم بالدخول.

وعندما وصلنا إلى مطار بيروت، وُفُتِحَ باب الطائرة كان في استقبالنا السفير السعودي^(١)، والوجيه سليمان الغنيم، وطبيبان من الجامعة الأمريكية، وسيارة إسعاف؛ فصعد الطبيبان إلى الطائرة، وتحدثوا إلى الوالد، وقاموا بالفحوصات الأولية، وطمأنوه على صحته، وأعلموه باستقرار حالته، ثم نقلوه إلى المستشفى الأمريكي.

وكانت مدة مكث الوالد في المستشفى أسبوعاً على وجه التقريب.

وفي هذا الوقت أعد سليمان الغنيم - جزاه الله خيراً ورحمه - بيتاً للوالد بمدينة (عاليه) بجبل لبنان، وكان هذا البيت كبيراً، وقد جعل فيه خادماً، وطباخاً، وسيارة خاصة للشيخ الوالد.

وبعد خروج الوالد من المستشفى، واستقرار صحته ذهبنا إلى المنزل في (عاليه) ومكثنا فيه مدة شهر تقريباً.

وكان طيلة مكثه يحن إلى عنيزة، ويرغب كثيراً في الرجوع إليها؛ ففي كل يوم يسأل عن وصول الطائرة التي تُقلُّه إلى الوطن؛ لأن تلك الأيام أيام موسم الحج، والطائرات التي تأتي نادرة.

ولما كنا في لبنان قمنا بزيارة إلى دمشق مدتها يوم واحد، فكانت فرصة للوالد؛ كي يزور قبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله والسلام عليه، والدعاء له؛ إذ كان الوالد محباً لابن تيمية، متأثراً به.

(١) هو السفير سعود الدغيثر رحمته الله.

وفي تلك الفترة كنت أنزل من مكان إقامتنا في مدينة (عاليه) إلى بيروت؛ لمراجعة السفارة السعودية؛ لمعرفة موعد وصول الطائرة التي سنرجع عليها إلى المملكة، ولأجل البريد.

أما الوالد فيبقى في المنزل هو وصالح العباد يستقبلان الناس من المعارف والأقارب وغيرهم ممن يفتدون لزيارة الوالد.

وقد زار الوالد في محل إقامته خلقاً كثير، وكان من بينهم أعضاء جمعية عباد الرحمن يتقدمهم رئيسهم الشيخ عمر الداعوق رحمه الله.

وقد طلب الأطباء من الشيخ في تلك الفترة أن يدع القراءة؛ لأن ذلك يتعبه، وطلبوا منه الراحة التامة، وألا يجهد فكره.

ولما كان في المستشفى اشترت له كتاباً عنوانه: (دع القلق وابدأ الحياة) للمؤلف الأمريكي دايل كارنيجي، وهو مدير معهد تدريب في أمريكا.

وقد قرأ الوالد الكتاب، وأعجب به، وبمؤلفه، وقال: إنه رجل منصف.

وكان للوالد صديق عزيز عليه من أهل عنيزة، وكان يعاني من مرض نفسي، ومكث في بيروت مدة سنتين للعلاج ولم يستفد، فأعطاه الوالد ذلك الكتاب، وقال له: اقرأه؛ فهو مفيد جداً، فقرأه، وأفاد منه، وتأثر بما فيه، وتحسنت صحته، بل شفي من مرضه.

وقد أمرني الوالد بشراء نسخة أخرى من هذا الكتاب؛ لكي يوضع في مكتبة عنيزة التي أنشأها الوالد، فاشترت الكتاب، وأعطيته الوالد، ولما عدنا إلى عنيزة وضعه الوالد في المكتبة، واستعاره عدد كثير من طلاب الوالد.

ولما كان الوالد في مقر إقامته في لبنان أرسل أبا عبود إلى السوق؛ ليشتري أوراقاً وأقلاماً؛ لأنه عزم على تأليف رسالة على ضوء ما كتبه كارنيجي في كتابه المذكور، ثم شرع الوالد في ذلك؛ فتيسر له تأليف كتابه الصغير حجماً الكبير نفعاً: (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة).

وقد طُبعت تلك الرسالة مراراً كثيرة جداً في حياة الشيخ وبعد مماته». فهذا هو سبب تأليف تلك الرسالة العظيمة التي جاءت بأسلوب ميسر قريب، يحتاجه كل أحد؛ ليصل إلى السعادة من أبوابها الصحيحة؛ لما احتوت عليه من تبيان أصول السعادة الحقة، وإيضاح الأسباب الموصلة إليها. وقد ألفها - كما مر - لما اطلع على كتاب دايل كارنيجي (دع القلق وابدأ الحياة). وذلك الكتاب - أعني دع القلق - أُلف في حدود عام ١٣٧٠ هـ، وصار أشهر الكتب العالمية انتشاراً؛ حيث ترجم، وطبع عشرات الطبقات، بملايين النسخ، وبلغات مختلفة.

وميزة هذا الكتاب سلاسته، ووضوحه، وكثرة أمثله، وبعده عن التعقيد. بل يكاد أن يكون أغلب ما في الكتاب معلوماً لدى أكثر القراء، غير أن مؤلفه صاغه بأسلوب قريب من جميع الطبقات.

يقول عبدالمنعم محمد الزياي - معرب الكتاب - : «وأفاق كارنيجي من دهشته على حقيقة جعلها محور رسالته في الحياة؛ تلك هي أن الناس إذا عمدوا إلى تطبيق هذه المبادئ الحكيمة المعروفة، والأمثال السائرة التي طالما جرت على السنة أجدادهم وجداتهم وآبائهم، وأمهاتهم، بل ربما جرت على ألسنتهم هم أنفسهم في صغرهم، ثم نسوها، أو تناسوها في كبرهم - إذا عمدوا إلى تطبيق هذه المبادئ والأمثال استحالت حياتهم نعيماً مقيماً، واستمتعوا في حياتهم بالسعادة والفلاح.

ومنذ ذلك الحين راح كارنيجي ينشر رسالته هذه، ويدعو الناس عامة، وطلبة معهدة خاصة إلى اعتناقها إذا شاءوا أن يعيشوا في وئام مع أنفسهم ومع الناس. ومنذ وقت ليس ببعيد أدرك كارنيجي أنه لا غناء لطلبة معهدة، بل لا غناء لإنسان كائناً من كان إذا كان يرجو السعادة في الحياة، وينشد النجاح فيها أن يقهر عدوّاً له، يسكن في نفسه، فيقلل أمنها، ويسلبها طمأنينتها، ويقوّض سلامتها، ويقف سداً منيعاً دونها وأسباب السعادة، والصحة، والنجاح، ذلك العدو اللدود: هو القلق»^(١).

وبعد ذلك - كما يقول المعرّب - : «أكبّ كارنيجي على وضع مرجع في قهر القلق، وسلخ من عمره قرابة سبع سنوات في البحث عما جرى على السنة الأنبياء، والحكماء، والعظماء من حكم ومبادئ وأقوال تصلح لأن تكون علاجاً للقلق إذا هي اتخذت طابعاً علمياً، وخرجت من نطاق الأقوال إلى حيز الأفعال، ثم عكف على صوغ هذه المبادئ في قالب علمي، وأسلوب حماسي يستثير العزائم على تطبيقها، والعمل بمقتضاها مستشهداً على فائدتها وجدواها بشخصيات، منها ما أفرد له التاريخ مكاناً مرموقاً، ومنها ما لم يفرغ التاريخ - بعد - من تدوين سيرته.

وكانت ثمرة هذا العناء الطويل، والمجهود الشاق هذا الكتاب»^(٢).

هذا وقد حدثني الأستاذ الدكتور سامي بن محمد الصقير - حفظه الله - عن الشيخين العالمين الجليلين الشيخ عبدالله البسام، والشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمهما الله - أنهما قالوا: «إن الشيخ عبدالرحمن السعدي لما كان في بيروت

(١) دع القلق وابدأ الحياة ص ١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٤.

إبان فترة علاجه اطلع على كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) فأعجب به ، وقال : هذا كتاب رائع ، وفيه فوائد جمة ، ولكن الذي كتبه ليس مسلماً ، ففاته أصول عظيمة من السعادة» .

فكان ذلك سبباً لتأليف الشيخ عبدالرحمن رسالته الماتعة الرائعة المختصرة التي تعد - بحق - عيادة نفسية ألا وهي : الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

٢- طبع الرسالة : لما ألف الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله هذه الرسالة طبعت أول طبعة لها عام ١٣٧٤هـ.

وقد أشار رحمته الله إلى ذلك في كتاب بعثه إلى الشيخ محمد بن سليمان البصري -رحمهما الله- وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم

١٤ رمضان ١٣٧٤هـ.

من المحب عبدالرحمن الناصر بن سعدي إلى جناب الأخ الشفيق الشيخ محمد السلیمان البصري المحترم ، حفظه الله وتولاه ، وأصلح دينه وديناه. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، في أسر الساعات وصلني كتابكم بعد طول العهد بكتبكم ، فحصل به السرور التام بما أفاد عن صحتكم ، وأيضاً الأثر الذي كان معكم باليد أن الله -تعالى- شفاكم منه ، أرجو الله أن يُتمَّ عليكم عافيته ، وأن يصلنا وإياكم بجله المتين الذي هو الاعتصام به ، والتمسك بسنة نبيه ، والإخلاص لله ، والإحسان إلى عباد الله؛ فإن الدين مبناه على الإخلاص في حقوق الله ، والإحسان إلى الخلق بحسب ما يُقدَّر عليه من الإحسان.

ومن حقق هذين الأصلين فهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ

اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف : ٥٦ .

أعاننا الله وإياكم على ذلك.

أرجو يا أخي أن لا تنسانا في هذا الشهر الكريم من أدعيتكم ، وأسأله -تعالى- أن يغنمنا وإياكم فيه ، وفي غيره فعل الخيرات ، واكتساب الباقيات الصالحات ، ويجعل الحياة زيادة لنا ولكم في كل خير؛ إنه جواد كريم. نؤمل بعد العيد يردُّ لنا (رسالتين)^(١) مختصرات ، واحدة في الفقه وفي أصول الفقه ، والأخرى صغيرة جداً في الأسباب التي يحصل بها السعادة الدنيوية والراحة القلبية.

وبوصولها نبعث لكم - إن شاء الله - قسطكم منها ، وهذا ما لزم ، وإذا بيدي من لازم فمحبكم يتشرف ، ومني السلام على العيال والإخوان عبدالله بن فتوخ ، وصالح بن سالم ، والله يحفظكم ، والسلام»^(٢). وبعد أن طبعت تلك الرسالة سارت مسير الريح في وقتها ، ثم زاد الإقبال عليها ، وتوالت طبعاتها؛ حتى لا تكاد تحصى ، وبلغت نسخ طبعاتها عشرات الملايين.

وقد فاقت كتاب (دع القلق) من جهة يسرها ، واختصارها؛ إذ صفحات كتاب دع القلق تزيد على ثلاثمائة صفحة بينما جاءت رسالة (الوسائل المفيدة) في غضون عشر ورقات تقريباً ، أو تزيد بحسب حجم الورق.

(١) كذا بالأصل ، والصواب: رسالتان.

(٢) الأجوبة السعدية من المسائل القصصية ، وهي مراسلات بين العلامة الشيخ عبدالرحمن ابن ناصر السعدي وبعض من طلاب العلم في الفترة ما بين (١٣٥٨-١٣٧٥ هـ) اعتنى بها هيثم بن جواد الحداد ، ود. وليد بن عبدالله المنيس ، اهتم بنشرها: الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل ، ص ١٥٥-١٥٦.

علاوة على كونها كُتِبَتْ بقلم عالم مسلم يتمثل السعادة حقيقةً، ويدل على أسباب لم يتطرق لها صاحب كتاب (دع القلق).

حيث فات (كارنيجي) الإشارة إلى الاحتساب، والدعاء، والأذكار، وقراءة القرآن، وما يترتب على العمل الصالح، والإحسان إلى الخلق من السعادة، والأجر الأخروي الذي يمد الإنسان بالروح، والصبر، واليقين، وينزل عليه الرضا والسكينة، وما جرى مجرى ذلك من المقامات والأحوال مما يتميز به المؤمن عن غيره في ذلك الباب - كما هو مشار إليه في الرسالة -.

وقد نفع الله برسالة الشيخ السعدي نفعاً عظيماً إبان تأليفه؛ إذ كان الإلحاد - وقت كتابتها - في أوجه، وكانت الثورة الشيوعية قد بلغت ذروتها.

لذا كان النفع بتلك الرسالة عظيماً، حيث أنقذ الله بها فئاماً ممن اجتذبتهم دعايات الإلحاد والشيوعية.

ولا يزال النفع بها قائماً إلى يومنا هذا.

ولما يسّر الله لي شرح تلك الرسالة، ثم فرغ ذلك الشرح، ورغبت في إخراجها - عمدت إلى إعادة صياغة الشرح؛ ليكون ملائماً لطبيعة التأليف، سائلاً الله - جلت قدرته - أن ينفع بهذا الشرح كما نفع في الرسالة الأصل.

هذا وقد أفادني الأستاذ مساعد بن عبد الله السعدي^(١) - حفظه الله - أن النسخة الأصل لهذه الرسالة غير موجودة؛ لأن الشيخ أرسلها إلى المطبعة، ولم تكن عنده نسخة أخرى.

(١) هو حفيد الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ فالشيخ جده لأمه نورة بنت الشيخ عبدالرحمن السعدي، وهو - حفظه الله - مهتم بتراث جده أيما اهتمام، وهو كريم بالمعلومة، وبكل ما يُسأل مما يخص تراث الشيخ.

وقد زودني الأستاذ مساعد بصورة من نسخة الطبعة الأولى ، وهي التي طبعت عام ١٣٧٤ هـ في دار مصر للطباعة ، شارع كامل صدقي - الفجالة - . وزودني -أيضاً- بنسخة من الطبعة الثانية لهذه الرسالة ، وقد طبعت بعد وفاة الشيخ بستين في مؤسسة النور للطباعة والتجليد في الرياض في ١١/٩/١٣٧٨ هـ . وهاتان النسختان أصح النسخ المطبوعة ؛ لكون الأولى طبعت في حياة المؤلف -قبل وفاته بستين- ولكون الثانية طبعت بعد وفاته بستين ، وقد يكون عدل على الأولى ؛ فتكون هاتان الطبعتان أقرب إلى الصحة . ومع ذلك ففيهما - وخصوصاً الثانية - الكثير من الأخطاء الإملائية . وبعد هاتين الطبعتين طبعت الرسالة مراراً كثيرة سواء كانت مفردة ، أو ضمن مجموع رسائل .

وبعض النسخ المطبوعة بعد هاتين النسختين وضع فيها عنوانات لم يَضَعُهَا المؤلف في رسالته الأصل ، وإنما كانت رسالته الأصل كلاماً متسلسلاً معنوناً بفصول فقط .

ويوجد في طبعاتها - عموماً بعض الملحوظات والفروقات غير المؤثرة . وقد أُثْبِتُ نصَّ الرسالة كاملاً قبل الشروع في شرحها ، وبينت بعض الفروق بين النسخ ، وجعلت الطبعتين الأولى والثانية أصلاً للرسالة ، وضبطت الرسالة بالشكل مُراعياً قواعد الإملاء ، وعلامات الترقيم .

٣- مجمل ما احتوت عليه الرسالة : احتوت تلك الرسالة على الأصول والأسباب التي تُنال بها السعادة الحقيقية ، واشتملت -بعد مقدمة عن أهمية السعادة ، وكونها مطلباً لكل أحد من الناس- على بيان تلك الأصول والأسباب بشيء من البسط ، وفيما يلي إجمال لما ذكره من ذلك :

أ- الإيمان والعمل الصالح. ب- الإحسان إلى الخلق. ت- الاشتغال بعمل من الأعمال، أو علم من العلوم النافعة. ث- اجتماع الفكر على العمل الحاضر. ج- الإكثار من ذكر الله. ح- التحدث بنعم الله. خ- نظر الإنسان إلى من دونه في سائر النعم. د- السعي في إزالة أسباب الهم، وتحصيل أسباب السرور. ذ- الأخذ بالدعاء. ر- حسن التعامل مع وقوع المكروه. ز- قوة القلب، وعدم انزعاجه. س- التوكل على الله. ش- توطين النفس على قبول الناس على علاتهم. ص- ترك الاسترسال وراء الهموم. ض- المقارنة بين النعم، والمكروه. ط- حسن التعامل مع أذى الناس. ظ- إصلاح الأفكار. ع- توطين النفس على طلب الشكر من الله وحده. غ- اعتياد النظر إلى الجانب المشرق. ف- الحرص على ما ينفع. ق- الحزم في حسم الأعمال.

وتخلل تلك الرسالة تأكيد، ومزيد تنويه لبعض الأسباب كالتوكل، وطردهم، والاشتغال بما ينفع، وحسن التعامل مع المخاوف والمكروه، وتوطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء، وعلى القيام بصغار الأمور وكبارها، ونحو ذلك مما يندرج تحت الأسباب والأصول التي مضى ذكرها.

أما طريقة الشرح لتلك الرسالة فستكون عبر وضع المتن في أعلى الصفحة بكتابة متميزة، ثم يوضع تحته حواشي يُشرح من خلالها بعض الكلمات والجمل التي تكون تحت كل فصل من فصول الرسالة، ثم يُشرح الفصل وما يتضمنه، ويذكر ما تحته من الأسباب والأصول؛ إذ كل فصل يتضمن سبباً أو أكثر من أسباب السعادة التي يراه الشيخ رحمته الله.

ويتخلل هذا الشرح تحليل لبعض الألفاظ، وبيان لما تحتها من المعاني، والأفراد، ويُعزّد ذلك بالأدلة، والآثار، والشواهد، والأمثلة، وهكذا...

ثم إنَّ الشرح يأتي مفصلاً تارةً، ومُقْتَضِباً تارةً بحسب ما يستدعيه المقام،
وسياق الكلام.

ثالثاً: آراء الناس في السعادة

السعادة من الموضوعات الكبرى المرتبطة بحياة الناس وأحوالهم، والتي خاض فيها البشر على اختلاف طبقاتهم وأديانهم، ومذاهبهم؛ حيث شغلت أذهان العلماء، والفلاسفة، والمفكرين، والمتكلمين، وسائر أتباع الطوائف من أهل الملل. وقد أشار ابن حزم إلى هذا المعنى العظيم؛ فأوضحه غاية ما يمكن، وذلك في كتابه (الأخلاق والسير في مداواة النفوس) قال ﷺ: «تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه؛ فلم أجده إلا واحداً، وهو طرد الهم»^(١). ثم أوضح ذلك على سبيل التفصيل؛ فقال: «فلما تدبَّرتُه علمت أن الناس كلهم لا يستوون في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط.

ولكن رأيهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين هممهم وإراداتهم - لا يتحركون حركةً أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمةً أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم؛ فمن مخطئٍ وجَّه سبيله، ومن مقاربٍ للخطأ، ومن مصيبٍ - وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره - فطرد الهم مذهباً قد انفتحت الأمم كلها منذ خلق الله - تعالى - العالم إلى أن يتناهى عالمُ الابتداء، ويعاقبه^(٢) عالم الحساب - على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه، وكل غرض غيره؛ ففي الناس من لا يستحسنه؛ إذ في الناس من لا دين له، فلا يعمل للأخرة، وفي

(١) الأخلاق والسير ص ١٤.

(٢) يعني يعقبه، ويأتي بعده.

الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، وفي الناس من يُؤثرُ الخمولَ بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومن الناس من لا يريد المال ، ويُؤثرَ عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء -عليهم السلام- ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ، وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ، وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من ترى من العامة.

وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها. وليس في العالم -مذ كان إلى أن يتناهى- أحدٌ يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفسه»^(١).

إلى أن قال : «فإنما طلب المال طلابه؛ ليطردوا به هم الفقر عن أنفسهم ، وإنما طلب الصوت^(٢) من طلبه؛ ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها؛ ليطرد بها عن نفسه هم فواتها ، وإنما طلب العلم من طلبه؛ ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وإنما هَشَّ إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك؛ ليطرد بها عن نفسه هم التَّوَحُّدِ ، ومَغْيِبَ أحوالِ العالم منه ، وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتن من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع؛ ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم.

وفي كل ما ذكرنا -لمن تدبره - همومٌ حادثة ، لا بد لها من عوارضٍ تعرض في

(١) الأخلاق والسيرص ١٤.

(٢) يعني بالصوت: الشهرة، والمكانة، وبعد الصيت.

خلالها، وتَعَدُّ ما يتعذر منها، وذهاب ما لا يوجد منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة، وأيضاً نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك، من خوف منافس، أو طعن حاسد، أو اختلاسٍ راغب، أو اقتناء عدو، مع الذم والإثم وغير ذلك»^(١).

والحاصل أن السعادة مطلبٌ لجميع الناس، ولكنهم يختلفون في سرّها، وحقيقتها، وذلك بحسب ما تمليه عليه عقائدهم، وثقافتهم، وتوجهاتهم، وأنماط تفكيرهم، ومدارسهم الفكرية؛ فالنظرة العامية للسعادة -على سبيل المثال- تختلف عن النظرة الفلسفية؛ فالآراء العامية إزاء السعادة تنشأ عن إحساسات خاصة في أحوال خاصة؛ فالذي يرى أن السعادة في الغنى، أو في الصحة إنما حدث له ذلك الرأي من ألم الفقر، أو شدة المرض.

ومن الجائز أن ينتقل الإنسان إلى يسار أو صحة؛ فيتغير رأيه في السعادة، ويذهب في تصورهما إلى شيء آخر أصبح يحس بشدة حاجته إليه كصلاح الولد، أو الزوجة، أو الأصدقاء وهكذا.

أما النظرة الفلسفية فتكئ آراؤها نحو السعادة على النظر، والاستدلال، وتختلف من فيلسوف لآخر؛ فمنهم من يرى أن اللذة هي الخير الأعلى، ويذهب في الاستدلال على هذا أنه يرى أن جميع الكائنات ترغب في اللذة، وتسعى لها سواء كانت هذه الكائنات عاقلة أم غير عاقلة؛ فعنده أن ما كان محط الرغبة في جميع الكائنات يجب أن يكون هو الخير الأعلى.

ومنهم من ينقض هذا الرأي؛ فيرى أن لا يُقبَل أن تكون اللذة الحسية هي الخير

(١) الأخلاق والسيرص ١٥.

الأعلى في هذه الحياة إلا عند من لا يريد أن يُفرَّقَ بين حياة الإنسان وحياة غيره من الحيوان.

ومنهم من يرى ازدياد القائلين باللذة؛ فيرى أن السعادة كلها في قوى النفس التي هي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة.

ومنهم من يرى أن كمال السعادة باقتران سعادة النفس بسعادة البدن كالصحة، وسلامة الأعضاء، وبالخيريات الخارجة عن البدن كالثروة، والرياسة، وشرف المنبت، وحسن السمعة وهكذا^(١)..

ومنهم -كما عند بعض فلاسفة الوجودية- من يرى أن السعادة تتحقق بإثبات الفرد نفسه من خلال إلغاء حقيقة الخير والشر، وإطلاق العنان للشهوات دون مبالاة بعرف، أو دين، أو خلق.

وبعضهم يرى أنها تتحقق بمواجهة المخاوف والأخطار، والتعرض للمحن، والقلاقل^(٢).

ومنهم -كما في أديان الهند- من يرى أن الحياة وهمية مظلمة لا نور فيها، ولا موت ولا حياة فيها؛ فيرون أن الهدف العملي فيها هو الخروج بالإنسان عن عالم الوهم والظلمة والموت إلى عالم الحقيقة، والنور، والحياة.

ويرون أن الطريق المؤدي إلى الخلاص هو طريق التصوف، والزهد، والتقشف الذي يصل إلى إهلاك النفس، أو الأخذ بطريقة التجول والتسول، أو الأخذ

(١) انظر بحث السعادة عند بعض علماء الإسلام في كتاب محاضرات إسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص ٧٧-٨٣، ونظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام د. سعيد مراد ص ١٣-١٩٠.

(٢) انظر مشكلة الفلسفة -الفصل السابع- د. إبراهيم زكريا، والمذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها د. عبدالرحمن عميرة ص ٢١١، والفلسفة الوجودية تأليف جان فال، تعريب تيسير شيخ الأرض ص ١٧٦.

بطريقة اليوجا على اختلاف أساليبها.

واليوجا كلمة سنسكريتية وقد دخلت اللغة الإنجليزية عام ١٦٨٤ م، وتعني حرفياً: النَّير، والاتحاد.

وهي تشير إلى مدرسة فلسفية هندوسية، ويعد جانبها العملي أهم من النظري؛ إذ يعني جانبها العملي: ضبط التنفس، والجلوس في وضع معين، والامتناع عن ممارسة الجنس، إلى غير ذلك من طقوسها، ورسومها^(١).

ومنهم -كما في فلسفة الديانة البوذية- من يرى أن السعادة تتحقق بالعناية بالإنسان، وإيصاله إلى مرحلة (النيرفانا) التي تعني -عندهم- السعادة القصوى، وتعد الهدف النهائي للبوذي، وتعني حالة السلام، والطمأنينة، والتبريد، والتجميد للأهواء، والأمن الناتج عن محو هوى النفس، ونهاية الألم، والتحرر الناتج من تناسخ الأرواح -كما في الهندوسية-.

وقد وضع لهم بوذا -كما يزعمون- أربع حقائق أساسية، وهي ما تعرف بالحقائق النبيلة الأربع، وهي: أ- الاعتراف بأن الحياة مليئة بالشقاء. ب- أن أسباب الشقاء تكمن في الشهوات والرغبات الملحة. ج- ضرورة وقف هذه الشهوات والرغبات. د- أن الطريق إلى ذلك اتباع الطريق الذي يؤدي إلى التخلص من الشقاء، وهو ما سماه بالصراط النبيل^(٢).

(١) انظر الفكر الشرقي القديم تأليف جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د. إمام عبدالفتاح ص ٢٣-٣١، و٤٠، و٩٢-١٠٢، وتاريخ الأديان د. محمد خليفة حسن ص ٧٧، و٩٥-٩٩.
(٢) انظر الديانات والعقائد أحمد عبدالغفور عطا ٩٥/١، والفكر الشرقي القديم ص ١٨٠-١٨١، وتاريخ الأديان ص ١٠٢-١٠٧، و١١٦-١١٩.

ومن الباحثين في السعادة من يرى أن الإنسان ذو فضيلة روحية ، وفضيلة جسمية ، وما دام الإنسان إنساناً لا تتم له السعادة إلا بتحصيل الفضيلتين كليهما ، ولا تحصل له الفضيلتان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية.

ومنهم -وهو الأقرب لما جاءت به الأنبياء عليهم السلام- من يرى أننا إذا قصرنا الخير الأعلى على كمال النفس الذي يحتوي الإيمان بالله ، والأعمال الفاضلة - فلا بأس في أن تكون السعادة في هذا الكمال ، ثم في الخيرات التي هي بمنزلة الوسائل إلى ما هو الخير الأعلى.

ولا بأس في أن يكون الناس في السعادة على مراتب متفاوتة ، أو أن يكون الإنسان وافي السعادة في حال قليل الحظ منها في حال؛ فيستقيم أن يقال: إن السعادة حالة الإنسان الموافقة لإراداته ، وآماله المنبعثة في حدود الفضيلة. وهي الحالة الملائمة للعبد في دنياه وأخراه^(١).

والملاءمة -كما يعبر ابن تيمية- ما تضمنت حصول المحبوب المطلوب المفروح به. وخلافها المنافرة ، وهي ما تضمنت حصول المكروه المحذور المتأذى به^(٢). فهذه نبذة تجمع أكثر آراء الناس في السعادة ، ويلاحظ أن أكثرها مخطئ ، أو قاصر ، عدا ما كان من طريق الرسل -عليهم السلام- فهم مرسلون من الخالق الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

(١) انظر محاضرات إسلامية ص ٨٣-٨٤.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٢/٨.

رابعاً: نص الرسالة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.
أما بعد: فإن راحة القلب، وطمأنينته، وسروره، وزوال همومه وغمومه - هو
المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج.
ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها
كلها إلا للمؤمنين.

وأما من سواهم فإنها - وإن حصلت لهم من وجهٍ وسببٍ يجاهد عقلاؤهم عليه -
فقد فاتتهم من وجوهٍ أنفع، وأثبت، وأحسن حالاً ومالاً.
ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرنى من الأسباب لهذا المطلب الأعلى،
الذي يسعى له كل أحد؛ فمنهم من أصاب كثيراً منها؛ فعاش عيشة هنيئة، وحيي
حياة طيبة، ومنهم من أخفق فيها كلها؛ فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التعساء،
ومنهم من هو بين بين بحسب ما وفق له.
والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

فصل

وأعظم الأسباب لذلك، وأصلها، وأسسها هو الإيمان والعمل الصالح، قال

(١) اعتمدت في ذلك على الطبعة الأولى، والثانية، وأوضحت الفروق بينهما وبين النسخ التي طبعت
مؤخراً، وهي قليلة، وضبطتها بالشكل؛ فلعل هذه النسخة هي الأصح والأقرب لمراد المؤلف ﷺ.

-تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة النحل: ٩٧.

فأخبر -تعالى- ووعده من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح؛ فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة - معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان؛ يتلقون المحاب والمسابر بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع؛ فإذا استعملوها على هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها.

ويتلقون المكاره، والمضار، والهم، والغم - بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه^(١) بد.

وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب - أمور عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والامال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه، كما عبر النبي ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

(١) في ط ٢: (عنه).

فأخبر ﷺ أن المؤمن يتضاعف غنمه، وخيره، وثمرات أعماله في كل ما يطرّقه من السرور والمكاره؛ لهذا تجد اثنين تطرّفهما نائبة من نوائب الخير أو الشر، فيتفاوتان تفاوتاً عظيماً في تلقّيها، وذلك بحسب تفاوتيهما في الإيمان والعمل الصالح؛ هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما؛ فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار. والآخر يتلقى المحابّ بأشْرٍ وبطَرٍ وطغيان؛ فتتحرف أخلاقه، ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع.

ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مُشْتَتَّه من جهات عديدة؛ مُشْتَتَّه من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً. ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد؛ بل لا تزال متشوقة^(١) لأُمور أخرى، قد تحصل، وقد لا تحصل.

وإن حصلت -على الفرض والتقدير- فهو أيضاً قلقٌ من الجهات المذكورة. ويتلقى المكاره بقلقٍ، وجزعٍ، وخوفٍ، وضجرٍ؛ فلا تسأل عما يحدث له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات، وأفظع المزعجات؛ لأنه لا يرجو ثواباً، ولا صبر عنده يسليه، ويهون عليه.

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثل واحد من هذا النوع إذا تدبرته ونزلته على

(١) في بعض النسخ متشوقة، والصحيح ما أثبت - وهو كذلك في الأولى والثانية -.

أحوال الناس رأيتَ الفرقَ العظيمَ بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه ، وبين مَنْ لم يَكُنْ كذلك ، وهو أن الدِّينَ يحثُّ غايةَ الحثِّ على القناعةِ برزقِ الله ، وبما أتى العبادَ من فضله وكرمه المتنوع.

فالمؤمن إذا ابتلي بمرض ، أو فقر ، أو نحوه من الأعراض التي كلُّ أحدٍ عرضةٌ لها فإنه - بإيمانه ، وبما عنده من القناعة ، والرضا بما قسم الله له - تجده^(١) قريراً العين ، لا يتطلب بقلبه أمراً لم يُقدَّرْ له؛ ينظرُ إلى مَنْ هو دونه ، ولا ينظرُ إلى مَنْ هو فوقه. وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو مُتَحَصِّلٌ على جميع المطالب الدنيوية إذا لم يُؤتَ القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عملٌ بمقتضى الإيمان إذا ابتلي بشيء من الفقر ، أو فقد بعض المطالب الدنيوية؛ تجده غايةً في التعاسة^(٢) والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسبابُ الخوفِ ، وألَمَّتْ بالإنسانِ المزعجاتُ تجدُ صحيحَ الإيمانِ ثابتَ القلبِ ، مطمئنَ النَّفسِ ، متمكناً من تدييره وتسييره لهذا الأمر الذي دَهَمَهُ بما في وسعه؛ من فكر ، وقول ، وعمل ، قد وطَّنَ نفسه لهذا المزعج المَلِمِّ. وهذه أحوال تريح الإنسانَ ، وتُثَبِّتُ فؤاده.

كما تجدُ فاقداً للإيمانِ بعكسِ هذه الحالِ إذا وقعت المخاوفُ انزعج لها ضميره ، وتوترت أعصابه ، وتشتت أفكاره ، ودَاخَلَهُ الخوفُ والرعبُ ، واجتمع عليه الخوفُ الخارجيُّ ، والقلقُ الباطنيُّ الذي لا يمكن التعبيرُ عن كُنْهِهِ.

وهذا النوعُ من الناسِ إن لم يَحْصِلْ لهم بعضُ الأسبابِ الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير - انهارت قواهم ، وتوترت أعصابهم؛ وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على

(١) في بعض النسخ المتأخرة (يكون) بل (تجده).

(٢) في بعض النسخ المتأخرة (تجده غايةً في التعاسة...).

الصبر، خصوصاً في المحالِّ الحرجة، والأحوالِ المحزنة المزعجة.
فالبرُّ والفاجرُ، والمؤمنُ والكافرُ يشتركان في جلب الشجاعة الاكتسابية، وفي
الغريزة التي تُلطِّف المخاوفَ وتُهَوِّنُها.

ولكن يتميز المؤمنُ بقوة إيمانه، وصبره، وتوكله على الله، واعتماده عليه،
واحتسابه لثوابه أموراً تزداد بها شجاعته، وتُخَفِّفُ عنه وطأة الخوف، وتُهَوِّنُ عليه
المصاعب، كما قال -تعالى-: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ويحصل لهم من معونة الله، ومَعِيَّتِهِ الخاصة^(١)، ومددِهِ ما يبعثر المخاوفَ، قال
-تعالى-: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ومن الأسباب التي تزيل الهمَّ، والغمَّ، والقلقَ -الإحسانُ إلى الخلق بالقول،
والفعل، وأنواع المعروف.

وكلُّها خيرٌ وإحسانٌ، وبها يدفع الله عن البرِّ والفاجرِ الهمومَ والغمومَ بِحَسَبِهَا.
ولكن للمؤمن منها أكملُ الحظِّ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادرٌ عن
إخلاص واحتساب لثوابه؛ فَيَهَوِّنُ اللهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ المعروف؛ لما يرجوه من الخير،
ويَدْفَعُ عنه المكارهَ بإخلاصه واحتسابه، قال -تعالى-: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ
نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فأخبر -تعالى- أن هذه الأمورَ كلُّها خيرٌ من صدرت منه، والخيرُ يجلب الخيرَ،

(١) في ط ١ و ٢: (ومعينه الخاص) ولعل الصواب ما أثبت، ويدل عليه استدلال الشيخ بالآية
المتضمنة لمعية الله الخاصة المقترنة بوصف الصبر.

ويدفع الشرَّ، وأن المؤمنَ المُحتَسِبَ يُؤْتِيهِ اللهُ أَجْرًا عَظِيمًا.
ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم، والغم، والأكدار، ونحوها.

فصل

ومن أسباب دفع القلقِ الناشئِ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات - الاشتغالُ بعملٍ من الأعمال، أو علمٍ من العلوم النافعة؛ فإنها تُلهي القلبَ عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقته، وربما نسي بسبب ذلك: الأسباب التي أوجبت له الهمَّ والغمَّ، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه.
وهذا السبب - أيضًا - مُشْتَرَكٌ بين المؤمن وغيره.

ولكنَّ المؤمنَ يمتازُ بإيمانه، وإخلاصه، واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه، أو يُعلِّمه، ويعمل الخير الذي يَعْمَلُهُ؛ إن كان عبادةً فهو عبادةً، وإن كان شغلاً دنيويًّا^(١) أو عادةً دنيويةً^(٢) أَصْحَبَهَا النيةَ الصالحةَ، وقصدَ الاستعانةَ بذلك على طاعة الله؛ فلذلك أثره الفعَّالُ في دفع الهمومِ، والغمومِ، والأحزانِ؛ فكم من إنسانٍ ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فأحلت به الأمراضُ^(٣) المتنوعة، فصار دواؤه الناجعُ نسيانَهُ السببِ الذي كدَّره وأقلقته، واشتغالهُ بعملٍ من مهماته.

وينبغي أن يكون الشغلُ الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفسُ، وتشتاقه؛ فإن هذا

(١) في ط ١ : (و) بدلاً من (أو).

(٢) في بعض النسخ (وعادة) دون كلمة (دنيوية).

(٣) في بعض النسخ (فحلت به الأمراضُ) وفي نسخة الطبعة الأولى ما أثبت في الأعلى، وكلاهما

أدعى لحصول هذا المقصود النافع ، والله أعلم .
ومما يُدْفَعُ به الهمُّ والقلقُ اجتماعُ الفكرِ كُلِّهِ على الاهتمامِ بعملِ اليومِ الحاضرِ ،
وَقَطْعُهُ عن الاهتمامِ في الوقتِ المستقبلِ ، وعن الحزنِ على الوقتِ الماضي .
ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهمِّ والحزنِ ؛ فالحزنُ : على الأمورِ الماضية التي
لا يمكن رُدُّها ولا استدراكُها .

والهمُّ : الذي يحدثُ بسببِ الخوفِ من المستقبلِ ؛ فيكون العبدُ ابنَ يومِهِ ؛ يجمع
جِدَّهُ واجتهادَهُ في إصلاحِ يومِهِ ووقتهِ الحاضرِ ؛ فَإِنَّ جَمَعَ القلبِ على ذلكِ يُوجِبُ
تكميلِ الأعمالِ ، ويتسلى به العبدُ عن الهمِّ والحزنِ .

والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء ، أو أرشد أُمَّتَهُ إلى دعاء فهو ^(١) يَحْتُثُّ - مع الاستعانة
بالله والطمع في فضله - على الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله ،
والتخلي عما كان يدعو لدفعه ؛ لأن الدعاءَ مُقَارِنُ للعملِ ؛ فالعبدُ يَجْتَهِدُ فيما ينفعه
في الدين والدنيا ، ويسألُ رَبَّهُ نَجَاحَ مَقْصَدِهِ ، ويستعينه على ذلك ، كما قال ﷺ :
« احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإذا أصابك شيء فلا تقل : لو
أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل
الشيطان » .

فجمع ﷺ بين الأمرِ بالحرصِ على الأمورِ النافعةِ في كلِّ حال ، والاستعانةِ
بالله ، وعدمِ الانقيادِ للعجزِ الذي هو الكسلُ الضارُّ ، وبين الاستسلامِ للأمورِ
الماضيةِ النافذةِ ، ومشاهدةِ قضاءِ اللهِ وقدرِهِ .
وجعل الأمورِ قسامينَ : قَسَمًا يُمَكِّنُ العبدَ السعيَ في تحصيلِهِ ، أو تحصيلِ

(١) كذا في ط ١ و ٢ ، وفي بعض النسخ (فإنما) .

ما يمكن منه ، أو دَفَعَهُ ، أو تخفيفه؛ فهذا يبدي فيه العبدُ مجهودَه ، ويستعين بمعبوده .
وقسمًا لا يمكن فيه ذلك؛ فهذا يطمئن له العبدُ ، ويرضى ، ويُسلم .
ولا ريب أن مراعاة هذا الأصلِ سببٌ للسرور ، وزوال الهم والغم .

فصل

ومن أكبر الأسباب لانسراح الصدر وطمأنينته الإكثارُ من ذكر الله؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبيًا في انسراح الصدر وطمأنينته ، وزوال همه وغمه ، قال -تعالى- : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

فلذكر الله أثرٌ عظيمٌ في حصول هذا المطلوبِ لِخَاصِّيَّتِهِ ، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره .

وكذلك التحدثُ بنعم الله الظاهرة والباطنة؛ فإن معرفتها والتحدثَ بها يدفع اللهُ به الهمَّ والغمَّ ، ويحث العبدَ على الشكرِ الذي هو أرفعُ المراتبِ وأعلاها حتى ولو كان العبدُ في حالة فقرٍ ، أو مرضٍ ، أو غيرهما من أنواع البلايا؛ فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه - التي لا يُحصى لها عدٌّ ولا حسابٌ - وبين ما أصابه من مكروه لم يكن للمكروه إلى النعم نسبةٌ .

بل المكروهُ ، والمصائبُ إذا ابتلى اللهُ بها العبدَ ، وأدَّى فيها وظيفة الصبرِ ، والرضا والتسليم - هانت وطأتهما ، وخَفَّتْ مؤنثتها ، وكان تأميلُ العبدِ لأجرها وثوابها والتعبدِ لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضا - يدعُ الأشياءَ المرّة حلوةً؛ فتنسيه حلوةً أجرها مرارة صبرها .

ومن أنفع الأشياءِ في هذا الموضع استعمالُ ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح ، حيث قال : « انظروا إلى من هو أسفلَ منكم ، ولا تنظروا إلى من هو

فوقكم؛ فإنه أجدُرُ أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

فإن العبدَ إذا نصبَ بين عينيه هذا الملحظَ الجليلَ رآه يفوق قطعاً^(١) كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمُّه وغمُّه، ويزداد سروره واغتنابُه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها. وكلما طال تأملُ العبدِ بنعم الله الظاهرةِ والباطنةِ الدينيةِ والدينيويةِ - رأى ربَّه قد أعطاه خيراً كثيراً، ودفع عنه شروراً متعددة.

ولا شك أن هذا يدفع الهمومَ والغمومَ، ويوجبُ الفرحَ والسرورَ.

فصل

ومن الأسبابِ الموجبةِ للسرورِ وزوالِ الهمِ والغمِ - السعيُّ في إزالةِ الأسبابِ الجالبةِ للهمومِ، وفي تحصيلِ الأسبابِ الجالبةِ للسرورِ؛ وذلك بنسيانِ ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردُّها، ومعرَفَتِه أن اشتغالَ فكره فيها من باب العبثِ والمحالِ، وأن ذلك حمقٌ وجنونٌ، فيجاهدُ قلبه عن التفكيرِ فيها، وكذلك يجاهدُ قلبه عن قلقه لما يستقبله مما يتوهمه من فقرٍ، أو خوفٍ، أو غيرهما من المكاره التي يتخيَّلها في مستقبلِ حياته؛ فيعلمُ أن الأمورَ المستقبليةَ مجهولٌ ما يقع فيها من خيرٍ وشرٍ، وآمالٍ وآلامٍ، وأنها بيدِ العزيزِ الحكيمِ، ليس بيدِ العبادِ منها شيءٌ إلا السعيُّ في تحصيلِ خيراتها، ودفعِ مضراتها.

ويعلمُ العبدُ أنه إذا صرَفَ فكره عن قلقه من أجلِ مستقبلِ أمره، واتَّكَلَ على ربِّه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك - اطمأن قلبه، وصَلَحَتْ أحواله، وزال عنه همُّه وقلقُه.

(١) هكذا في الطبعة الأولى والثانية، وفي بعض النسخ المتأخرة «جمعاً».

ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمالُ هذا الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به: « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير ، والموت راحةً لي من كل شر » .
وكذلك قوله: « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفةً عينٍ ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت » .

فإذا لهجَ العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الدينيِّ والدنيويِّ بقلب حاضرٍ ، ونيةٍ صادقةٍ ، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك -حقيق الله له ما دعاه ، ورجاه ، وعمل له ، وانقلب همه فرحاً وسروراً.

فصل

ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد من النكبات - أن يسعى في تخفيفها بأن يُقدِّر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر ، ويوطن على ذلك نفسه ، فإذا فعل ذلك فليُسَّعَ إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان؛ فبهذا التوطين ، وبهذا السعي النافع تزول همومه وغمومه ، ويكون بدل ذلك : السعي في جلب المنافع ، وفي دفع المضار الميسورة للعبد.

فإذا حلت به أسبابُ الخوفِ ، وأسبابُ الأسقامِ ، وأسبابُ الفقرِ والعدمِ لما يجبه من المحبوبات المتنوعة -فليتلَقَّ ذلك بطمأنينةٍ ، وتوطينٍ للنفس عليها ، بل على أشدِّ ما يمكن منها؛ فإن توطينَ النفس على احتمال المكاره يهونها ، ويزيل شدتها ، وخصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره؛ فيجتمع في حقه توطينُ النفس مع السعي النافع الذي يشغلُّ عن الاهتمام بالمصائب ، ويجاهد نفسه على تجديده

قوة المقاومة للمكاره، مع اعتماده في ذلك على الله، وحسن الثقة به. ولا ريب أن لهذه الأمور فائدتها العظمى في حصول السرور، وانسراح الصدور، مع ما يؤمله العبد من الثواب العاجل والآجل. وهذا مشاهدٌ مجربٌ، ووقائعهُ ممن جربه كثيرةٌ جدًّا.

فصل

ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضاً للأمراض البدنية - قوة القلب، وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة؛ لأن الإنسان متى استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب، والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقُّع حدوث المكاره وزوال المحاب - أوقعه ذلك في الهموم والغموم، والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة.

ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله، وطمع في فضله - اندفعت عنه - بذلك - الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانسراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه؛ فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثرت هذه الأمور على قلوب كثيرين من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلى الحمق والجنون.

والمعافى من عافاه الله، ووقفه لجهاد نفسه؛ لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ : أي: كافيه جميع ما يهمله من أمر دينه ودنياه؛ فالتوكل على الله قوي القلب

لا تُؤثِّرُ فيه الأوهامُ، ولا تزعجه الحوادثُ؛ لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخورِ والخوفِ الذي لا حقيقة له، ويعلم - مع ذلك - أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة؛ فَيَثِقُ بالله، ويطمئنُ لوعده؛ فيزولُ همُّه وقلقه، ويتبدل عسره يسراً، وتَرَحُّه فرحاً، وخوفُه أمنًا؛ فنسأله - تعالى - العافية وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته، وبالتوكلِ الكاملِ الذي تكفل اللهُ لأهله بكل خير، ودفع كلِّ مكروهٍ وضير.

فصل

وفي قول النبي ﷺ: « لا يَفْرِكُ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر» فائدتان عظيمتان: إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكلٌّ من بينك وبينه علاقةٌ واتصالٌ^(١)، وأنه ينبغي أن تُوطِنَ نَفْسَكَ على أنه لا بد أن يكون فيه عيبٌ، أو نقصٌ، أو أمرٌ تكرهه؛ فإذا وجدت ذلك فقارن بين هذا وبين ما يجب عليك، أو ينبغي لك من قوة الاتصال، والإبقاء على المحبة بتذكُّر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة. وبهذا الإغضاء عن المساوي، وملاحظة المحاسن تدوم الصحة والاتصال، وتتم الراحة، وتحصل لك الفائدة الثانية: وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين. ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ بل عكس القضية؛ فلحِظَ المساوي، وعمي عن المحاسن - فلا بد أن يقلق، ولا بد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصلُّ به من

(١) هكذا في ط ١، وفي ط ٢ (عُلُقَة).

المحبة، وَيَتَقَطَّعُ كثير من الحقوق التي على كلٍّ منهما المحافظةُ عليها. وكثيرٌ من الناس ذوي الهمم العالية يوطنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبرِ والطمأنينة.

لكن عند الأمورِ التافهةِ البسيطةِ يقلقون، ويتكدر الصفاءُ. والسببُ في هذا أنهم وطنوا نفوسهم عند الأمورِ الكبارِ، وتركوها عند الأمورِ الصغارِ؛ فَضَرَّتْهم، وَأَثَرَتْ في راحتهم؛ فالحازمُ يوطنُ نفسه على الأمورِ القليلةِ والكبيرةِ، ويسأل الله الإعانةَ عليها، وألا يَكِلَهُ إلى نفسه طرفةَ عينٍ؛ فعند ذلك يسهل عليه الصغيرُ كما سهل عليه الكبيرُ، ويبقى مطمئنًا النفس ساكن القلبِ مستريحًا.

فصل

العاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياة السعادة والطمأنينة، وأنها قصيرة جدًا؛ فلا ينبغي له أن يُقَصِّرَها بالهم والاسترسال مع الأكدار؛ فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة؛ فَيَشِحُّ بحياته أن يذهب كثيرٌ منها نهبًا للهموم والأكدار.

ولا فرق في هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصفِ الحظُّ الأوفرُّ، والنصيبُ النافعُ العاجلُ والآجلُ.

وينبغي -أيضًا- إذا أصابه مكروهٌ، أو خاف منه - أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينيةً أو دنيويةً، وبين ما أصابه من مكروه؛ فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، واضمحلال ما أصابه من المكروه.

وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوثِ ضررٍ عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها؛ فلا يدعُ الاحتمالَ الضعيفَ يغلب الاحتمالاتِ الكثيرةَ القويةَ، وبذلك يزول همُّه وخوفُه.

ويُقَدَّرُ أعظمَ ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيُؤَوِّطُنُ نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يَقَعْ منها، وفي رَفْعِ ما وقع أو تخفيفه. ومن الأمور النافعة أن تَعْرِفَ أن أذية الناس لك - وخصوصاً في الأقوال السيئة - لا تضرك، بل تضرهم إلا إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسوَّغْتَ لها أن تملك مشاعرك؛ فعند ذلك تضرك كما ضررتهم؛ فإن أنت لم تُصنِعْ^(١) لها بالاً لم تضرك شيئاً.

واعلم أن حياتك تَبَعُ لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس.

ومن أنفع الأمور لطرد الهم أن توطن نفسك على ألا تَطْلُبَ الشكرَ إلا من الله؛ فإذا أحسنت إلى من له حقُّ عليك، أو من ليس له حق فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله؛ فلا تُبَالِ بشكر مَنْ أنعمتَ عليه، كما قال -تعالى- في حق خواصِّ خلقه: ﴿ إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾.

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد ومن قَوي اتصالك بهم، فمتى وَطَّنتَ نَفْسَكَ على إلقاء الشر^(٢) عنهم فقد أرحمت واسترحمت.

ومن دواعي الراحة أَخْذُ الفضائل، والعملُ عليها بحسب الداعي النفسي دون التكلف^(٣) الذي يُقْلِقُكَ، وتَعُوذُ على أدرجك خائباً من حصول الفضيلة؛ حيث

(١) كذا في ط ١ و ٢، وفي بعض النسخ المتأخرة (تضع).

(٢) هكذا في الأصل وفي جميع النسخ، ولا معنى لها ههنا، ولعلها كلمة (الشره): وهي كلمة معروفة عند العامة، وهي مرادفة للعتاب، واللوم، ويعني بذلك أن من ترك عتاب الأهل والأولاد على ترك الشكر أراح واستراح، وهذا شيء مشاهد.

وقد تكون الكلمة (الشكر) يعني أنك إذا لم تطالبهم بالشكر أرحمت واسترحمت.

(٣) هكذا في ط ١، وفي ط ٢ ليس فيها (دون التكلف).

سلكت الطريقَ الملتوي، وهذا من الحكمة، وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافيةً حلوةً، وبذلك يزيد صفاء اللذات، وتزول الأكدارُ.

اجعل الأمور النافعة تُصَبَّ عينيك، واعمل على تحقيقها، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة؛ لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن، واستعن بالراحة، وإجمام^(١) النفس على الأعمال المهمة.

ومن الأمور النافعة حسم الأعمال في الحال، والتفرغ في المستقبل؛ لأن الأعمال إذا لم تُحسَم اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة؛ فتشدد وطأتها؛ فإذا حَسَمْتَ كلَّ شيءٍ بوقته أتيت الأمور المستقبلية بقوة تفكير، وقوة عمل.

وينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة الأهمَّ فالأهمَّ، وميّز بين ما تميل نفسك إليه، وتشدد رغبتك فيه؛ فإن ضده يُحدثُ السامةَ والمللَ والكدرَ، واستعن على ذلك بالفكر الصحيح، والمشاورة؛ فما ندم من استشار، وادرس ما تريد فعله درساً دقيقاً؛ فإذا تحققت المصلحة، وعزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

تمت هذه الرسالة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) في ط ٢، وأكثر النسخ (إجماع) وفي ط ١ (إجمام) وهو الصحيح المتسق مع ما قبله.

شرح الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه وسلم^(١).

أما بعد^(٢):

(١) بدأ المؤلف ﷺ على عادته، وعادة العلماء بالبسملة، والحمدلة،
والشهادة لله بالألوهية والوحدانية، ولنبيه محمد ﷺ بالرسالة، والصلاة على النبي
والآل والصحاب.

(٢) قوله: «أما بعد»: أما: حرف شرط وتوكيد دائماً، وتفصيل غالباً.

ولا بد من ذكر الفاء في جوابها.

وقد تحذف الفاء جوازاً إذا كانت داخلة على قول محذوف؛ فتحذف معه، كما
في قوله -تعالى-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ آل
عمران: ١٠٦.

أي: فيقال لهم؛ حيث حذف الجواب، وحذفت معه الفاء.

أما غير ذلك فلا تحذف الفاء إلا في ضرورة كما في قول الشاعر:

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيراً في عراض المواكب

= التقدير: فلا قتال^(١).

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ١/٢٦٧-٢٦٩، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن

هشام شرح محمد محيي الدين عبد الحميد ٤/٢٣٢-٢٣٤.

فإن راحة القلب، وطمأنينته وسروره وزوال همومه وغمومه^(١)، هو
المطلب لكل أحد^(٢)، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج^(٣).

= وقول: «أما بعد»: أسلوب ينتقل به من سياق إلى سياق، وقيل: إنها فصل
الخطاب الذي أوتيه داود - عليه السلام -.

وقد اختلف في أول من قالها على ثمانية أقوال مجموعة في قول الناظم:
جرى الخلف أما بعد من كان بادياً بهاء أقوال وداود أقرب
ويعقوب أيوب الصبور وأدم وقس وسحبان وكعب ويعرب
(١) في ط ٢ (عمومه).

(٢) قوله: «فإن راحة القلب ... هو المطلب لكل أحد»: انتقل المؤلف - بعد
ذلك - إلى الغرض الذي ألف من أجله تلك الرسالة؛ فأوضح أن السعادة مطلب
لكل أحد كائناً من كان لا فرق في ذلك بين كبير أو صغير، أو رفيع أو وضع، أو
عالم أو جاهل، وقد مر الكلام على ذلك في التمهيد بشيء من البسط.

(٣) وقوله: «وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج»: يعني بذلك
أن هذا المطلب، وهو الوصول إلى السعادة الناشئة عن راحة القلب، وزوال هم
هو السبيل إلى الحياة الطيبة، وكمال السرور والابتهاج في الحياة.

وهذان اللفظان (السرور) و (الابتهاج): مما يستعمله أكابر الكتاب من معاصري
الشيخ السعودي كالأستاذ أحمد أمين، فله مقالات كثيرة في كتاب (فيض الخاطر)
٢٠٥-١٩٧/٢، و٢٠٣/٤، و١٢٦-١٢٩، و٢٤٤، و٢٠٦-٢٠٩، و٢٢٣.

وتحمل عنوانات (الابتهاج بالحياة) و (فن السرور) ونحو ذلك.
ولا يبعد أن يكون الشيخ السعودي قد قرأ تلك المقالات؛ إذ هو ممن يجمع بين الثقافة
الشرعية، والتراثية، والعصرية.

ولذلك^(١) أسباب دينية^(٢)، وأسباب طبيعية^(٣).

(١) قوله: «ولذلك»: يعني أن لذلك المطلب - وهو راحة القلب، وطمأنينته، وسروره - أسباباً توصل إليه؛ إذ لا يكفي لتحقيقه أن يكون أمنيّةً فحسب، بل لابد من لذلك من الأسباب، وهي مدار الكلام في هذه الرسالة.

(٢) قوله: «أسباب دينية»: أي شرعية مما جاء في الكتاب والسنة من الأسباب الجالبة للسعادة، الطاردة للهموم والغموم، من نحو العلم النافع والعمل الصالح، وما يندرج تحتها من الأفراد التي تكثر تفاصيلها، ويصعب حصرها من نحو العلم بالله وبأمره، وسننه في خلقه، وما أخبر به عن أوليائه، ومن نحو الصلاة، والذكر، والدعاء، وقراءة القرآن، والإحسان إلى الخلق، وما جرى مجرى ذلك مما سيرد تفصيله في غضون هذه الرسالة.

(٣) قوله: «أسباب طبيعية»: يعني بها الأسباب الجالبة للسعادة الناشئة من جيلة الإنسان، وتركيبته المتأثرة ببيئته، وثقافته مجتمعه؛ فمن الناس من هو -بطبيعته- جذلٌ مسرور، طارد للهموم، جالب للمسرات، مطبوع على الصبر، والتحمل، واعتدال المزاج، كما في قول تأبط شراً يصف ابن عمّه شمس ابن مالك:

قليل التشكي للمهم يصيبه كثير النوى شتى الهوى والمسالك

وقول أبي تمام في نوح بن عمرو:

لا تدعون نوح بن عمرو دعوةً للخطب إلا أن يكون جليلاً

يقظ إذا ما المشكلات عروونه ألفتيه المتبسم البهلولا

ثبت المقام يرى القبيلة واحداً ويرى فيحسبه القيل قبيلًا =

= وتجد بعض البيئات ينتشر فيها السرور، والتكافل، والتوادد، كما ذكر المسعودي في عن أهل التبت من أنهم أناس فرحون؛ فلا تراهم إلا باسمين، وأن الإنسان فيهم لا يزال أبداً ضاحكاً مسروراً لا تعرض له الأحزان، ولا الغموم.

ولا يكاد يرى في ذلك البلد شيخ حزين، حتى إن الميت لا يكاد يداخل أهله عليه كثير حزن، وأن بينهم تحنناً على بعض، وفيهم بشاشة وأريحية^(١).

وفي مقابل ذلك تجد بعض الناس، وبعض البيئات بعكس ذلك؛ فلا تراهم إلا عابسين مقطبين متنافرين؛ فأدنى عارض يكدر صفوهم، ويؤرق أجفانهم. وكل ذلك يلقي بظلاله على الإنسان سعادة أو شقاوة.

بل قد يكون مجتمع من المجتمعات ينعم بسرور، وطمأنينة؛ فتكون السعادة عنواناً لهم؛ فيحصل تغيير في ثقافتهم، أو أجوائهم، أو أحوالهم؛ جراء الحروب، أو تبدل أحوال الحكم، أو نحو ذلك؛ فتتقلب أحوالهم رأساً على عقب، وذلك كحال التبت الذين ذكر عنهم المسعودي أنهم في زمانه أهل سرور، وأن الأحزان لا تعرض لهم؛ حيث كشفت دراسة غربية نفسية حديثة أجريت على مشاركين من طبقات متعددة من أهل التبت؛ فأظهرت نتائج تلك الدراسة أن انتشار الاكتئاب في التبتين في هضبة تشينغهاي أعلى من انتشاره في عموم الصينيين.

وعزت الدراسة ذلك إلى عوامل قد تكون مرتبطة بالاختلافات الثقافية، ونقص الأكسجة المزمّن الناجم عن الارتفاع الشاهق^(٢).

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ١/١٧٨.

(٢) أفادني بهذه الدراسة استشاري الطب النفسي والطب النفسي الجسدي الأستاذ الدكتور فهد

بن دخيل العصيمي - حفظه الله..

وأَسبابَ عَمَلِيَّةٍ^(١)، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين^(٢).

(١) قوله: «وأَسبابَ عَمَلِيَّةٍ»: يعني بها الأسباب الاكتسابية التي تُنال بالدَّربَةِ، والتمرين، ودَرْءِ الهم، واستدعاء السعادة؛ فإذا أخذ الإنسان بالأسباب الجالبة للسعادة أقبلت نحوه، وأشرقت شمسها عليه «وإنما الحلم بالتحلم، وإنما العلم بالتعلم، ومن يتحرَّ الخير يُعْطِه، ومن يتوق الشر يوقه»، و «من يتصبر يصبره الله». وعلى كل حال فالأسباب المذكورة آنفاً مترابطة متشابكة يصعب انفكاك بعضها عن بعض، وهي بمجموعها تُفضي إلى السعادة، وطردهم.

(٢) قوله: «ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين»: يعني أن تلك الأسباب: الدينية، والطبيعية، والعملية لا تتحصل بتمامها إلا لأهل الإيمان؛ لأنهم يَجْمَعون في تحصيل السعادة بين تلك الأسباب، وإن كانوا يتفاوتون في السعادة بحسب تفاوتهم في العلم، والإيمان، والاستعداد، والأخذ بسائر الأسباب.

وأما من سواهم، فإنها وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه - فقد فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالاً ومالاً^(١).
ولكنني سأذكر برسائلي هذه ما يحضرنى من الأسباب^(٢) لهذا المطلب الأعلى، الذي يسعى له كل أحد^(١).

(١) قوله: «وأما من سواهم...» إلى قوله: «وأحسن مالاً»: يعني غير المؤمنين من الكفار، والملاحدة، ونحوهم من أهل الفجور، والإجرام، والإيغال في الموبقات؛ فهؤلاء يسعون سعيهم للحصول على السعادة، ويجتهد عقلاؤهم ومفكروهم لرسم معالم السعادة عندهم، وقد ينالون نصيباً منها. ولكنها سعادة متوهمة، أو مبتورة؛ إذ يفوتهم من السعادة أصلها وأساسها وهو الإيمان بالله - عز وجل -.

وتبقى سعادتهم منغصة مشوبة بالكدر؛ لكفرهم بالله، وانقطاعهم عنه، وعمّا أعده للمؤمنين من الحياة الطيبة في العاجلة، وما ينتظرهم من الجزاء في الأوفى في الآجلة.

(٢) قوله: «ولكنني سأذكر برسائلي...»: يشير بذلك إلى أنه لم يُرد بتلك الرسالة الاستقصاء في بحث الأسباب الجالبة للسعادة؛ فذلك مرتقى صعب، ولا تحتمله هذه الرسالة.
وإنما سيذكر جملة مما يحضره من أصول السعادة، ويدخل تحتها من الأفراد مما يصعب حصره.

فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشة هنيئة، وحيي حياة طيبة،
ومنهم من أخفق فيها كلها؛ فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التعساء.
ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له.

والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر^(١).

(١) قوله: «لهذا المطلب الأعلى الذي يسعى له كل أحد»: يشير بذلك إلى
السعادة؛ فهي غاية يسعى إليها الناس جميعاً.

(٢) قوله: «فمنهم...» إلى قوله: «كل شر»: يقصد بذلك أن الناس في
السعادة على طبقات؛ فمنهم من نال النصيب الأوفى من السعادة، ومنهم من هو
في أحط دركات الشقاء، ومنهم من يتجاذبه جانباً: السعادة، والشقاوة بحسب
ما يُمدُّ منهما.

ويبين أن التوفيق بيد الله؛ فهو المستعان على جلب كل خير، ودفع كل شر.
ثم شرع بعد ذلك في ذكر الأسباب الجالبة للسعادة على وجه التفصيل.

(فصل)

وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسها هو الإيمان والعمل الصالح^(١).

(١) هذا شروع من المؤلف رحمته الله في ذكر أسباب السعادة على وجه التفصيل، وبدأ بأولها، وأهمها وأعظمها، وأساسها، ومعينها الذي تتفجر منه ينابيعها ألا وهو الإيمان، والعمل الصالح.

والمقصود بالإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاء في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة من أصول الدين، وأموره، وأخباره، والتسليم لله - تعالى - في الحكم والأمر، والقدر، والشرع، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة، والتحكيم، والاتباع. والمقصود بالعمل الصالح: كل ما يُتقربُ به إلى الله من قول، أو فعل، أو ترك، وهو ما اجتمع فيه الإخلاص لله، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الله - تعالى -: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠.

فهذان هما شرطاً لقبول العمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرع، ولا نعبد بالبدع، كما قال - تعالى -: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠.

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله؛ ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ؛ فعلينا أن

نصدق خبره، ونطيع أمره»^(١).

وقال ابن القيم رحمته الله: «لا يكون العبد متحققاً بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: الإخلاص للمعبود؛ فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(٢). وتحقيق هذين الشرطين يكون بتمام الإخلاص، وإحسان العمل، وإتقانه.

(١) العبودية لابن تيمية ص ١٧٠ .

(٢) مدراج السالكين لابن القيم ١٠٤/١ .

قال - تعالى -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة النحل: ٩٧.

فأخبر - تعالى - ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار^(١).

() قوله: «قال -تعالى-...» إلى قوله: «دار القرار»: استشهد على السبب الأعظم للسعادة بهذه الآية من سورة النحل، وبين أن الله -عز وجل- وعد -ووعده الحق- من قام بالإيمان والعمل الصالح - بالحياة الحافلة بكل ما هو طيب، وبالفوز بالنعيم المقيم يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ فمن عمل صالحاً وهو مؤمن فله الحياة الطيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً، ويحشر يوم القيامة أعمى.

وتأمل قوله -تعالى-: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فإن كلمة (حياة) نكرة في سياق الشرط، ووُصِفَتْ بأنها (طيبة) فتفيد عموم ما هو طيب. والحياة الطيبة شاملة لراحة البال، وطيب العيش، وانسراح الصدر، وحسن الأحذوثة.

ومن الأمثلة على ذلك من القرآن حال إبراهيم الخليل -عليه السلام- فهو مثال لمن عاش الحياة الطيبة؛ فقد آتاه الله حسنة في حياته، وجعل له لسان صدق في الآخرين بعد مماته، وله في الآخرة حسنة، وهي رضا الرحمن، ودخول أعالي الجنان.

والحاصل أن سعادة الدنيا مرتبطة بسعادة الآخرة، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة -كما يقول ابن تيمية-.

=

= قال الله - جل ثناؤه -: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^{٨٢} الأنعام.

فالأمن التام، والاهتداء التام في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد بحسب تحقُّق الإيمان؛ فمن حقق الإيمان على الوجه الأكمل كان له النصيب الأوفى من الأمن والاهتداء في الدور الثلاثة، والعكس. ومن أعظم الأمن والاهتداء حصول السعادة، والسرور، والبهجة، والراحة، والنعيم.

ولا يعني ذلك ألا يتعرض المؤمن للبلاء؛ فيعيش دون أدنى مكدّر. وإنما المقصود أن يكون مطمئن القلب، راضياً بما يقضيه الله عليه، كما قال الأول: ما مسني قدرٌ بضرٍّ أو رضاً إلا وجدت به إليك طريقاً يقول ابن حزم رحمته الله بعد أن فصل الكلام في تطلب الناس لطرد الهم: «وليس في العالم - مذ كان إلى أن يتناهى - أحد يستحسن الهم، ولا يريد طرده عن نفسه؛ فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي هذا السر العجيب، وأثار الله - تعالى - لفكري هذا الكنز العظيم - بحث عن سبيل موصلة - على الحقيقة - إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان - الجاهل منهم، والعالم، والصالح، والطالح - على السعي له؛ فلم أجدها إلا التوجه إلى الله - عز وجل - بالعمل للأخرة»^(١).

ثم أفاض في ذكر سعي الناس المختلف الذي يرومون به طرد الهم، وقال بعد أن عدّد جملة من ذلك: «وجدت العمل للأخرة - سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر - موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للأخرة إن =

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٤-١٥ .

= امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم ، بل يسر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب ، وزايدٌ في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائقٌ لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك؛ فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قُصِدَ بالأذى سُرَّ، وإن نكبتَه نكبةٌ سُرَّ، وإن تعب فيما سلك فيه سر؛ فهو في سرور متصل أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً^(١).

ثم ختم كلامه بقوله: «فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم ، وليس إليه إلا طريق واحد ، وهو العمل لله - تعالى-»^(٢).

ولابن تيمية رحمته الله وقفات كثيرة جداً حول هذا المعنى ، وهي مبثوثة في مواضع شتى في غضون كتبه.

ومن ذلك قوله رحمته الله: « فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بالله الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن بالدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولا بد لها من لقائه.

ولا صلاح لها إلا بلقائه ، ولو حصل للعبد لذاتٌ أو سرورٌ بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ - غير منعمٍ ولا ملتذٍ له ، بل قد يؤذيه اتصاله به ، ووجوده عنده ، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال ، وكل وقت ، وأينما كان فهو معه ، ولهذا =

(١) المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

= قال إمامنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦).
 وكان أعظم آية في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾
 (البقرة: ٢٥٥)»^(١).

وقال في: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله - سبحانه -».

ومن عبد غير الله وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة - فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ آكل الطعام المسموم»^(٢).

وقال في معرض حديث له عما يجده أهل الظلم والفجور: «ولهذا تجد القوم الظالمين أعظم الناس فجوراً، وفساداً، وطلباً لما يروّحون به أنفسهم من مسموع، ومنظور، ومشموم، ومأكول، ومشروب.

ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك.

هذا فيما ينالونه من اللذة، وأما ما يخافونه من الأعداء فهم أعظم الناس خوفاً، ولا عيشة لخائف.

وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم، لا يزال في أسف على ما فاتته، وعلى ما أصابه.

أما المؤمن - فهو مع مقدرته - له من الإرادة الصالحة، والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه، وانسراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة، وله من الطمأنينة وقرّة العين ما لا يمكن وصفه.

=

(١) مجموع الفتاوى ٢٤/١ - ٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/١.

= وهو مع عجزه -أيضاً- له من أنواع الإيرادات الصالحة ، والعلوم النافعة التي يتنعم بها - ما لا يمكن وصفه.
وكل هذا مُجَرَّبٌ محسوس ، وإنما يقع غلطُ أكثر الناس أنه قد أحسَّ بظاهر لذاتِ أهل الفجر وذاقها ، ولم يذُق لذات أهل البر ولم يَحْبُرْهَا»^(١).

(١) جامع الرسائل ٢/٣٦٣-٣٦٣.

وسبب ذلك واضح؛ فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المتمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة - معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان^(١).

(١) قوله: «القلق والهم والأحزان»: هذه كلمات متقاربة، ويكثر إيرادها في هذه الرسالة التي تدور حول مقاومة هذه الأحوال.

وقريب منها كلمة «الغم».

أما القلق فهو حالة مَرَضِيَّة تعني انزعاج النفس، واضطراب القلب، وحلول الخوف، وفقدان السكينة والطمأنينة، وهو دركات.

وأما الهم فهو الحزن، والقلق، والغم الذي يعتري الإنسان، وجمعه هموم.

ويطلق الهم على الفكر في إزالة المكروه، واجتلاب المحبوب.

فالهم - إذاً - قلق، وغم يلحق النفس بسبب وقوع شيء، أو السعي في إزالة شيء، أو جلبة في المستقبل، والغم قريب منه، وقد يطلق على ما يُخاف وقوعه في المستقبل.

وأما الحزن، والحُزن فنقيض الفرح، وخلاف السرور^(١).

قال الراغب: «الحزن خشونة في الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل من

الغم»^(٢).

(١) انظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٢٢١، ومعجم مفردات القرآن للراغب

الأصفهاني ص ٥٤٣، ولسان العرب ٦١٩/١٢-٦٢٠.

(٢) معجم مفردات القرآن ص ١٠.

= وقال أبو هلال العسكري: «الحزن تكائف الغم وغلظه»^(١).

وقال الجرجاني: «الحزن عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»^(٢).

وهذا يعني أن الحزن غم يلحق النفس لمكروه وقع في الحاضر، أو محبوب فات في الماضي.

وعلى كل حال فهي معانٍ متقاربةٌ تفيد فقدان الراحة، والسعادة، والطمأنينة، وحلول ما يضادها.

والمؤلف رحمه الله في هذا المقطع يشير إلى سبب كون الإيمان والعمل الصالح أصل السعادة وينبوعها الأعظم؛ فالمؤمنون حقاً ينظرون بنور الله، ويتلقون علمهم من مشكاة الوحي؛ ويدركون أن الحياة مشتملة على الأفراح والأتراح، والشقاء، والنعيم، واللذة، والألم، والصحة، والمرض، والغنى، والفقر، وما جرى مجرى ذلك؛ فيتعاملون مع تلك الأحوال على وفق ما ترشدهم إليه نصوص الشرع، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ فيحسنون التلقي لجميع ما يرِدُ عليهم من متغيرات الحياة.

ولهذا حكم الله - عز وجل - بالخسر لكل أحدٍ إلا من استثناهم في سورة العصر التي قال عنها الإمام الشافعي رحمه الله: «لو ما أنزل الله على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

=

(١) الفروق اللغوية ص ٢٢١.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٩.

= قال - عز وجل -: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ العصر.

وتفاصيل أحوال أهل الإيمان من خلال الكتاب والسنة كثيرة جداً، وسيورد المؤلف أمثلة عليها في غضون هذه الرسالة.

يتلقون المحابَّ والمسارَّ^(١) بقبول لها^(٢) وشكر عليها^(٣)، واستعمال لها فيما ينفع^(٤)؛

(١) قوله: «يتلقون المحابَّ والمسارَّ»: يعني أهل الإيمان، والعمل الصالح؛ فيوضح كيف يستقبلون النعم التي يحبونها، ويلتذون بها سواء كانت حسيةً من نحو زيادة المال، وسعة الرزق، وصحة البدن.

أو كانت معنوية من نحو صلاح الأولاد، وزيادة العلم، والإيمان، ومساعدة الأحوال، والسلامة من المكدرات.

(٢) قوله: «بقبول لها»: أي بحسن الاستقبال لها، بحيث يعلمون أنها محض فضل الله، ومنتها، وكرمه؛ فيتلقونها بفرح وسرور دون أشر أو بطر.

(٣) قوله: «وشكر عليها»: أي بالقيام بواجب الشكر لله، والثناء عليه أن تكرر، وجاد، وأنعم بهذه النعم التي تحبها النفوس، وتسرُّ بها.

ولهذا كان من دعاء المؤمنين: «اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا».

(٤) قوله: «واستعمال لها فيما ينفع»: يعني أنهم يستعينون بهذه النعم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ بحيث يتقوون بها على زيادة القرب من الله، وعلى ما يكون به قوام حياتهم، وما يحفظون به كرامتهم، ويقومون به مروءاتهم، وجميع ما يسعدهم، ويسعد بهم.

فإذا استعملوها على هذا الوجه، أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها^(١).

() قوله: «فإذا استعملوها على هذا الوجه» إلى قوله: «... هذه ثمراتها»: يعني أن استعمالهم لتلك النعم على هذا النحو يضاعف سرورهم، والتذاذهم بتلك النعم؛ فيرتب على ذلك مزيد سعادة، واستبقاء لتلك النعم، وحفظ لها من الضياع، والنقص؛ فتكون السعادة بها أعظم، واللذة أتم وأكمل؛ فتلك حال أهل الإيمان عند النعماء كما قال -عز وجل- عن سليمان -عليه السلام- بعد أن رأى ما رأى من نعم ربه، ومزيد فضله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل: ٤٠.

بخلاف حال هامان الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص: ٧٨. فكان عاقبة الأول رشداً وفلاحاً، وحسن حال ومآل، وكانت عاقبة الآخر خزيًا، وخسارةً، وسوء منقلب.

وكما أن هذه هي حال الأفراد مع النعم فكذلك هي حال الأمم، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الأعراف: ٩٦.

وأخبر عن أمة أنعم عليها بوافر النعم؛ فلم تشكر؛ فكانت عاقبتها دماراً، وبواراً، وزوال نعمه، وذهاب ربح.

= وتلك الأمة هي سبأ؛ قال الله -جل ثناؤه-: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾^{١٥} سبأ: ١٥.

قيل في تفسيرها: كان لكل رجل منهم في مسكنه جنتان: جنة عن يمين المسكن، وجنة عن يساره؛ فكانوا يتفيؤون ظلالهما في الصباح والمساء، ويجتنون ثمارها من نخيل، وأعناب، وغيرها. وقيل: كانت مدينتهم محفوفةً عن يمينها وشمالها بغابة من الجنات يصطافونها، ويستثمرونها.

بل قيل: إن السائر لو وضع على رأسه مكتلاً لوجده قد ملئاً ثماراً مما يسقط من الأشجار التي يسير تحتها.

وكان من تمام نعمتهم أن يسرَّ الله لهم الأسفار، وعمران الديار؛ فكانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية قوافل للتجارة، وبيع الطعام سلكوا طريق تهامة، ثم الحجاز، ثم مشارف الشام، ثم بلاد الشام؛ فكانوا كلما ساروا مرحلة وجدوا قرية، أو بلداً، أو داراً للاستراحة وتزودوا مما يحتاجون إليه؛ فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزواداً إذا خرجوا من مأرب.

وكانوا يسيرون غداً وعشيا؛ فيسيرون في الصباح، ثم تعترضهم قرية، فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون في المساء؛ فتعرضهم قرية فيبيتون بها؛ فمعنى ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي سيروا كيف شئتم.

ولكنهم -مع ذلك كله- لم يشكروا نعمة الله، بل أعرضوا، وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

= وقد درج المفسرون على أنهم دعوا الله بذلك؛ فلم يقدروا نعمة الله حق قدرها؛ فسألوا الله أن تزول تلك القرى العامرة؛ ليسيروا في الفيافي، ويحملوا الأزواد من الطعام والشراب.

ثم يحتمل - كما يقول ابن عاشور - أن يكون أصحاب تلك المقالة ممن كانوا أدركوا حال تباعد الأسفار في بلادهم قبل أن تؤول إلى تلك الحضارة، أو ممن كانوا يسمعون أحوال الأسفار الماضية في بلادهم، أو أسفار الأمم البادية، فتروق لهم تلك الأحوال. وهذا من كفر النعمة الناشئ عن فساد الذوق في إدراك المنافع وأضدادها؛ لذا كانت النتيجة ﴿ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

فصار أولئك القوم الذين يعيشون في مجبوحة من العيش - أحاديث، أي لم يبقَ منهم أحد، فصار وجودهم في الأخبار والقصص؛ حيث تفرقوا بعد سيل العرم؛ فكان ذلك مُسرِعاً فيهم بالفناء بالتغرب في الأوطان، والفاقة، وتسلط العوادي في الطرقات، حتى ضربت العربُ بهم المثل في قولهم: ذهبوا أو تفرقوا أيدي، أو أيادي سبأ، كما قال ذو الرمة:

فِيَا لِكَ مِنْ دَارٍ تَفَرَّقَ أَهْلُهَا أَيَادِي سَبَأٍ عَنْهَا وَطَالَ انْتِظَارُهَا^(١)

والحاصل أن حال أهل الإيمان مع النعماء الشكر؛ فيحصل لهم من جراء ذلك مسرات، وبركات تفوق أصل النعم التي حصلت لهم ابتداءً. بخلاف غيرهم ممن يستقبلون النعم بالأشر، والبطر، والكفران؛ فَتَفَرُّهُمْ مِنْهُمْ، ويحل محلها الخسارة والبوار.

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٢/١٧٨-١٧٩.

وَيَتَلَقَّوْنَ الْمَكَارَةَ وَالْمَضَارَّ، وَالْهَمَّ وَالْغَمَّ^(١) بِالْمَقَاوِمَةِ لِمَا يُمْكِنُهُمْ مَقَاوِمَتُهُ^(٢)،
وَتَخْفِيفٍ مَا يُمْكِنُهُمْ تَخْفِيفُهُ^(٣)، وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ لِمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُ بَدٌّ^(٤).

(١) قوله: «ويتلقون المكاره، والمضار، والهم، والغم»: يعني بذلك:

المؤمنين.

وهذا شروع في بيان حالهم مع الضراء، ومع ما يصيبهم مما يكرهونه مما فيه
ضر، أو هم، أو غم، أو خسارة، أو ما جرى مجرى ذلك من المكروهات.

(٢) قوله: «بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته»: أي أنهم يأخذون بالأسباب التي

تدفع هذا البلاء ابتداءً قبل وقوعه، أو ترفعه بعد أن يقع؛ فيسعون سعيهم
لمواجهته؛ لأجل أن يسلموا من غوائله، وما يجلبه لهم من الهم، والغم؛ فيدرؤون
ذلك قدر ما يستطيعون دون استسلام، أو تراخ، أو تعطيل للأسباب.

(٣) قوله: «وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه»: أي أنهم إذا لم يستطيعوا دفع الشرِّ

كله سعوا إلى تخفيف الآثار الناجمة عنه؛ فبعض الشرِّ أهون من بعض؛ فكما أن
تعطيل الشر مطلب فتقليله - كذلك - مطلب.

(٤) قوله: «والصبر الجميل لما ليس لهم منه بد»: أي أنهم إذا دهمهم أمر

لا طاقة لهم به؛ بحيث لا يستطيعون دفعه، ولا رفعه، ولا تخفيفه - تذرعوا بالصبر
الجميل الخالي من الشكوى، والجزع، والخور، والتسخط، مسلمين لله في الأمر،
محتسبين عنده الثواب والأجر، منتظرين منه جميل الفرج والمخرج.

وذلك تمام الحكمة، والعقل.

وبذلك^(١) يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والامال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه^(٢).

(١) قوله: «وبذلك»: أي بذلك التصرف الصحيح حيال ما يكرهون.

(٢) قوله: «يحصل لهم» إلى قوله: «والطمع في فضل الله وثوابه»: هذه من آثار التصرف الصحيح، وحسن التلقي للمكاه؛ حيث يحصل لهم من جراء ذلك قوة الصبر، والتدرب على تلقي المصائب، وحسن النظر في العواقب، وانتظار لطف الله وقرب غيره، واكتساب الخبرة في تلقي أمثالها من المكاه، وحسن المعالجة لمن وقعت له مثل تلك الأحوال، علاوة على ما في ذلك من الثواب الجزيل، والأجر العظيم؛ فتكون تلك المكاه من قبيل المنح في طي المحن - كما قال الأول -:
كم نعمة لا تسقل بشكرها لله في طي المكاه كامنة
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، والقرآن حافل بذكر المؤمنين ممن تمر بهم المصائب؛ فيأخذون بهذا التوجيه الرباني؛ فتكون العاقبة أحمد مما يتصورون.
ومن ذلك ما جاء في قصة أم موسى - عليه السلام - لما ألقته في اليم، وسلّمت أمرها لله - عز وجل - فكانت العاقبة أن صارت ترضعه على مرأى ومسمع، ورعاية ممن تخاف أن يلحق به الضرر، وهو فرعون.
وقل مثل ذلك وأعظم ما جاء في قصة مريم - عليها السلام - وكيف تعاملت مع ذلك الهم العظيم الذي نزل بها من جراء حملها، ووضعها.
وسياتي تفصيل ذلك عند الكلام على أمثلة لمن ألمت بهم المزعجات من أهل الإيمان، وما يكون منهم من حسن التدبير، والمواجهة، والمقاومة.

كما عبر النبي ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: «عجياً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير؛ إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» فأخبر ﷺ أن المؤمن يتضاعف غنمُهُ، وخيرُهُ، وثمراتُ أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره^(١).

(١) قوله: «كما عبر النبي ﷺ...» إلى قوله: «من السرور والمكاره»: استشهاد من المؤلف على ما مضى من أحوال المؤمنين مع سائر تقلبات الأحداث بحديث صهيب رضي الله عنه في صحيح مسلم، وهو حديث عظيم بيّن وصف المؤمن، واعتداله في حالي السراء والضراء؛ فحاله عند السراء -وهي اسم جامع لكل ما يسر- الشكر، وحاله عند الضراء -وهي اسم جامع لكل ما يسوء- الصبر. وذلك قمة ما يكون من الكمال البشري، كما عبر عن ذلك ابن الوزير اليماني رحمته الله بقوله:

ومن كملت فيه النهى لا يسره نعيم ولا يرتاع للحدثان
ولو قال: (لا يفره) بدلاً من (لا يسره) لكان أبلغ وأصدق.

ولزوم الاعتدال حال السراء والضراء من أهم أسباب السعادة، وعليه مدار الحديث في غالب هذه الرسالة؛ لذا سيُفصّل الكلام عنه ههنا؛ حتى يغني عن التفصيل في مواضع أخرى؛ فتوطين النفس على لزوم الاعتدال حال السراء والضراء هو حال الكمّل من البشر؛ فالإنسان في هذه الحياة الدنيا يتقلب في أحوال عديدة، فقد يتلى بالفقر وقلة ذات اليد، وقد ينال نصيباً وافراً من عرض الدنيا، وقد يمتّع بالصحة وسائر الحواس، وقد يصاب بالمرض، وتدركه الشيخوخة، ويضعفه كبر السن، وقد ينال ولايةً وشهرةً وبعْدَ صيتٍ، وقد يعقب ذلك عزل، =

= وذُلٌّ، وخمولٌ ذكِرٌ.

ولهذه الأمور وغيرها أثر بالغ في النفس؛ فالفقر قد يقود إلى الذلة، ويدعو إلى الخنوع.

والغنى قد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً، وتسوء طرائقه أشراً، وقد قيل: من نال استطال.

وقال بعضهم:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروةً فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنت ذا عسرٍ
لقد كشف الإثراءُ منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

ثم إن المرض قد يتغير به الطبع، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها المرء على احتمال.

وكذلك كبر السن قد يُضعِفُ النفس كما يضعف الجسم، فتعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الهوى، والصبر على الأذى.

وكذلك الولاية قد تحدث في الأخلاق تغيراً، وعلى الخلقاء تنكراً، إما من لؤم طبع، وإما من ضيق صدر^(١).

ولهذا قيل: «من تاه في ولايته ذل في عزله»^(٢).

قال يحيى بن الحكيم: «والله لقد ولي الحجاج وما عربي أحسن أدباً منه، =

(١) انظر أدب الدنيا والدين ص ٢٤٤.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٤.

= فطالت ولايته، فكان لا يسمع إلا ما يجب، فمات وإنه لأحمق سيئ الخلق»^(١).
وفي مقابل ذلك العزل؛ فقد يسوء به الخلق، ويضيق به الصدر؛ إما لشدة
أسف، أو لقلّة صبر.

وكذلك الشهرة، وبعْدُ الصيت قد يصحبها تغيير في الأخلاق، وترفع على
الأقران والأصحاب.

ولهذا يحسن بذي الهمة والشرف الرفيع ومريد السعادة أن يوطن نفسه على
لزوم الاعتدال حال السراء والضراء؛ فذلك من دلائل الإيمان، وكمال العقل،
ومقومات الهمة العالية، ومن مظاهر المروءة الصادقة.

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۚ ﴾ الحديد: ٢٢-٢٣.

وقال - عز وجل - : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١٦.

قال ابن الجوزي رحمته الله: «فمن تلمح بحر الدنيا، وعلم كيف تُتلقى الأمواج،
وكيف يُصبر على مدافعة الأيام - لم يستهول نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل
رخاء»^(٢).

(١) العزلة للخطابي ص ٢٣٤.

(٢) صيد الخاطر ٢/٢٤٣.

= قال أحدهم :

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طيِّ الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرني ما كنت أحذره وربما ساءني ما كنت أرجوه^(١)
ومن هنا فذو الهمة والمروءة لا تبطره النعمة ، ولا تُقنطه المصيبة ، ولا تطيشُ به
الولاية في زهو ، ولا ينزل به العزل في حسرة ، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر ،
ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخنوع.

قال كعب بن زهير رضي الله عنه في قصيدته المشهورة - البردة- :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا^(٢)
فهو يمدح الصحابة - رضي الله عنهم - بأنهم لا يفرحون من نيلهم عدواً؛ فتلك
عادتهم ، ولا يجزعون إذا نالهم العدو؛ لأن عادتهم الصبر والثبات.
وقال سالم بن قتيبة : « ما تكبر في ولايته إلا من كبرت عنه ، ولا تواضع لها إلا
من كبر عنها »^(٣).

وقال الإمام ابن قتيبة : « وفي كتاب كليله ودمنة : ذو العقل لا تبطره المنزلة والعز ،
كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت به الرياح .

والسخيف يبطره أدنى منزلة ، كالحشيش يحركه أضعف ريح »^(٤).

(١) جنة الرضا للغرناطي ٥٢/٣ .

(٢) ديوان كعب بن زهير ، صنعة السكري ، شرح ودراسة د. مفيد قميحة ص ١١٦ .

(٣) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٤٤٧/٢ .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٨١/١ .

= وقال أحد الحكماء :

خلقنا لا أرضى اختلافهما تيه الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً وإذا افتقرت فته على الدهر
واصبر فلست بواجد خلقاً أدنى إلى فرج من الصبر^(١)

فإذا لزم المرء هذه الطريقة؛ فلم يخف عند السراء، ولم يتضعض حال الضراء - فأحر به أن يعلو قدره، ويتناهى سؤده، وتكمل مروءته، ويتعاضم سروره.

ولهذا لو أنعمت النظر في تراجم العظماء من الرجال - لألفت أن لهذه الخصلة نصيباً وافراً من سيرهم، ولأدرت أنها كانت سبباً كبيراً في نبوغهم وألعتهم.

فهذا عمر بن عبد العزيز - على سبيل المثال - كان يقول: «أصبحت والسراء والضراء مطيتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»^(٢).

ويقول: «أصبحت ومالي سرور إلا في انتظار مواقع القدر؛ إن تكن السراء فعندي الشكر، أو تكن الضراء فعندي الصبر»^(٣).

ولقد صدق ﷺ فيما يقول؛ فقد لزم الاعتدال في جميع الأحوال، فكان شاكراً في سرائه، متجعلاً متجلداً في ضرائه، متواضعاً في سيرته، شيمته الحلم، وزينته الصفح والعفو، لم تطش به الولاية في زهو، ولم تنزل به المصائب في حسرة. =

(١) عيون الأخبار ١/٢٣٨.

(٢) الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الملاء ٢/٤٣٦.

(٣) الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز ٢/٤٣٣، وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ص ٩٧.

= ومن أكابر السادات ، ومن ذوي الفضل والمروءات قيس بن عاصم المنقري؛ فلقد كان ذا نفس مطمئنة لا تزعزها الأعاصير؛ فلقد وَطَّنَهَا على كل وارد يرد.

« قيل للأحنف بن قيس : ما أحلمك !

قال : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري ، بينا هو قاعد بفنائمه ، مُحْتَبٍ^(١) بكسائه أته جماعة فيهم مقتول ، ومكتوف ، وقيل له : هذا ابنك قتله ابن أخيك!

فوالله ما حل حُبُوتَه حتى فرغ من كلامه ، ثم التفت إلى ابن له في المجلس ، فقال له : قم فأطلق عن ابن عمك ، ووارِ أخاك ، واحمل إلى أمه مائة من الإبل ، فإنها غريبة ، ثم أنشأ يقول :

دنسٌ يغيِّره ولا أفنُ	إنني امرؤ لا شائن حسبي
والغصنُ ينبت حوله الغصنُ	من منقرٍ في بيت مكرمةٍ
بيضُ الوجوه أعفَّةٌ لسنُ	خطباءٌ حين يقول قائلهم
وهم لحفظ جواره فطنُ	لا يفتنون لعيب جارهم

ثم أقبل على القاتل فقال : قتلت قرابتك ، وقطعت رحمتك ، وأقللت عدوك ،
= لا يبعِدُ الله غيرك^(٢) .

(١) محتبٍ: من الاحتباء ، وهو أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ، ويشد عليهما ، وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب ، ويقال : احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بثوبه ، أو يديه ، أو عمامته . انظر : لسان العرب ١٤/١٦١ .

(٢) عيون الأخبار ١/٢٨٦ .

= وإذا أردت أعظم مثال للاعتدال حال السراء والضراء - فلق نظرة عجلنى على
سيرة نبينا محمد ﷺ.

وأقرب شاهد على ذلك أنه لم يحد عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة ،
فعيشه يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أظلت رايته البلاد العربية ، وأطلت
على ممالك قيصر من ناحية تبوك.

وكذلك مضائه في سبيل الدعوة ، فقد قام يدعو إلى الهدى ودين الحق ، ويلقى
من الطعام والطغاة أذى كثيراً؛ فيضرب عنه صفحاً أو عفواً ، ويمضي في سبيله
لا يأخذه يأس ، ولا يقعد به ملل ، ولا ثنيه جزع.

وقد ظهر دين الله ، وعلت كلمته بهذا العزم الذي تحمد النار ولا يخمد ، وينام
المشرفي ولا ينام.

قال ابن القيم : « فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه ، وصبره في
الله ، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله ، وتلون الأحوال عليه ، من سلم ، وخوف ،
وغنى ، وفقير ، وأمن ، وإقامة في وطنه ، وطمع عنه ، وتركه لله ، وقتل أحبائه
وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول ، والفعل ،
والسحر ، والكذب ، والافتراء عليه ، والبهتان ، وهو مع ذلك صابر على أمر الله ،
يدعو إلى الله ، فلم يؤذ نبي ما أؤذي ، ولم يحتمل في الله ما احتمله ، ولم يعط نبي
ما أعطيه ، فرفع الله له ذكره ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده
جاهاً ، وأسمعهم عنده شفاعته ، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته ، وهي مما
زاده شرفاً وفضلاً ، وساقه بها إلى أعلى المقامات »^(١).

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٠١/١ .

= والحاصل أن لزوم الاعتدال حال السراء والضراء من أعظم أسباب السعادة،
وأرفع مقامات الكمال البشري.

ومعظم مقومات السعادة في هذه الرسالة تدور حول هذا المعنى العظيم^(١).

(١) انظر تفصيل ذلك في الهمة العالية: مقوماتها ومعوقاتهما ص ٢٢١-٢٣٠.

لهذا^(١) تجد اثنين^(٢) تطرُقهما نائبةً من نوائب الخير أو الشر^(٣)؛ فيتفاوتان تفاوتًا عظيمًا في تلقّيها^(٤)، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح^(٥).

- (١) قوله: «ولهذا»: أي لهذا السبب، وهو لزوم الاعتدال حال السراء، والضراء.
- (٢) قوله: «تجد اثنين»: يريد أن يقارن بين من يلزم الاعتدال، ومن يفارقه.
- (٣) قوله: «تطرُقهما نائبةً من نوائب الخير أو الشر»: معنى «تطرُقهما»: أي تصيبهما وتنزل بهما، من الطوارق، جمع طارق.
- والطارق هو الآتي ليلاً، والطروق - كما يقول ابن حجر -: «المجيء ليلاً من سفر أو غيره على غفلة؛ يقال لكل آت بالليل طارق، ولا يقال بالنهار إلا مجازاً»^(١).
- و«النائبة»: هي المصيبة الشديدة، وهي ما ينزل بالإنسان من الكوارث، والحوادث المؤلمة، وجمعها نوائب.
- وتطلق مقيدةً على ما ينوب الإنسان عموماً من خير أو شر.
- والخير: ما يسر الإنسان في معاشه، ومعاذه، والشر: عكس ذلك.
- (٤) قوله: «فيتفاوتان تفاوتاً عظيمًا في تلقّيها»: يعني في ردود أفعالهما؛ فالموقف واحد، والحدث واحد غير أن بينهما في ردة الفعل كما بين ذات الرجوع وذات الصدع.
- (٥) قوله: «وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح»: أي أن سبب ذلك التباين في ردة الفعل إنما هو الإيمان والعمل الصالح؛ وما يندرج تحتها من الأسباب التي تضيء على النفس ما تضيء من حسن الاستقبال لما يرد فرحاً كان أو ترحاً، والعكس.
- وهذا ما سيبينه المؤلف في الفقرات التالية.

(١) فتح الباري ٢٥١/٩.

هذا الموصوف بهذين الوصفين^(١) يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما^(٢)؛ فَيَحْدُثُ له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار^(٣).

(١) قوله: «هذا الموصوف بهذين الوصفين»: يعني به من قام به هذان الوصفان، وهما الإيمان، والعمل الصالح.

(٢) قوله: «يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر، والصبر، وما يتبعهما»: يعني أن ذلك الإنسان المتصف بالإيمان والعمل الصالح - يُحَسِّنُ استقبال ما يَرِدُ عليه من الأحوال؛ فيستقبل النعماء بالشكر، ويستقبل الضراء بالصبر، وما يستتبع ذلك من السكينة، والرضا، وحسن التدبير للعواقب مما هو من لوازم الاعتدال. وقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك عند التعليق على حديث صهيب الأنف الذكر. وهذا ما عبر عنه العقلاء، والحكماء، قال عبدالعزيز بن زرارة الكلابي:

قد عشت في الدهر أطواراً على طُرُقٍ شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كُلاً بلسوتُ فلا النعماء تبطنني ولا تخشعت من لأوائها جزعا
وقال البعيث - أو تأبط شراً:

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صِرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ^(١)
وقال ذو الحرق الطهوي:

فيئسي إينسا فإنسا معشر صُبرٌ في الجذب لا خِفَّةٌ فينا ولا نزق^(٢)
وقال علي بن المقرب العيوني:

وما أنا في السراء يوماً فرُوْحُهَا ولا أنا في الضراء يوماً جَزُوْعُهَا^(٣) =

(١) عيون الأخبار ٢٧٦/١ و ٢٨١.

(٢) الأصمعيات لعبد الملك بن قريب ص ١٢٤.

(٣) علي بن المقرب العيوني حياته وشعره د. علي الخضير ص ٢٢٧.

= (٣) قوله: «فيحدث له السرور...» إلى قوله: «هذا الدار»: يشير إلى إن من كانت هذه حاله من لزوم الاعتدال حال اختلاف الواردات عليه من سراء، وضراء - فهو السعيد حقاً؛ فذلك الاعتدال يمدّه بالسرور، والبهجة، ويزيل عنه جميع ما ينافي ذلك؛ فتكتمل سعادته، ويتعاضم سروره؛ بسبب طمأنينة نفسه، وتوطئتها على استقبال كل وارد.

إن نابسه فرح أو جاءه تسرح في الحالتين يقول: الحمد لله فلا تأخذه دهشة الفرح بسبب خير ناله؛ فيخرج عن طوره، ولا تقنطه المصيبة إذا حلت به؛ فتسلبه لله.

وإنما يستقبل ذلك بسكينة ووقار، وثبات؛ فقد يأتيه بشارة بولدٍ بعد طول انتظار، أو بربح جزل في تجارة ما، أو نجاح باهر في أمر من الأمور؛ فيستقبل ذلك بشكر، ورزانة، وركانة، ورصانة.

وقد يفجع بوفاة حبيب أو قريب، أو خسارة مالية فادحة، أو باكتشاف مرض خطير في جسده؛ فتراه يستقبل ذلك بصبر، وثبات، واسترجاع، وتماسك. وإذا أعطى عطاءً - ولو كان جزلاً - استقبله بوقار، وسكينة - كما سيأتي - وإذا أعطى عطاءً - ولو كان جزلاً - لم يتبختر، ولم يتكبر، ولم يُعظّم عطاءه، بل يقدمه بكل سكينة، وهدوء، على نحو قول أبي نوفل عمرو بن محمد الثقفي - في بيتيه اللذين قيل إنهما أحسن ما قيل في المديح -:

ولئن فرحت بما ينيلك إنه لبما ينيلك من ندهاء أفرح
ما زال يعطى ساكتاً أو ناطقاً حتى ظننت أبا عقيل يمزح
فهذه - إذاً - حال المؤمن حقاً مع تقلبات الأحوال.

والآخر^(١) يتلقى المحاب^(٢) بأشر^(٣) وبطر^(٤) وطغيان^(٥)، فتنحرف أخلاقه^(٦)، ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع^(٧) وهلع^(٨).

(١) قوله: «والآخر»: يعني به غير المؤمن ممن لا يحسن استقبال ما يرد عليه من نوائب الزمان.

(٢) قوله: «يتلقى المحاب»: يعني يستقبل ما يسره من سائر المحبوبات.

(٣) قوله: «بأشر»: الأشر هو البطر؛ فهما متقاربان.

(٤) قوله: «وبطر»: هو الكبر، والتبختر، والغلو في المرح، والزهو.

(٥) قوله: «وطغيان»: أي غلو، وتجبر، ومجاوزة للحد.

(٦) قوله: «فتنحرف أخلاقه»: أي يصيبه ما يصيبه من سوء الخلق؛ بسبب

ما يناله من خير كما قال البارودي:

وكذا اللئيم إذا أصاب كرامةً عادي الصديق ومال بالإخوان^(١)

(٧) قوله: «بجشع»: الجشع: شدة الحرص.

(٨) قوله: «وهلع»: الهلع: الجزع، والخوف الشديد.

ويعني بذلك أن غير المؤمن يتلقى ما يسره بزهو، ونزق، وطيش، وكبر، وغلو، وشدة حرص، وإشراف نفس، وخوف شديد من زوال ما بيده.

قال الله - عز وجل - في وصف أولئك: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۚ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۗ ﴾ المعارج.

ويلحق بغير المؤمن ضعيف الإيمان، أو من لا يقوم بما يقتضيه الإيمان من العمل، والأخذ بالأسباب.

ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مُشَتَّتُهُ من جهات عديدة؛ مُشَتَّتٌ من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً. ومن جهة أن النفوسَ لا تقف عند حدٍّ؛ بل لا تزال مُتَشَوِّفَةً لأُمُورٍ أُخْرَى، قد تحصل وقد لا تحصل.

وإن حصلت -على الفرض والتقدير- فهو أيضاً قَلْبٌ من الجهات المذكورة^(١).

(١) كلام المؤلف ههنا تفسير لما مضى من استقبال غير المؤمن لما يصيبه مما يسره؛ فهذه حاله؛ أشر، وبطر، وقلة راحة، وتفرق همٍّ، وخوف من زوال الخير. ويضاف إلى ذلك كونُ النفوسِ طُلْعَةً لا يكفيها ما بيدها من الخير؛ بل تتشوف إلى ما هو أعلى من ذلك؛ فحال ذلك الإنسان كما قال رؤبة بن العجاج:

كالحوت لا يكفيه شيءٌ يُلْهَمُهُ يصبحُ ظمآنَ وفي الماءِ فَمُهُ

فهو لا يستغني عن محبوباته؛ ولا يلتذ بها، وهذا هو الشقاء بعينه.

بل ربما أدى به الأشر والبطر إلى الجنون، وقد حدثني أحد الأفاضل الثقة أن شخصاً عاش في بلده فقيراً معدماً طيلة حياته؛ فتوفي قريب له في بلد آخر، ولم يكن لهذا المتوفى وارث إلا هذا الرجل.

وقد ترك ذلك المتوفى ثروة طائلة؛ إذ كان يعيش في غنى ويسار.

فبلغ الفقير نبأ وفاة قريبه، ودُعي ليستلم ميراثه، وكان يظن أن المبلغ يسير؛ فلما أعطي المبلغ الذي يقدر بعشرات الملايين قال: «كل هذا لي؟» فقيل له: «نعم» ففقد عقله، وصار يردد بجنون: «كل هذا لي كل هذا لي».

فكان المال وبالاً عليه؛ حيث أفقده عقله، ولم يُفد منه شيئاً، وإنما خلفه لوارث آخر.

= والسبب في ذلك أنه فقد عنصراً عظيماً من عناصر السعادة، ألا وهو لزوم الاعتدال في السراء والضراء؛ فهذه -إذا- حال غير المؤمن، أو من لم يتم بمقتضى الإيمان مع ما يسره؛ فكيف بحاله مع ما يكرهه؟ .

لا شك أن همه سيضعف، وأن بلاءه سيزيد، وهذا ما سيتبين في الفقرة التالية.

ويتلقى المكارهَ بقلق، وجزع، وخوف، وضجر^(١)؛ فلا تسأل عما يحدثُ له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات، وأفظع المزعجات؛ لأنه لا يرجو ثواباً، ولا صبر عنده يسليه، ويهونُ عليه^(٢).

(١) قوله: «ويتلقى المكاره...»: إلى قوله: «وضجر»: هذا شروع في بيان حال غير المؤمن مع المكاره؛ حيث يتلقاها بما يزيدُها ضِعْفاً على إِبالة - كما تقول العرب في أمثالها - فتصبح المصيبة بها مضاعفة.

(٢) قوله: «فلا تسأل عما سيحدث له...»: إلى قوله: «... ويهون عليه»: هذا تصوير لحال غير المؤمن، وحال ضعيف الإيمان، ومن لا يأخذ بالأسباب؛ فحالهم مع المكاره حال همٍّ متزايد، وشقاء مضاعف؛ فتجتمع عليهم أمراض بدنية، وأمراض نفسية؛ تزيد من همهم، وخوفهم إلى ما لا يقدر قدره. بل قد يصل بهم الحال إلى اليأس، والقنوط، والسعي إلى التخلص من الحياة، واللجوء إلى الانتحار - عياداً بالله -.

وهذا مشاهد محسوس تُرى آثاره في كثير من البلدان الكافرة. وإنما لجأ إلى ذلك من لجأ لأنه فاقد للإيمان الذي يسليه، ويهونُ عليه ما أصابه، ويقوي رجاءه بربه، ويجعله ينتظر فرجه في الدنيا، وجزيل ثوابه في الآخرة.

وكل هذا مشاهد بالتَّجْرِبَةِ^(١)، ومَثَلٌ واحد من هذا النوع، إذا تدبرته ونَزَّلْتَهُ على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك^(٢).

(١) قوله: «وكل هذا مشاهد بالتَّجْرِبَةِ»: أي أن ما ذكر آنفاً من أحوال الناس في تلقي المحاب والمكاره يُرى عياناً في واقع حياة الناس، ويُدرك بالتجارب التي تُسمع، وتُبصر؛ فليس ذلك مجرد افتراض عقلي، أو تصور ذهني.

(٢) قوله: «ومَثَلٌ واحدٌ»: إلى قوله: «وبين من لم يكن كذلك»: يشير إلى أنك لو أنعمت النظر في حالة واحدة من الأحوال التي تمر بالناس - لرأيت البون الشاسع بين المؤمن حقاً وبين من لم يكن كذلك؛ من ناحية حسن التعامل مع كافة الأحوال، وما يترتب على ذلك من العواقب عموماً.

وفي قوله: «المؤمن العامل بمقتضى إيمانه»: لفظة لطيفة؛ إذ ليس من ضرورة كون الإنسان مؤمناً أن يكون سعيداً سعادةً مطلقة؛ فقد يكون لديه مطلق إيمان، وليس لديه إيمان مطلق؛ فمجرد وجود الإيمان يوجب للإنسان مطلق سعادة لا سعادة مطلقة.

أما السعادة التامة المطلقة الكاملة فهي لمن حقق الإيمان، وعمل بمقتضاه. ومن مقتضاه قيام الإنسان بما افترضه الله عليه، وبما ندبه إليه من العمل الصالح الذي يحقق العبودية المحضة، ومن لزم عتبة العبودية نال السعادة الأبدية - كما يقول ابن تيمية^(١).

(١) انظر مدارج السالكين ٤٢٩/١.

= وبهذا يجاب عن الاعتراض من كون بعض المسلمين لا يجدون السعادة حقاً،
وكون بعض الكفار يعيشون بسعادة، وراحة؛ حيث إن الأخذ بأسباب السعادة
سبيل لإدراكها بحسب تلك الأسباب، والعكس.
وبعض تلك الأسباب مشتركة بين المؤمن والكافر، وهو ما سيتبين فيما سيأتي من
كلام المؤلف رحمته الله.

وهو أن الدين يحث - غاية الحث - على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع^(١).

(١) قوله: «وهو أن الدين...»: إلى قوله: «وكرمه المتنوع»: يشير بذلك إلى مسألة القناعة بما آتاك الله من المال، والصحة، والجاه، وسائر ما من الله به، وأثر تلك القناعة على السعادة.

ولا يعني ذلك ألا تطمح نفس الإنسان إلى ما هو أعلى، وإنما المقصود أن يرضى بما قسم له؛ فذلك أمضى لعزمه، وأنزه لنفسه، وأبعد عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة، وأسلم من تبعات الطمع وآثاره المدمرة للسعادة والكرامة، وعزة النفس.

ولهذا تتابعت وصايا الحكماء في الحث على القناعة، قال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا العلوي:

كُنْ بِمَا أُوتِيَته مَقْتِنِعاً تَسْتَدِمُّ عُسْرَ الْقَنُوعِ الْمَكْتَفِي
إِنْ فِي نَيْلِ الْمُنَى وَشَكَّ الرَّدَى وَهَلَاكُ الْمَرْءِ فِي ذَا السَّرْفِ^(١)

قال الإمام الشافعي رحمته الله:

أُمَّتٌ مَطَامِعِي فَأَرَحْتَ نَفْسِي فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمَعَتْ تَهُونُ
وَأَحْيَيْتَ الْقَنُوعَ وَكَانَ مَيْتاً ففِي إِحْيَائِهِ عَرَضٌ مَصُونُ
إِذَا طَمِعُ يُحِلُّ بِقَلْبِ عَبْدٍ عَلَّتْهُ مَهَانَةٌ وَعَلَاهُ هُونُ^(٢)
وقال:

(١) أحسن ما سمعت للثعالبي ص ٢٢ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٨٥ .

رأيت القناعة كنزاً لا يذهب
فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه
ولا ذا يراني به منهمك
وصرت غنياً بلا درهم
أمرُّ على الناس شبه الملك^(١)

ومما ينسب للأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله :

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ
وهل عزُّ أعزُّ من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال
وصير بعدها التقوى بضاعة
تحزُّ ربحاً وتُغني عن بخیل
وتنعم بالجنان بصبر ساعة^(٢)

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٢٧ .

(٢) ديوان الإمام علي ص ١٢١-١٢٢ .

فالمؤمن إذا ابتلي بمرض، أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كلُّ أحدٍ عرضةٌ لها - فإنه - بإيمانه، وبما عنده من القناعة، والرضا بما قسم الله له - تجده قريير العين، لا يتطلب بقلبه أمراً لم يُقدَّر له^(١)؛ ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه^(٢).

(١) قوله: «فالمؤمن» إلى قوله: «لم يُقدَّر له»: يشير بذلك إلى أن المؤمن معرض للبلاء كغيره من البشر، ولكنه بسبب ما عنده من الإيمان، وغنى القلب، والرضا بما قسم له من الرزق - لا يستشرف بقلبه، ولا بلسانه إلى ما لم يُقدَّر له من سائر المحبوبات؛ فتقر عينه، ويفرح فؤاده، ويقل همه، أو يتلاشى. وقوله: «قريير العين»: مأخوذ من قولهم: «قُرَّةُ عَيْنٍ»، أو «قَرَّتْ عَيْنُ فلانٍ». وقرة العين: هي السرور الحاصل في النفس؛ لما يسرها مع تحقق الرضا التام، وترك التطلع إلى ما سوى المحبوب الحاصل.

وقرة العين لا تكون إلا بالمطلوب العالي أو الأعلى. والعرب إذا دعت لأحد قالت: «قَرَّتْ عَيْنُهُ». يعني سكنت، وبردت؛ إذ دمع الفرح بارد. وإذا دعت على أحد قالت: «سَخِنَتْ عَيْنُهُ» أو: «أَسَخَنَ اللهُ عَيْنَهُ» يعني أحزنه الله؛ إذ دمع الحزن حار.

(٢) قوله: «ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه»: أي ينظر إلى من دونه في سائر أمور الدنيا؛ لينبعث إلى الشكر، ولا يغبط من هو أعلى منه في سائر أمور الدنيا؛ فيزدري نعمة الله عليه. وسيأتي الكلام على هذا المعنى مفصلاً في فقرة آتية.

وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يُؤت القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان، إذا ابتلي بشيء من الفقر، أو فقد بعض المطالب الدنيوية؛ تجده غايةً في التعاسة والشقاء^(١).

() قوله: «وربما زادت بهجته وسروره...» إلى قوله: «غايةً في التعاسة والشقاء»: يشير بذلك إلى أن لزوم القناعة من أكبر أسباب السعادة، وأن القنوع أسعد ممن هو متقلب في النعيم إذا لم يكن ذا قناعة؛ فالغنى إنما هو عن الشيء لا بالشيء؛ بل إن الغنى الحقيقي إنما يكون بكثرة ما تستغني عنه لا بكثرة ما تملك.

قال ابن الرومي حاثاً على ترك التطلع إلى ما عند الموسرين المترفين:
إذا ما كساك الله سربالاً صححةً ولم تخلُ من قوتٍ يحلُّ ويعذب
فلا تغبطن المترفين فإنهم على قدر ما يكسوهم الدهر يسلب
بل لقد جاء النص الصريح في بيان أسعد الناس حقاً، وفيه الإشارة إلى معنى القناعة.

فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم^(١).

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في شرح الحديث (وهو الثالث والسبعون من كتابه: بهجة قلوب الأبرار): «حكّم ﷺ بالفلاح لمن جمع هذه الثلاث: والفلاح: اسم جامع لحصول كلِّ مطلوب محبوب، والسلامة من كلِّ مرهوب.

(١) مسلم (١٠٥٤).

= وذلك أن هذه الثلاث جَمَعَت بينَ خيرِ الدينِ والدنيا؛ فإنَّ العبدَ إذا هُدي للإسلام الذي هو دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وَحَصَلَ له الرزقُ الذي يكفيه، ويكفُّ وجهَهُ عن الخلق، ثم تَمَّ اللهُ عليه النعمة، بأن قَنَّعه بما آتاه، وحصل له الرضا بما أُوتِيَ من الرزقِ والكفافِ، ولم تطمَح نفسه لما وراء ذلك - فقد حصل له حسنةُ الدنيا والآخرة؛ فإنَّ النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها؛ إما أن لا يُهدَى للإسلام؛ فهذا مهما كانت حاله فإن عاقبته الشقاوةُ الأبدية، وإما أن يُهدى للإسلام، ولكنه يبتلى إما بفقرٍ يُنسي، أو غنىً يَطغي، وكلاهما ضرر ونقص كبير.

وإما أن يحصل له الرزقُ الكافي موسعاً أو مقدرًا، ولكنه لا يقنع برزق الله، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله؛ فهذا فقيرٌ فؤاد؛ فإنه ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، وإنما الغنى غنى القلب؛ فكم من صاحب ثروةٍ قلبه فقير متحسّر! وكم من فقيرٍ ذات اليد، وقلبه غنيٌّ راضٍ، قانع برزق الله.

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بينَ ضيقها، وفقرها، وبينَ فقر القلب وحسرتِه، وحُزْنِه، بل كما يسعى لتحصيل الرزقِ فليُسِّعَ لراحة القلب، وسكونه وطمأنينته»^(١).

(١) بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبدالرحمن

السعدي، شرح الحديث (٧٣) ص ٢١٢.

ومثل آخر^(١) : إذا حدثت أسباب الخوف، وألَمَّتْ بالإنسان المزعجات^(٢)، تجد صحيح الإيمان^(٣) ثابت القلب، مطمئن النفس^(٤)، متمكناً من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه بما في وسعه؛ من فكر، وقول، وعمل، قد وطن نفسه لهذا المزعج الملم، وهذه أحوال تريح الإنسان، وتثبت فؤاده^(٥).

(١) قوله: «ومثل آخر»: أي هذا مثال ثانٍ معطوف على المثال الذي سبق ذكره.

ومن خلال هذا المثال يتبين - كذلك - تفاوت الناس في تلقي الأحداث.

(٢) قوله: «إذا حدثت أسباب الخوف، وألمت بالناس المزعجات»: يعني بذلك ما ينزل بالإنسان من النوازل، والعطائم التي تذهله، وتسلبه لُبه، وتفقد راحته من نحو المصائب، والكوارث، وخصوصاً ما يفجأ منها، ويأتي بغتة على حين غرة.

(٣) قوله: «تجد صحيح الإيمان»: يعني به المؤمن ذا العقيدة الصحيحة، العامل

بمقتضى إيمانه.

(٤) قوله: «ثابت القلب، مطمئن النفس»: أي رابط الجأش، هادئ البال،

ساكن النفس غير مضطرب، ولا متزعزع، أو متضعع.

(٥) قوله: «متمكناً»: إلى قوله: «وتثبت فؤاده»: يعني أن صاحب هذه الأوصاف

يستطيع من خلالها أن يتدبر أمره، ويسير إلى خير ما يرام؛ فيحسن التصرف إزاء هذا الأمر النازل، ويستجمع له خواطره، وما آتاه الله من مواهب؛ فيقوم بما تقتضيه الحكمة، والحزم.

والسبب في ذلك ما آتاه الله من العلم والإيمان، وكونه قد وطن نفسه على كل

احتمال، واستعد لكل وارد يرد عليه:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

=

وذلك مما يجلب له الراحة، وثبات الجنان.

= وقد حفلت آيات القرآن الكريم بهذا التوطين الذي يستعد به المؤمن لمواجهة ما يلاقه من تقلبات الحياة، ولا يكون نهياً للمصائب والنوازل.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَتَبْلُوتُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ سورة البقرة.

وكما حفلت هداية القرآن بهذا التوطين فقد حفلت -كذلك- بذكر نماذج من هذا القبيل من سير الأنبياء والصالحين.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قصة مريم -عليها السلام- وحسن تعاملها مع ما دهمها من الكرب العظيم، والخطب الجسيم الذي تنوء بحمله الجبال؛ فقد ابتليت ببلاء لم يُبتَلْ بمثله امرأة قَبْلَهَا ولا بعدها؛ فبينما هي مقبلة على ربها، ملازمة لعبادته، منقطعة عن كل ما يشغلها عن ذلك إذ تمثل لها الروح القدس بشراً سويّاً؛ فاستعازت بالله منه؛ فأخبرها أنه رسولٌ ملكيٌّ من لدن رب العالمين؛ لِيَهَبَ لَهَا غُلاماً طاهراً يكون له ما يكون من الشأن؛ فأنكرت ذلك؛ إذ كيف يكون لها غلامٌ دون أن يَمَسَّهَا بشر؛ لِتَحْبِلَ مِنْهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ؟!

وكيف يكون لها غلامٌ وهي حَصَانٌ رِزَانٌ، قد تواتر أمر عِفَّتِهَا، وطَهْرِهَا، وزكاء عنصرها؟!

ولكنها أَحَسَّتْ بنوع طمأنينة من جراء قول الملك بأن هذا الغلام زكي؛ فهي تعرف ما تعرف من شأن الوحي وطُرُقِهِ؛ إذ هي من بيت نبوة وكتاب، وتدرك أن الله -عز وجل- لا يخذل أوليائه، وأصفيائه من خلقه.

ولكن لم تكن تلك الطمأنينة لِتُبَدِّدَ كُلَّ ما تجده من الهم، والخوف؛ فليس الخبر كالعيان؛ إذ لما حصل النفخ فيها من لدن الروح القدس اشتد خوفها، وبلغ منها =

= الحزن غايته ، ولما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ﴿ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ .

إذ كيف سيصدقها الناس؟ وكيف سيكون حالها أمامهم؟.

وبعد أن وضعته ، ووقع ما كانت تحذره بدأ خوفها يتبدد شيئاً فشيئاً ، كما هي السُّنةُ في الخوف والحزن؛ إذ إنهما يبدآن بالتلاشي عند بلوغهما الغاية؛ على حد قول ابن حزم : « إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها »^(١) وقول القائل :

وراء مضيق الخوف مُتسعُ الأمن وأول مفروح به غاية الحزن
ألم تر أن الله ملك يوسفاً خزائنه بعد الخلاص من السجن

حينها استسلمت مريم - عليها السلام - للأمر ، وفوضت أمرها إلى بارئها الذي حفظها ، وكألاها برعايته؛ فألهمها رشدها ، وهداها إلى صراطه المستقيم ، وأودع في قلبها حبّه ، والإقبال عليه؛ فما كان ليُضَيِّعَهَا ، ويدعها للعوادي ، والشامتين؛ فهذا هو ظنّها بربها الذي عرفته ، وكانت قانته له.

ومن هنا بدأت تتعامل مع هذا الهم العظيم بما تقتضيه الحكمة ، ويدعو إليه داعي الإيمان والرشد؛ فلم تفكر في الخلاص من ذلك الوليد؛ بحيث ترميه في العراء ، أو تدفنه في بطن الأرض.

وإنما أدركت أن ولادته جاءت على هذا النحو الخارق للعادة ، فكأنها انتظرت خارقاً آخر يظهر براءتها.

ومن هنا نادها من تحتها ، أو من تحتها في القراءة الأخرى - والقائل ههنا إما عيسى ، أو جبريل - عليهما السلام - والأقرب أنه عيسى - قائلاً : ﴿ أَلَا تَحْزَنِي ﴾ =

(١) الأخلاق والسير ص ٢٦ .

= حيث ابتدر خطابه لها بأن تكف عن الحزن، وأن تفرح بالمولود كفرح سائر الأمهات عندما يضعن مواليدهن.

ثم زاد بطمأننتها بأن تفرح أشد من فرح غيرها من سائر النساء عندما يلدن؛ وذلك بتبشيرها لها بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾.

والسريُّ: هو النهر في السريانية، والنهر الصغير في النبطية، والجدول في لغة أهل الحجاز.

وقيل: هو المسيح عيسى - عليه السلام -؛ إذ السريُّ: يطلق على السيد، الوجيه، الزكي، المقدم، وهكذا كان شأن عيسى - عليه السلام -.

وبعد أن نهاها عن الحزن، والاسترسال مع المخاوف أمرها بما يبدد الحزن، ويبدله أمناً، وسروراً، فقال: ﴿فَكَلِّسِي﴾ من الرطب؛ فلا تشتكي الجوع، ﴿وَأَشْرَبِي﴾ فلا تشتكي الظمأ؛ لأن من عادة المحزون ألا يشتهي أكلاً ولا شرباً.

ثم أمرها بما هو أعظم من ذلك في جلب السرور، فقال لها: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: أي استدعي السعادة، ودعي الهم؛ فقرة العين كناية عن السرور، بل هي أعظم السرور؛ فالعين لا تقر بكل شيء، وإنما تقرُّ بالعظيم من المحبوبات.

وقرة العين ههنا - كما يقول ابن عاشور - تشمل ههنا العيش، والأنس بالطفل المولود.

وفي كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته، ونباهة شأنه.

ثم أرشدها إلى ما تدفع به عن نفسها حالة السوء، وذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

=

= والمقصود بالصوم ههنا: الصمت، وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في الشرائع السابقة.

فما كان من مريم - عليها السلام - إلا أن أحسنت التعامل مع هذا الهم العظيم؛ فلم تجلس جلسة المرزوء، ولم تضاعف المصيبة بالتسخط، والاعتراض. وإنما أخذت بالأسباب، فتماسكت، وسارت على وفق ما نهاها وأمرها من تحتها؛ إذ أدركت أن ذلك لا يكون إلا بخارق؛ فأتت بهذا الوليد تحمله بين يديها كما تحمل الأم الرؤوم ولدها، وكلها ثقة بالله في أن يظهر براءتها، ويعلي شأنها، ويربها في هذا الغلام ما تقر به عينها.

فلما رأوها أكبروا ما رأوه منها، وهم يعلمون أنها الحصان الرزان التي لا تُزَنُّ بريبة؛ فقالوا مبادرين منكرين: ﴿يَمْرِيْمٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: قال لها قومها؛ توبيخاً لها: لقد جئتِ بأمرٍ عجيبٍ، وأحدثتِ حدثاً عظيماً شنيعاً بالغاً مَبْلَغَهُ من السوء.

﴿يَاأُخْتِ هَارُونَ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، وهارون هو أخو موسى -عليهما السلام-.

وقيل: نُسِبَتْ إلى رجلٍ صالحٍ كان فيهم اسمه هارون؛ فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة.

ويحتمل أن يكون لها أخ اسمه هارون، فخاطبها بالإضافة إليه؛ زيادةً في التوبيخ قائلين: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ أي أنتِ من بيتٍ طاهرٍ معروفٍ بالصلاح، والعبادة، والزهادة؛ فكيف صدر هذا منك؟!

وأرادوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بسوءٍ ليس من شأن أبيها، وبغاءٍ ليس من شأن أمها؛ إذ خالفت سيرة أبيها؛ فكانت امرأةً سوءٍ، وكانت بغياً. =

= وما كان أبوها امرأ سوءٍ، ولا كانت أمها بغياً؛ فكأنها مبتكرة الفواحش في أهلها. وهم أرادوا ذمها؛ فأتوا بكلامٍ: صريحه ثناءً على أبيها، مُقتَضٍ أن شأنها أن تكون مثل أبيها، لا أن تحيد عن سيرتهما الحميدة، وطريقتهما المثلى. وهم لا يلامون على ذلك؛ إذ الأمر المائل أمامهم يقتضي مثل هذا النوع من التويخ.

ولا ريب أن مثل تلك القوارع تشيب النواصي، وتهز الجبال الرواسي، وتضاعف المصيبة، وتفضي إلى غاية الحزن.

ولكن مريم - عليها السلام - أحسنت التعامل مع هذا الموقف العصيب؛ فقابلت ذلك بجأش رابط، ونفس مطمئنة، وسارت على نحو ما أوصاها به من تحتها؛ فما كان منها إلا أن ﴿أَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي كلموه؛ فأثارت بذلك حفيظتهم، وقالوا - متهمين غاضبين - : على ما جاءت به من الداهية تسخر بنا؛ فتأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً؛ فكيف يتكلم وهو موجود في مهده في حال صباه، وصغره؟! وكيف نترقب منه الجواب؟ وكيف نلقي عليه السؤال؟!

هنا ﴿قَالَ﴾ أي المسيح - عليه السلام - وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكان أول ما تكلم به أن نزه جناب ربه - تعالى - وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقال: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة إلى آخر ما دار في ذلك الحوار.

والشاهد ههنا **حسن تعامل مريم - عليها السلام - مع ما أصابها من الكرب العظيم**، الذي غير مجرى التاريخ إلى يومنا هذا^(١).

(١) انظر كتاب شذرات، للمؤلف ص ٢١-٢٦.

= والعبرة من ذلك كله أنه يجدر بالإنسان أن يحسن التعامل مع الهم؛ فيقابله بسكينة، ووقار؛ فيحرص على طرد الهم، واستدعاء السعادة، وذلك بالأخذ بالأسباب الممكنة؛ فالهم يتضاعف بالاجترار، والمبالغة في تضخيم النتائج، وتوقع المكروه، والإغراق في التشاؤم، والاستسلام للحزن. وعكس ذلك كفيلاً بطرد الهم، أو تقليل خطره وضرره. وإذا لم يكن في يد الإنسان من حيلة فليسلم الأمر إلى من بيده ملكوت كل شيء؛ فهو الكاشف للهم، والقادر على إزالته.

كما تجد فاقداً للإيمان بعكس هذه الحال إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوترت أعصابه، وتششت أفكاره، وداخله الخوف والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه^(١).

() قوله : « كما تجد فاقداً للإيمان... » إلى قوله : « كنهه » : يشير بهذا الكلام إلى حال فاقداً للإيمان ، وما يعتوره من الخور ، والضعف ، وما ينتابه من القلق الذي يذهب بصوابه ، ويفقده رشده ، وذلك إذا دهمته عظام الأمور ؛ إذ يصيبه من جرّاء ذلك ما لا يمكن وصفه ؛ فاجتماع هم داخلي يحرق الحشا بشواظ نيرانه ، وهم خارجي يراه الناس على وجه ذلك المحزون - ينتج قلقاً مضاعفاً ، على حد قول أبي فراس وهو في الأسر عند الروم :

جراح تحامها الأساة مخوفةٌ وسقمان : بادٍ منهما ودخيلٌ
وقول البارودي وهو في الغربة منفي في سرنديب لما أتاه نبأ وفاة زوجته - أم بناته - عبر البريد :

ما بين حزنٍ باطنٍ أكل الحشا بلهيب سورته وسقمٍ بادي
والخوف من أفتك الأسلحة التي تفرّج فرّيجها في القلوب ؛ فتنال نيلها منها ، وتفقد راحتها ، وأمنها ، وسعادتها .

بل إن الخوف يسلب الإنسان كرامته ، وعزته ، ويثنيه عن تطلب الكمالات ، والسعي في درج المعالي ؛ فيعيش على هامش الحياة ؛ فيشعر بالدنو ، وذلك من دواعي ضيق الصدر ، وتكدر الحال .

وللقرآن أبلغ الكلم في تصوير حال الجبناء فانظروا إليه إذ يصفهم ، ويريك كيف يذوقون موتات الفزع المرة بعد الأخرى ، فيقول ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ المنافقون : ٤ .

=

= ويريك كيف يظهر أثر الجبن في أبصارهم ، إذ يُقَلَّبونها وهم في زهول مَنْ أدركه الموت فيقول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الأحزاب : ١٩ .

ولهذا كانت عناية القرآن بخصلة البطولة والإقدام؛ حيث أقبل على النفوس ، وأخذ ينقيها من رذيلة الجبن ، ويذكرها بسوء عاقبة الجبناء ، كما في قوله -تبارك وتعالى- : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ التوبة : ٨ .
ومن الذي يرتاب في أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان^(١) ، قال أبو الطيب :

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بُدًّا فمن العجز أن تموت جباناً^(٢)

(١) انظر الهداية الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص ٢٩ .

(٢) ديوان المتنبي ٢٤١/٤ .

وهذا النوع من الناس^(١) إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير انهارت قواهم وتوترت أعصابهم^(٢).

() قوله : « وهذا النوع من الناس » : أي فاقدى الإيمان ، ومن يبالغون في الخوف ، ويضخمون النتائج .

() قوله : « إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية... » إلى قوله : « وتوترت أعصابهم » : يشير إلى هذا الصنف من الناس الذين يسيطر عليهم الخوف ، ويأكل قلوبهم ؛ فهؤلاء إن لم يكن لديهم مناعةٌ من سيطرة الخوف ، وأسبابٌ تحصل لهم من جراء الدربة ، والمران - أو شكوا أن يتردوا في برائن الخوف ، ويحصل لهم من ضعة النفوس ما تنهار به قواهم .

وهو بهذا يشير إلى أن الشجاعة - كما أنها فطرية جيلية تولد مع الإنسان - هي كذلك اكتسابية؛ تتأتى بالدربة ، والاكتساب ، والأخذ بالأسباب؛ فهناك أسباب كثيرة تزيد بسببها شجاعة الشجاع ، وتُكتسب لمن لم يكن متصفاً بها .

ومنها على سبيل الإجمال : التعود؛ فإن قلة الإلف لأمر من الأمور تقود إلى الجبن؛ كحال من لم يعتد الكلام في المحافل ، ونحو ذلك؛ فعلاجه بالدربة ، والمران ، والتعود ، والممارسة ، قال البارودي :

واعْتَدُ عَلَى الْخَيْرِ فَاَلْمَوْفِقُ مَنْ هَدَّبَهُ الْعَيْتَادُ وَالِدَّرْبُ

ومنها توطين النفس على وقوع المكروه ، والحذر من تضخيم النتائج ، والصبر عند الصدمة الأولى .

ومنها النظر في عاقبة الجبن وما يفضي إليه من ذلة ومهانة ، والنظر في عاقبة الشجاعة الحكيمة وما تفضي إليه من عز ورفعة ، إلى غير ذلك من الأسباب التي سيأتي ذكر بعضها^(١).

(١) انظر المهمة العالية للمؤلف ص ٢٥٦-٢٧١ .

وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر خصوصاً في المحالِّ الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة^(١).

(١) قوله: «وذلك لفقد الإيمان...» إلى قوله: «الأحوال المحزنة المزعجة»: هذا تعليل لما مضى، وهو يشير بذلك إلى أن أعظم سبب لحصول الهم، والخوف هو فقد الإيمان بالله - عز وجل - خصوصاً في مواطن الحرج والحزن، والتقلق، والانهايار؛ فإذا لم يكن لدى الإنسان دينٌ يَزُمُّه، وإيمان يقويه، ويمده بالروح، والصبر - أوشك أن يكون فريسة سهلة لتلك المواقف والأحوال.

وهذا ما كاد أن يحصل لأصحاب موسى - عليه السلام - لما لحق بهم فرعون، وأجأهم إلى البحر؛ فصار البحر أمامهم، وفرعون بجيشه العرمرم من خلفهم. وذلك موقف تنزل فيه الأقدام، وتضطرب له القلوب؛ فقالوا لموسى - عليه السلام -: ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾.

فأجابهم إجابة الواثق بربه المطمئن لصدق وعده، وقال - بكل حزم، وجزم، ويقين، وإيمان، وردع لكل ما يلقيه الشيطان في رُوْعِهِم من الخوف والخور -: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾.

فكانت النتيجة أن صار البحرُ طريقاً يبساً لا يخاف فيه دركاً ولا يخشى.

والقرآن حافل بما يستأصل جراثيم الخوف من قلوب المؤمنين من نحو قوله - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۗ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۗ ﴾ آل عمران.

= ثم أخبر -عز وجل- : أن ذلك الخوف الذي يساورهم إنما هو من تخويف
الشیطان للمؤمنین بأولیائه؛ فنهاهم الله -عز وجل- عن الخوف منهم ، وأمرهم
بتجريد الخوف منه؛ فذلك مصدر الأمن ، والأمنة.
وسیأتي مزيد بیان لذلك فی شرح الفقرة التالية.

فالبَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر يشتركان في جلب الشجاعة الاكتسابية، وفي الغريزة التي تُلطف المخاوف وتُهونها^(١). ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانه، وصبره، وتوكله على الله، واعتماده عليه، واحتسابه لثوابه أموراً تزداد بها شجاعته، وتُخفف عنه وطأة الخوف، وتهون عليه المصاعب^(٢)، كما قال -تعالى-: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. ويحصل لهم من معونة الله، ومعيّته الخاصة، ومدده ما يبعثر المخاوف، وقال -تعالى-: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

(١) قوله: «فالبَرّ والفاجر...» إلى قوله: «وتهونها»: إشارة إلى أن الشجاعة المكتسبة، أو المتصف بها الإنسان في جبلته وأصل خلقته وطبيعته -أمر مشترك بين أهل الإيمان وغيرهم من الكفرة والفجرة. وتلك الشجاعة المكتسبة أو الغريزية من شأنها تلطيف حدة المخاوف، وتهوينها؛ فلا تنال نيلها من النفس.

(٢) قوله: «ولكن يتميز المؤمن...» إلى قوله: «المصاعب»: إشارة إلى ما يمتاز به المؤمن عن غيره في هذا الجانب؛ إذ إن قوة إيمانه وصبره، وحسن توكله، واحتسابه للأجر المترتب على ما يصيبه - كل ذلك مما يُمدّه بمزيد من الشجاعة والقوة التي يطرد بها الخوف، وتهون عليه المصاعب.

(٣) قوله: «كما قال -تعالى-: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ...﴾ الآية» إلى قوله: «واصبروا إن الله مع الصابرين»: إشارة إلى مزية المؤمنين عن غيرهم، وهي أن غيرهم يشاركونهم في الألم، ولكن المؤمنين يمتازون بما يرجونه من الله =

= من المدد، والمعونة، والسمعية الخاصة المقتضية للنصرة، والتأييد، والحفظ، والكلاءة، والرعاية، والثواب، وما جرى مجرى ذلك مما يبدد المخاوف، ويلطف شدة وطأة المزعجات.

وفيما مضى إشارة إلى حسن التعامل مع الخوف؛ إذ هو من أفتك الأسلحة، وأمضاها، وأشدّها أثراً على النفس البشرية؛ فالنفوس تخاف الفقر، والموت، والمرض، ومواجهة الصعاب، ونحو ذلك من المخاوف الحقيقية، أو المخاوف المتوهمة، وهي أشدّ ضراوةً وأعظم فتكاً؛ فالخوف -إذاً- مرض خطير، ينغص الحياة، ويذهب بالسعادة، وقل أن يسلم منه إنسان، وهو أشكال وألوان -كما يقول أحمد أمين- وهو مما يوجّه أعمال الإنسان طوع إشارته، وحسب إيحائه. بل هو في أحيان كثيرة يصد عن العمل، ويشلُّ قوة التفكير، ويسبب اليأس، ويفقد الأمل^(١).

والمُتَّفَقُ في التقوى يدرك أنها الوسيلة الكبرى لمواجهة الخوف، وسائر الشدائد. والناظر في سيرة الأنبياء -عليهم السلام- يرى أعظم مثال للتعامل مع الخوف؛ فهذا نبينا محمد ﷺ تنزل عليه السكينة في أعظم مواطن القلق كما في الغار، وبدر، وحنين، وغيرها من مواطن الكرب الشديد.

وقل مثل ذلك في سيرة موسى -عليه السلام- وتعامله مع الخوف؛ فمن خلال النظر في سيرته يتبين أنه من أولي العزم من الرسل، وأنه قد بلغ الكمال البشري من ناحية القوة، والشجاعة، والثبات، ورباطة الجأش؛ كيف لا، وقد بعث إلى أعظم طاغية ذكر في القرآن الكريم ألا وهو فرعون؟ =

(١) انظر فيض الخاطر ٢/١٩٧-٢٠٥، و٤/٢٠٣، وانظر الهمة العالية ص ٢١٤-٢١٥.

= كيف لا ، وقد عالج من أمة بني إسرائيل ما عالج؛ حيث كانوا على دَرَكٍ سحيق من العناد، والفساد، والخور، واللؤم؛ ولعل من أبرز ما جاء في شأن قوته ، وشجاعته ما كان منه مِنْ فَقَأِ عَيْنِ الْمَلِكِ ، ومحاجةِ أبيه آدم ، وأخذه برأس أخيه يجره إليه ، وَوَكَّزِهِ الرَّجْلَ الْقَبْطِيَّ ، ومواقفه العظيمة مع فرعون ، إلى غير ذلك مما يدل على شجاعته المتناهية المتنوعة . ومع ذلك فإن التأمل في سير الأنبياء في القرآن الكريم يرى أنه لم يُذكَرِ الخوفُ في سيرة نبي كما ذكر في سيرة موسى -عليه السلام- .

حيث ورد ذكر الخوف في سيرته في صيغ متنوعة ، وسياقات مختلفة ، منها على سبيل المثال قوله -تعالى- عنه : ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى ﴾ طه : ٤٥ ، وقوله -تعالى- : ﴿ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ طه : ٤٦ ، وقوله -تعالى- : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿١٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ طه : ٦٧-٦٨ ، وقوله -تعالى- : ﴿ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ طه : ٧٧ ، وقوله -تعالى- : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ الشعراء : ٢١ ، وقوله -تعالى- : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص : ٢١ ، وقوله عن صاحب مدين لموسى : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص : ٢٥ ، وقوله عن موسى -عليه السلام- : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص : ٣٤ .

وهذه السيرة تحتاج إلى مزيد عناية ، وتأمل ، وتدبر؛ ليتضح من خلالها شيء من الدروس ، والعبر تلك السيرة العظيمة تحمل في طياتها لفتات بارعة في التعامل مع الخوف ، وأسباب اكتساب الشجاعة؛ فمن ذلك أن الشجاعة -وإن كان الإنسان مفظوراً عليها- تزيد بالدربة ، والمران ، والتعود؛ فإن موسى -عليه السلام- زادت تلك الخصلة عنده بسبب ملاقاته الشدائد ، والخطوب؛ =

= فاجتمع عنده الخلقُ الجليلُ بالخلقِ الاكتسابي^(١).

ومن أسباب ذلك توطين النفس على وقوع المكروه ؛ فإن موسى كان يتوقع أن يَفْرُطَ عليه فرعون ، أو أن يطغى ، وكان يتوقع تكذيبه إياه ، إلى غير ذلك مما وطن موسى نفسه عليه؛ فكان ذلك سبباً في الاستعداد له ، ومقابلة ذلك بكل ثبات وشجاعة.

ومما أخذ به موسى نَفْسَه أنه نظر في العواقب؛ فكان ذلك دافعاً له أن يُقَدِّمُ؛ لأن عاقبة مجابهة فرعون سيسفر عنها بيانُ حَقٍّ ، وأن مصير فرعون إلى خسار ووبوار؛ لأنه مفسد ، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ثم إن موسى -عليه السلام- يعلم يقيناً أنه على حق وإحسان ، وأن الله -عز وجل- مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

ومن ذلك أن موسى -عليه السلام- علم أنه لا يملك عُدَّةً ولا عتاداً ، وعرف خصمه الذي بلغ من القوة والطغيان ما بلغ؛ فخشي موسى من قوة فرعون ، وأدرك أن قوته الظاهرة القليلة لا يمكن أن تقف أمام قوة فرعون وجبروته؛ فلما طمأنه ربه -جلا وعلا- بقوله: ﴿لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه: ٤٦) أقدم موسى غير هيب ولا وجل؛ فصار قلبه مطوياً على سراج من التوكل على من بيده ملكوت كل شيء؛ فكانت عاقبة أمره رشداً وفلاحاً.

ومما أخذ به موسى -عليه السلام- لزوم التقوى ، واستحضار معية الله الخاصة؛ فلقد قال له ربه -جل وعلا-: ﴿فَأَسْتَقِيمًا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . =

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب (ومضات) للكاتب ص ١١-١٩ .

= وقال له : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مَأْمُونٌ وَأَرْبَى ﴾ (طه: ٤٦).

فلما كان كذلك انبعث إلى قوة القلب ، واطراح كل سبب يؤدي إلى الخور ، وتعظيم شأن الخوف من غير الله؛ فتقوى الله - عز وجل - هي أعظم باعث للشجاعة؛ فالمؤمنون حقاً لهم الأمن وهم مهتدون ، والمرتابون المترددون يحسبون كل صيحة عليهم ، وكل مكروه قاصداً إليهم.

ومن عرف ربه وقدره حق قدره ، وعظم وقاره وجلاله في قلبه - هانت عليه الدنيا ، وزال عن قلبه مهابة الخلق ، وانقلبت في حقه المخاوف أمناً كحال موسى - عليه السلام - .
ومما أخذ به موسى - عليه السلام - أنه استجاب لأمر ربه لما أمره بالإكثار من ذكره

-عز وجل- كما في قوله : ﴿ وَلَا نُنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (طه: ٤٢).

فبذكر الله تطمئن القلوب ، وتسكن النفوس ، ويغلب العدو ، وتهون الصعاب ، ولهذا أرشدنا الله - تبارك وتعالى - إذا لقينا العدو أن نثبت ، ونكثر من ذكره - عز وجل - لما في ذكره من الطمأنينة والثبات.

قال - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتَهُمْ فَوَكَةً فَآثَبْتُوا وَأَذَكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ ﴾ (الأنفال: ٤٥).

ومن الأسباب التي أخذ بها موسى - عليه السلام - لجوؤه إلى الله ، وسؤاله

الإعانة كما في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ ۝٢٦ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ

لِسَانِي ۖ ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ ۝٢٨ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۖ ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ ۝٣١

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۖ ۝٣٢ ﴾ (طه).

ثم ختم الدعاء بأدب جميل يعدُّ من أعظم أسباب إجابة الدعاء؛ التي

تستجلب بها الإجابة؛ حيث ختم بغرض نبيل عظيم ألا وهو قوله : ﴿ كَىٰ نُسِخَكَ

كثيراً ۖ ۝٣٣ وَنَذَرُكَ كَثِيرًا ۖ ۝٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ ۝٣٥ ﴾ (طه).

ومن الأسباب التي تزيل الهمَّ، والغمَّ، والقلق - الإحسانُ إلى الخلق
بالقول، والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان^(١).

(١) قوله: «ومن الأسباب...» إلى قوله: «وكلها خير وإحسان»: ههنا شروع
في بيان السبب الثاني من أسباب جلب السعادة وطرده الهم؛ ألا وهو الإحسان إلى
الخلق عموماً؛ فلقد جرت سنة الله بأن المحسن حقاً يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون
عاقبته إلا الرعاية من الله والكرامة؛ فلما كان رحيماً بالخلق، عطوفاً على الفقراء
والمحتاجين، والمكروبين، حريصاً على إسعادهم وإدخال السرور عليهم - كان
جزاؤه من جنس عمله؛ و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢) الرحمن.
والإحسان يكون بالقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا
الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ويكون بالمواساة، والإسعاد، والرغد بالمال، والجاه، والعلم، والوقت،
والخلق، والتبسم، والصفح، والعفو، وكل ما يكون من صور الإحسان.
والمحسن يأخذ في أغلب أحواله بالعفو، ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته
على الإنصاف.

ولتجدنه متواضعاً، لا يطيش به كبير، ولا يستخفه الخيلاء، ولتجدنه أقرب
الناس إلى الشجاعة، وعزة النفس، وإنما يخسر الإنسان الشجاعة وعزة النفس
بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا^(٣).

قال أبو الطيب:

فأحسن وجهه في الورى وجهه محسنٍ وأيمن كف فيهم كف منعم^(٤)

(١) انظر الهداية الإسلامية ص ٨٤-٨٩.

(٢) ديوان المتنبي ١٤١/٤.

= فلا غرو - إذا - أن يكون سعيداً في نفسه ، مسعداً لغيره .
وإذا لم تسعفه الحال في بذل المعروف أسعفه المقال ، وحسن الرد؛ كما قال
الأول :

إلا تكن ورقٌ عندي أجود بها للسائلين فساني لسين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي إمانوالي وإما حسن مردودي

وبها^(١) يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها^(٢).

(١) قوله: «وبها»: يعني بأنواع المعروف والإحسان.

(٢) قوله: «يدفع الله...» إلى قوله: «بحسبها»: هذه بعض آثار الإحسان والمعروف؛ حيث يجازي الله أصحابها بانسراح الصدر، وتيسير الأمور، وزوال الهموم خصوصاً إذا صادف الإحسان محله.

وذلك أمر متعارف عليه، ولا يحتاج إلى مزيد أدلة وشواهد.

وللعلماء في هذا المعنى كلام كثير جداً، والمقام لا يسمح بالتفصيل، ويكفي في هذا الموضوع كلام لابن القيم في كتابه (الوابل الصيب) حيث فصل بِحَوْلِ اللَّهِ الكلام عن فضل الصدقة، والإحسان، وأن الله يعطي المتصدق ما لا يعطي غيره، وأن هدي النبي ﷺ كان يدعو إلى الصدقة، وأن أفضل الصدقة ما صادفت حاجة في المتصدق عليه، وأن الصدقة تحفظ المال، وتقي مصارع السوء، وتجلب الرزق، وتوجب الثقة بالله، وحسن الظن به، ونحو ذلك من فضائل الصدقة.

ثم قال بعد ذلك -وهو محل الشاهد ههنا-: «فإن للصدقة تأثيراً عجيبياً في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر، أو من ظالم، بل من كافر؛ فإن الله -تعالى- يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء.

وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرّون به؛ لأنهم جربوه»^(١).

وقال: «والمصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها صدره، ولو لم يكن في

الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها، والمبادرة إليها»^(٢).

=

(١) الوابل الصيب ص ٣١.

(٢) الوابل الصيب ص ٣١.

= وقال في بدائع الفوائد: «للصدقة والإحسان تأثيرٌ عجيبٌ في دفع البلاء،
 ودفع العين، وشر الحاسد.
 ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به؛ فما يكاد العين،
 والحسد، والأذى يتسلط على محسن متصدق.
 وإن أصابه شيء من ذلك كان مُعاملاً باللطف، والمعونة، والتأييد، وكانت له فيه
 العاقبة الحميدة؛ فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جنةٌ
 واقية، وحصن حصين»^(١).

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٢٤.

ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه؛ فَيُهَوَّنُ اللهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ؛ لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره؛ بإخلاصه واحتسابه، قال -تعالى-: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

فأخبر -تعالى- أن هذه الأمور كلها خيرٌ ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا. ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم، والغم، والأكدار، ونحوها^(١).

() يشير المؤلف بهذا الكلام إلى مزيد من فضل الإحسان، وأن كمال ذلك الفضل إنما هو للمؤمن؛ لكون إحسانه نابعاً عن إخلاص لله، ورجاء لثوابه. وذلك مما يسهل عليه بذل الإحسان بكافة ضروره؛ لما يؤمله من الخلف من الله، فيبذل المعروف بنفس طيبة، ونية صادقة؛ فيدفع الله عنه ما يخشاه بسبب ما عنده من الإخلاص، واحتساب الثواب.

واستشهد المؤلف بآية النساء: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ...﴾ الآية.

ثم أوضح أن الأمور المذكورة في الآية من الأمر بالصدقة، والمعرف، والإصلاح بين الناس - هي من أعظم الإحسان والخير.

ولكن الأجر العظيم، والثواب الجزيل المضاعف إنما هو لمن فعل ذلك محتسباً الأجر، مبتغياً الجزاء من الله - عز وجل -.

=

= ومن ضمن ما يجازى به زوال همومه ، وغمومه ، وتيسر أموره ، وسلامته من المنغصات .

بل إن في الإحسان لذة لا تعدلها لذة ، وسعادة تفوق لذة الأخذ .
 وذلك مما يدركه من دُلَّتْ لهم سبل المكارم تذليلاً ، يقول الرافعي رحمته الله : « إن السعادة الإنسانية الصحيحة في العطاء دون الأخذ ، وإن الزائفة هي الأخذ دون العطاء ، وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق »^(١) .
 وأعرف شخصاً من كرام الناس إذا أراد أن يعطي عطاءً داخله من السرور ، والنشاط ما لا يمكن وصفه .

(١) وحي القلم ١٣/٣ .

ومن أسباب دفع القلقِ الناشئِ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات^(١) - الاشتغالُ بعمل من الأعمال، أو علم من العلوم النافعة^(٢)؛ فإنها تُلهي القلبَ عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقته^(٣)، وربما نسي بسبب ذلك: الأسبابَ التي أوجبت له الهمَّ والغمَّ، ففَرِحَتْ نَفْسُهُ، وازداد نشاطه^(٤).

(١) قوله: «ومن أسباب دفع القلق...»: هذا شروع في بيان السبب الثالث مما يُدفع به القلق، ألا وهو الاشتغال بما ينفع، والبعد عن الفراغ والبطالة؛ فالفراغ والبطالة من أعظم ما ينغص على المرء حياته، ويقوده إلى شرور، ومفاسد، وبلايا؛ فالنفس إذا لم تُشغل بالخير شغلت بالشر.

(٢) قوله: «الاشتغال بعمل من الأعمال، أو علم من العلوم النافعة»: يشير بذلك إلى خير ما يُشغل به الوقت، ويُسَلِّمُ به من الفراغ، والبطالة، ألا وهو القيام بعمل صالح ينفع به الإنسان نفسه، أو غيره، أو علم نافع يعود عليه بالخير في دينه، ودنياه.

(٣) قوله: «فإنها تلهي القلب...»: هذا أقل ما في ذلك، وإلا فإن ثمرات العمل الصالح، والعلم النافع أعظم من ذلك بكثير، بل إن خيرات الدنيا والآخرة ثمرة لهما. وقد أفاد الشيخ ذلك من صاحب كتاب (دع القلق): «استغرق في العمل إذا ساورك القلق، انشغل عنه بالعمل، وإلا هلكت يأساً وأسى»^(١).

وقوله: «افعل شيئاً للقضاء على القلق؛ فما لم تفعل شيئاً فإن محاولتك استخلاص الحقائق ليست إلا مضيعة للوقت والجهد»^(٢).

(١) دع القلق ص ٨٨.

(٢) دع القلق ص ٦٦.

= (٤) قوله: «وربما نسي» إلى قوله: «وزاد نشاطه»: يعني أن الاشتغال بما ينفذ من أعظم أسباب نسيان الهموم، وأهم ما تستجلب به السعادة والقوة؛ فلا ينبغي أن يستهين الإنسان بشأن الفراغ، والبطالة؛ مهما بلغ من العلم، والمكانة. وهذا شأن الكُمَّل من أهل العلم والفضل؛ فإنك إذا أرجعت البصر في سير أولئك وجدت أنهم يخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئاً منها في غير درس، أو بحث، أو تحرير، أو نحو ذلك مما فيه نفع، وإسعاد.

قال ابن عقيل الحنبلي رحمته الله: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح؛ فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره»^(١). وقال: «وأنا أقصرُ بغاية جهدي أوقات أكلّي، حتى أختار سفك الكعك، وتَحْسِيئَهُ بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيها»^(٢).

ولهذا خلف رحمته الله آثاراً عظيمة؛ فله كتاب الفنون الذي قيل عنه: إنه بلغ ثمانمائة مجلدة.

وحدثني الشيخ محمد الموسى -مدير مكتب بيت سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمته الله - أن سماحة الشيخ دخل المستشفى في يوم من الأيام لعارض صحي، وقال: «إن سماحة الشيخ قال: (إنني أول يوم دخلت فيه المستشفى جلست وحدي بعد الفجر؛ فطال علي الوقت، وصار عندي ملل؛ لرغبته في الدرس والقراءة).» =

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١٤٥/١-١٤٦.

(٢) المرجع السابق ١٤٦/١.

= يقول: (فجعلت أقرأ ما تيسر من القرآن، وأتذكر محفوظاتي من السنّة، ومن ألفية ابن مالك، ومن غير ذلك).

ولما اتصل عليه بعض المسؤولين في رئاسة الإفتاء، قال سماحة الشيخ لهم: (هاتوا ما عندكم من المعاملات والكتب). فلما قيل له: نريدك أن ترتاح.

قال: (الراحة في العمل، والإنسان لا ينبغي أن يكون فارغاً؛ لأن الشيطان يتسلط عليه بخواطر السوء؛ فخيرٌ له أن يشغل نفسه بما ينفعه؛ كي لا تشغله نفسه بما يضره). انتهى كلام الشيخ محمد موسى رحمته الله.

فهذه الحادثة تعطي درساً في مواصلة العمل، والحذر من الركون إلى البطالة مهما كان مبلغ الإنسان من العلم والفضل؛ فهذا الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله وهو هو فضلاً، وعلماً، وزهداً، وورعاً.

ومع ذلك لم يركن إلى ذلك كله، بل أدرك أن الإنسان -أيّاً كان- يعتريه ما يعتريه من الضعف، وتسلط النفس والشيطان؛ فكان يبادر إلى شغل نفسه بالخير حتى لا تشغله بالشر.

فالنفس -كما قال ابن القيم رحمته الله-: «خُلِقَتْ شبيهةً بالرحى الدائرة التي لا تَسْكُنُ، ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وُضِعَ فيها حَبُّ طحنته، وإن وُضِعَ فيها تراب أو حصيٌّ طحنته.

ورحم الله الشيخ محمد الخضر حسين حيث قال في قصيدة عنوانها: (القلب كالرحى):
لا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنْ فِكْرٍ تَجُولُ بِهِ فِي الصَّالِحَاتِ فَحَبَسُ الْفِكْرَ يَضْنِيهَا
والقلب إن لم يدُر يوماً على رشدي دارت عليه همومٌ عزّ راقبها
مثل الرحى إن تُدْرِها وهي خاويةٌ من الطعام فإن الطحن يردبها

وهذا السبب^(١) -أيضاً- مُشْتَرَكٌ بين المؤمن وغيره^(٢).
ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه، وإخلاصه، واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم
الذي يتعلمه، أو يُعَلِّمُه، ويعمل الخير الذي يعملُه^(٣)؛ إن كان عبادةً فهو
عبادة^(٤).

(١) قوله: «وهذا السبب»: يقصد به ترك الفراغ والبطالة، والاشتغال بما ينفع.
(٢) قوله: «مُشْتَرَكٌ بين المؤمن وغيره»: يعني أن ذلك سبب من أسباب
السعادة لمن قام بذلك سواء كان مؤمناً أو كافراً؛ فالأخذ بالأسباب ميدان مشترك
لا يختص به أحد دون أحد؛ فمن شغل نفسه بما ينفعه عموماً كان ذلك طريقاً
لسعادته، وطرد همومه.

(٣) قوله: «ولكن المؤمن...» إلى قوله: «الذي يعملُه»: يشير بذلك إلى امتياز
المؤمن عن غيره من فاقدَي الإيمان؛ بسبب إيمانه بالله، وإخلاصه العمل له، واحتسابه
الأجر والثوبة من الله في كل علم يتعلمه، أو يعلمه غيره، أو في كل عمل يقوم به.
وبسبب ذلك يتعاضم سروره، ويزيد فرحه واغباطه، وتأنس نفسه، ويزداد
إقبالها على العمل قوةً إلى قوة.

وهذا ما امتازت به رسالة الشيخ السعدي هذه على رسالة (دع القلق) فبينما
تجد صاحب (دع القلق) يركز على أمور معيشية دنيوية فحسب - تجد الشيخ
السعدي يجمع بين الأسباب الدنيوية والدنيوية.

(٤) قوله: «إن كان عبادةً فهو عبادةً»: يعني إن كان العمل الذي يقوم به
المؤمن عبادةً محضة كالصلاة، والصيام، والذكر، وقراءة القرآن، أو تعلم علم،
أو تعليمه - فهو -زيادة على كونه يسعد نفسه- هو كذلك في عبادة يثاب عليها،
ويُضَاعَفُ له أجرها بسبب إيمانه وإخلاصه.

وإن كان شغلاً دنيوياً^(١) أو عادةً^(٢) أصحبها النية الصالحة، وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله^(٣).

(١) قوله: «وإن كان شغلاً دنيوياً»: كأن يقوم بوظيفته التي يكسب منها الرزق كأن يكون طبيباً، أو مهندساً، أو معلماً لأي تعليم مباح، أو موظفاً في أي وظيفة مباحة.

(٢) قوله: «أو عادة»: يعني أي عادة مباحة يمارسها كرياضة المشي -على سبيل المثال- أو غيرها من الهوايات والرياضات التي يقوم بها؛ لكسب الصحة، أو المال، أو القضاء على الفراغ.

(٣) قوله: «أصحبها النية الصالحة، وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله»: يعني أن المؤمن إذا قام بعمل مباح في أصله فإنه يستحضر النية الحسنة؛ فيحتسب أجر ما يقوم به من عمل مباح، ويقصد به الاستعانة على طاعة الله، والقيام بأمره واجتناب نهيه؛ فهذه النية تنقلب العادة والعمل المباح إلى عبادة؛ فالوسائل لها أحكام المقاصد.

مثال ذلك: أن يحتسب الطبيب على الله أنه يقوم بعمل مباح يكسب من خلاله الرزق الحلال؛ فيكفي نفسه ومن يعول، ويستعين به على إعزاز نفسه، وإقامة مروءاته.

ويحتسب -كذلك- أنه يعالج المرضى؛ فتصح أبدانهم، ويسعدون، ويسعد بهم من حولهم، ويستعينون -إن كانوا مسلمين- بتلك الصحة على القيام بمصالح دينهم ودنياهم، وهكذا...

= فهذا الاحتساب ينقلب عمله الدنيوي المباح في أصله إلى قرابة ينال بها
الزلفى من الله - عز وجل -.

وقل مثل ذلك في شأن من يمارس عادة الرياضة ؛ حيث يحتسب بذلك أن
يقوى بدنه ، ويسلم من المرض ، وينشرح صدره ؛ فيعود ذلك عليه بالقوة ،
والنشاط ، والإقبال على العبادة ، والقيام بما يسند إليه من عمل خير قيام ؛ فبذلك
تكون تلك العادة عبادةً بالنية .

وإن شكر الله على ذلك كله ، وسأله المزيد من ذلك - كان نوراً على نور ، ومن
سعادة إلى سعادة أعلى .

وهذا مما يختص به المؤمن دون غيره .

فلذلك^(١) أثره الفعال في دفع الهموم والغموم والأحزان^(٢)، فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فأحلت به الأمراض المتنوعة، فصار دواؤه الناجع نسيانه السبب الذي كدره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته^(٣).
وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس، وتشتاقه؛ فإن هذا أدى لحصول هذا المقصود النافع، والله أعلم^(٤).

(١) قوله: «فلذلك»: يعني به الاشتغال بما ينفع من علم، أو عمل.

(٢) قوله: «أثره الفعال في دفع الهموم، والغموم، والأحزان»: لأن الفارغ يجتر المآسي، ويتوقع الشرور؛ ولهذا قالت العرب في أمثالها: «ويلٌ للشجي من الخلي». لكن المشتغل بما ينفع لا يفكر بذلك؛ فعنده ما يشغله؛ فلهذا تراه من أسعد الناس، وأبعدهم عن القلق.

(٣) قوله: «فكم من إنسان ابتلي بالقلق»: إلى قوله: «واشتغاله بعمل من مهماته»: يشير بذلك إلى أن الاشتغال بما ينفع من أعظم الأدوية لمن اشتكى القلق، والضيق.

يقول العالم النفساني كارل يونج: «إن ثلث عدد مرضاي لا يشكون من أمراض نفسية معلومة محددة بقدر ما يشكون من فراغ حياتهم، وخلوها من البهجة، والمتعة»^(١).

(٤) قوله: «وينبغي»: إلى قوله: «والله أعلم»: يشير بذلك إلى حسن الاختيار للعمل، ومدى ملاءمته لطبيعة الإنسان؛ فإن مما يشجعه على الاستمرار، =

(١) دع القلق ص ١٩٩-٢٠٠.

= والاستمتاع بالعمل - أن يكون عملاً يناسبه، ويلائم ميوله؛ حتى يشعره بفائدته منه، وميله إليه، واستعداده له، وسعادته به؛ فإن أكثر أسباب الملل ترجع إلى سوء اختيار العمل.

والحاصل مما مضى أن الاشتغال بما ينفع عموماً، وبمعالي الأمور - على وجه الخصوص - من أعظم أسباب السعادة، وطرد الهم.

ولا ريب أن اللذات العقلية أعظم من اللذات الحسية، وأن أعظم اللذات العقلية لذة العلم؛ فلذته أعظم سعادةً، وأبقى جولةً، وأخلد أثراً.

ولو صور العلم لكان أجلى من صورة القمر إذا اتسق؛ فمن لذات العلم والبحث - مناجاة الفكر، واقتناص الأوابد، ومعرفة أقدار العلماء، والتعود على طول النفس، والحرص على الوصول إلى الحقائق.

وأعظم لذاته - وخصوصاً للعالم والباحث المسلم - ما يترتب عليه من الثواب الجزيل، والأجر المتسلسل إذا صحت النية، واحتسب الأجر؛ ففي ذلك لذة، وسلوة، وبركة ودافع لمزيد من الجد والبذل.

وقد أجمع العقلاء على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن الراحة لا تنال بالراحة.

قال أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها
وقال أبو الطيب المتنبي:

تسأل إلا على جسرٍ من التعب
وممن يعشق يَلدُّ له الغرام
تلد له المروءة وهي تؤذي
وقال:

تريدين لقيان المعالي رخيصةً
ولا بد دون الشَّهْد من إبر النحل =

= وقال :

دون الحلاوة في الزمان مرارةً لا تُخطسى إلا على أهواله
وقد عبّر عن لذة العلم والبحث كثير من العلماء؛ فهذا الزمخشري- يعرب عن
عظيم سعادته ، واغتباطه بالعلم والبحث ، ويفضل ذلك على سائر اللذات ، فيقول :
سهرى لتنقيح العلوم ألدلي من وصل غانيةً وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها أحلى من الدوكاه والعشاق^(١)
وألد من نقر الفتاة لدفها نقري لألقى الرمل عن أوراقى
وتمايلي طرباً لحل عوبصة في الدرس أشهى من مدامة ساقى
وأبيت سهران الدجى وتبته نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقي
وهذا ما حدا بالسبكي رحمه الله أن يقول :
لأسرار آيات الكتاب معان إذا بارق قد لاح منها لناظري
وعبر عن هذا المعنى أحدهم قائلاً :
وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة ويأخذ لي من سورة الفكر نشوة
ويفهم ما قد قال عقلي تصوري وأسرع من نجوى الدفاتر طرفة
ينادمي قومٌ لذي حديثهم يقر بها قلبي ويصفو بها ذهني
فأخرج من فنّ وأدخل في فنّ فنّقلني عن أذني وسمعي بها مني
أزيل بها همي وأجلو بها حزني فما غاب منهم غير شخصهم عني =

(١) ويروى : « الدوكاه والعشاق » : وهما ضربان من ضرب الألبان الموسيقية.

قيل : إن الدوكاه : اللحن الثاني من أصول الأنغام الموسيقية ، وهو أصل يتفرع منه نحو أربعين نغمة.

وقيل : إن (العشاق) لحن موسيقي ، وإن هناك مقاماً يسمى : (عشاق دوكاه) وهو مزيج بين الضربين.

= وقال الشيخ محمد الخضر حسين رحمته الله :

يَعشَقُ المجد يلدَّ السهرا	أسهر الليل وإن طال ومَنُ
صاحبُ زار ولا ضيفُ سرى	لست آسى إن مضى ليلٌ وما
رُمتُ أنساً ضحوةً أو سحرا	هو ذا الفكرُ يناجيني متى
جال في الطُّرس وأهدى دررا	لي يراعُ كلما استهديته
لست ممن يشتكي بخل الورى	فليكن في الناس بُخلٌ إنني

ومما يُدْفَعُ به الهم والقلق^(١) اجتماعُ الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر^(٢)، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبلي^(٣)، وعن الحزن على الوقت الماضي^(٤).

(١) قوله: «ومما يدفع به الهم والقلق»: هذا شروع في ذكر السبب الرابع من أسباب طرد الهم وجلب السعادة، ألا وهو: اجتماع الفكر على العمل الحاضر.

(٢) قوله: «اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر»: يعني بذلك جمع القلب، وحصرُ الهمة والتفكير، والتركيزُ على ما الإنسان بصدد منه العمل الذي بين يديه.

(٣) قوله: «وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبلي»: أي ترك ما يشغل من الاهتمام في المستقبل؛ لأن ذلك يسبب تشتت الذهن، والتقصير في العمل الحاضر.

(٤) قوله: «وعن الحزن على الوقت الماضي»: لأن ذلك اشتغال بما لا ينفع، وقطع عن العمل الذي ينفع.

وقد بنى ديل كارنجي كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) على قاعدتين -كما يقول- وهما: لا تعبر جسراً حتى تصل إليه، ولا تَبْكِ على ما فات.

فهذا السبب -وهو قصر النظر على العمل الحاضر- من أعظم ما يعين على اغتنام الأوقات، وإنجاز الأعمال، واجتلاب السعادة وطرد الهم؛ بحيث يَقْصُرُ الإنسان نظره على عمله الحاضر الذي هو بصدده، فيَصْرِفُ له همته، ويقبل عليه بِكُلِّيَّتِهِ، ويجمع عليه ظاهره وباطنه، ويتجنب كل ما يشغله، وبصده عنه؛ فإنَّ هو فعل ذلك أدرك بُعْيَتَهُ، وتم له مرادُه، وحضرت سعادته، وأدبر قلقه.

وإن تشوفت نفسه إلى أعمال أخرى لم يَحِنْ وقتها بَعْدُ - شُغِلَ بها عن عمله =

= الحاضر؛ ففترت همته، وانحلت عزيمته، وضاع عليه وقته، وقل إتقانه لعمله، وربما تركه إلى غير رجعة؛ فإذا حان وقت العمل الذي يلي عمله السابق لم يكن مستعداً له، ولا راغباً فيه، ولا مقبلاً عليه إلا بضعف همة، وقلة نشاط. وربما كان العمل الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله؛ فيفوت الأول والثاني؛ بسبب تفرق الهمة، وتشتت الذهن.

بخلاف ما إذا جمع قلبه على عمله الحاضر، ثم تدرج فيه شيئاً فشيئاً حتى يكمله، فإذا حان وقت العمل الذي يليه أقبل عليه بهمة ونشاط، وتلقاه بشوق وعزيمة، فيكون دائماً متجدداً مستعداً.

وهذه القاعدة الجليلة قد أشار إليها القرآن الكريم، ودعا إليها في مواضع متعددة، ومنها قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧).

فلقد كانوا يتمنون القتال مع أنهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعظة الله ضعفوا؛ فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا أشد الضعف.

ويتجلى هذا المعنى بوضوح في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ (النساء: ٦٦).

وكذلك قوله - تعالى -: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۝﴾ (محمد: ٢٠-٢١).

= قال الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أي فأولى لهم أن يمثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى- وعفوه.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾: أي جاءهم أمرٌ جدٌ، وأمر حتم ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾: في هذه الحال بالاستعانة به، وبذل الجهد في امثاله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلق نفسه بالمستقبل ضُغِفَ عن العمل بوظيفة وقته الحاضر، وبوظيفة المستقبل، أما الحال فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة. وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها؛ فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية مع كسله عن عمل الوقت الحاضر- شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يُخَذَلَ، ولا يقوم بما هم به، وتوعد نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه، وفكره، ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته.

ثم كلما جاء وقت استقبله بجد ونشاط، وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك؛ فهذا أحرى بالتوفيق والتسديد في جميع أموره^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣٣/٥-٣٤.

= بل إن هذه القاعدة مما يتفق عليه أهل التجارب والنظر.

يقول الأديب الإنجليزي توماس كارليل: «ليس علينا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً على البعد، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين»^(١).

ثم إن هذه القاعدة لا تعني أن ندع التخطيط للمستقبل، بل إنها من أعظم ما يعين على ذلك؛ فإنجاز العمل الحاضر يؤهلك ويدفعك لإنجاز ما تستقبله كما مر.

يقول الدكتور الكندي أوسلر: «إن أفضل الطرق للاستعداد للغد هي أن نركز كل ذكائنا وحماسنا في إنهاء عمل اليوم على أحسن ما يكون؛ هذا هو الطريق الوحيد الذي نستعد به للغد»^(٢).

والأمثلة على هذه القاعدة كثيرة جداً، مثال ذلك أن تجد طالباً سيمتحن بعد شهرين -على سبيل المثال- فتراه قلقاً يفكر في ذلك الامتحان الذي لم يَحِنْ وَقْتُهُ. ولو أنه بدأ في المذاكرة، واستعد لذلك الامتحان لكان خيراً له؛ فإذا جاء الامتحان وإذا به قد أخذ أهبطه له، وتجاوزته -ياذن الله-.

وقل مثل ذلك في شأن الزواج، والتجارات، ونحوها.

فالتفكير في المستقبل إن حمل على إتقان العمل الحاضر فحسن.

= وإلا فهو ضرب من الهم الذي لا طائل تحته.

(١) دع الفلق ص ٢٤-٢٥.

(٢) دع الفلق ص ٢٦.

= وقل مثل ذلك في شأن السعادة؛ فكثيراً ما نُفَرِّطُ في سعادة حاضرةٍ بانتظار سعادة مستقبلية على حد قول الأول:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها عسى الدهر يأتي بعدها بوصول
وأكره أيام الوصال لأنني أرى كل وصل محكمٌ بزوال
وأولى لنا ثم أولى لنا أن نسعد في الحاضر، ومنتظر سعادة المستقبل؛ لنسعد بها إذا
حانت.

ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهم، والحزن؛ فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل؛ فيكون العبد ابن يومه؛ يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر؛ فإنَّ جَمَعَ القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن.

والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء، أو أرشد أمته إلى دعاء فإنما يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله على الجِد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله، والتخلي عما كان يدعو لدفعه؛ لأن الدعاء مُقَارِنٌ للعمل؛ فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نَجَاحَ مَقْصده، ويستعينه على ذلك، كما قال ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

فجمع ﷺ بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال، والاستعانة بالله، وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار، وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره. وجعل الأمور قسمين: قسماً يمكن العبد السعي في تحصيله، أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه، أو تخفيفه؛ فهذا يبدي فيه العبد مجهوده، ويستعين بمعبوده.

وقسماً لا يمكن فيه ذلك؛ فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم. ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم^(١).

(١) استدلل الشيخ رحمه الله على القاعدة التي جعلها من أسباب طرد الهم، وجلب السعادة، ألا وهي اجتماع الفكر على العمل الحاضر بهذا الحديث العظيم الذي رواه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) والذي يُعدُّ من أعظم الأحاديث في باب القدر، بل هو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

= ثم شرح الشيخ رحمته الله هذا الحديث بما يناسب المقام، ويؤيد ما ذهب من ذكر ذلك السبب المفضي إلى السعادة^(١).

والحاصل أن الحكمة تقتضي أن يستجمع الإنسان فكره، وهمته على العمل الحاضر؛ حتى يُحسِنه، ويأتي به تماماً على الوجه الأكمل؛ فإن كان في صلاة فليقبل عليها بكل خشوع وحضور قلب، وإن كان في صيام فليحرص على حفظه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن كان في حج فليأت به على الوجه الأتم، وإن كان لديه ضيوف فليكن همهم الإقبال عليهم، وإعطاؤهم حقهم من الإكرام والإسعاد، وإن كان في كتابة بحث، أو إعداد درس فليجمع فكره، وخواطره على الموضوع الذي هو بصدد البحث عنه أو إعداده، وهكذا في كل عمل من الأعمال الدينية والدنيوية؛ فإن أخذ بتلك القاعدة سعد في حاضره، ومستقبله.

هذا وإن أعظم ما يجمع عليه المؤمن همه هو الله -جل جلاله- فذلك منتهى سعادته وسروره.

قال ابن القيم رحمته الله مشيراً إلى هذا المعنى: «فاللذة التامة، والفرح، والسرور، وطيب العيش، والنعيم إنما هو في معرفة الله، وتوحيده، والأنس به، والشوق إلى لقائه، واجتماع القلب والهم عليه؛ فإن أنكد العيش عَيْشٌ مَنْ قَلْبُهُ مَشْتَتٌ، وهمه مفرق»^(٢).

إلى أن قال رحمته الله: «فاحرص أن يكون همك واحداً، وأن يكون هو الله وحده؛ فهذه غاية سعادة العبد.

وصاحب هذه الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة، وفي نعيم عاجل»^(٣).

(١) للشيخ رحمته الله شرح وافٍ مفصل لهذا الحديث في كتابه (بهجة قلوب الأبرار) الحديث الثاني عشر ص ٤٨-٥٠.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٢٩.

(٣) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٣٠.

فصل

ومن أكبر الأسباب لانسراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله^(١)؛
فإن لذلك^(٢) تأثيراً عجبياً في انسراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه^(٣).
قال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ﴾^(٤).
فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد
من ثوابه وأجره^(٥).

- (١) قوله: «ومن أكبر الأسباب»: هذا شروع في بيان السبب الخامس من أسباب السعادة، ألا وهو الإكثار من ذلك الله.
- (٢) قوله: «فإن لذلك»: يعني للإكثار من ذكر الله.
- (٣) قوله: «تأثيراً عجبياً...» إلى قوله: «وغمه»: يعني به ما يُحدِثُه الإكثارُ من ذكر الله من الآثار العظيمة الحميدة التي توجب لصاحبها السعادة، وتزيل عنه الهموم والغموم.
- (٤) قوله: «قال -تعالى-»: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: استشهاد على ذلك بهذه الآية من سورة الرعد، وقبلها قول الله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.
- وهذا من لطيف فقه الشيخ رحمته الله حيث استشهاد بما يناسب المقام. وإلا فإن النصوص الواردة في شأن الذكر وفضائله متنوعة كثيرة جداً.
- (٥) قوله: «فلذكر الله أثر عظيم...» إلى قوله: «من ثوابه»: بيان لأثر الذكر في حصول السعادة؛ لما يختص به من بين سائر العبادات، ولما ينطوي عليه من الأسرار اللطيفة، ولما يترتب عليه من الأجور العظيمة المضاعفة.

= ولقد جاءت نصوص الشرع متظافرة متظاهرة على فضل الذكر، وعموم نفعه، والثناء على أهله، والحث على الإكثار منه، قال - تبارك وتعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ، وقال - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ، وقال : ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، وقال : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل به العبد نفسه في الجملة . وعلى ذلك دلّ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم «سبق المفردون» .

قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(١) .

وفيما رواه أحمد^(٢) والترمذي^(٣) وابن ماجه^(٤) وأبو داود^(٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» .

قالوا: بلى يا رسول الله.

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) .

(٢) ١٩٥/٥ .

(٣) (٣٣٧٧) .

(٤) (٣٧٩٠) .

(٥) لم أجده عند أبي داود .

= قال: «ذكر الله».

والدلائل القرآنية، والإيمانية بصرًا، وخبرًا، ونظرًا على ذلك كثيرة. وأقل ذلك أن يلزم الإنسان الأذكار المأثورة عن معلم الناس الخير، وإمام المتقين عليه السلام كالأذكار المؤقتة في أول النهار، وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ في المنام، وأدبار الصلوات، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد وغير ذلك. وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة. ثم ملازمة الذكر مطلقًا، وأفضله: لا إله إلا الله وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله أفضل منه»^(١).

أما فوائد الذكر فلا تكاد تحصى؛ لكثرتها، وتنوع بركتها، فمن ذلك على سبيل الإجمال: أن الذكر يرضي الرحمن، ويطرده الشيطان، ويزيل الهم والغم، ويجلب البسط والسرور. والذكر يجلب الرزق، ويحيي القلب، ويورث محبة الله للعبد، ومحبة العبد لله، ومراقبته - عز وجل - ومعرفته، والرجوع إليه، والقرب منه. والذكر يحطُّ السيئات، وينفع صاحبه عند الشدائد، ويزيل الوحشة ما بين العبد وربّه.

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٦٥٩-٦٦١.

= والذكر يغني القلب، ويسدُّ حاجته، ويجمعُ على القلب ما تفرق من إراداته وعزومه، ويفرق عليه ما اجتمع من الهموم، والغموم، والأحزان، والأنكاد، والحسرات.

ويفرق عليه -أيضاً- ما اجتمع على حربه من شياطين الإنس والجن. والذكر يقرب من الآخرة، ويباعد من الدنيا، ويعطي الذكر قوةً، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يُظن فعله بدون الذكر.

وبالجملمة فإن ثمرات الذكر وفوائده، تحصل بكثرتة، وباستحضار ما يقال فيه، وبالمداومة على الأذكار المطلقة، والمقيدة، وبالحذر من الابتداع فيه، ومخالفة المشروع^(١).

ومع فضل عموم الذكر فهناك أذكارٌ مطلقةٌ عظيمةٌ، وقد جاء في فضلها نصوصٌ كثيرة.

وأعظم هذه الأذكار: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وقد جاء في فضلها أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس». ومن الأذكار العظيمة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ومعناها: لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوّة له على ذلك إلا بالله. =

(١) انظر تفصيل الكلام في فضلها إلى الوايل الصيب لابن القيم ص ٦١ فما بعدها.

= وقد جاء في فضلها أحاديث كثيرة منها ما جاء في سنن الترمذي (٣٤٦٠) عن عبدالله ابن عمرو- رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض أحدٌ يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كُفرتُ خطاياها، ولو كانت مثل زيد البحر».

قال الترمذي: «وهذا حديث حسن غريب».

وجاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا موسى، أو يا عبدالله بن قيس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة»^(١). قلت: بلى.

قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «لا حول ولا قوة إلا بالله تُحمل بها الأثقال، وتُكابد الأهوال، ويُنال رفيع الأحوال»^(٢).

وقال ابن القيم رحمته الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - يذكر أثراً في هذا الباب، ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا! كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟

فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فلما قالوها حملوه»^(٣).

وقال ابن القيم - أيضاً - : «وهذه الكلمة - يعني لا حول ولا قوة إلا بالله - لها تأثيرٌ عجيبٌ في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمّل المشاق، والدخول على الملوك، ومن يُخاف، وركوب الأهوال، ولها - أيضاً - تأثيرٌ في دفع الفقر».

(١) البخاري (٦٤٠٩) ومسلم (٢٧٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/١٣٧.

(٣) الوابل الصيب ص ١٠٦-١٠٧.

قال: «وكان حبيبُ بنُ مسلمةَ يَسْتَحِبُّ إِذَا لَقِيَ عَدُوًّا، أَوْ نَاهَضَ حَصْنًا، أَنْ يَقُولَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَنَّهُ نَاهَضَ يَوْمًا حَصْنًا لِلرُّومِ فَانْهَزَمَ، فَقَالَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَكَبَرُوا، فَانْهَدَمَ الْحَصْنُ»^(١).

ومن الأذكار المطلقة العظيمة «سبحان الله وبحمده».

ولقد جاء في فضلها أحاديثٌ كثيرةٌ، منها ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّتْ خطاياهُ وإن كانت مثل زبد البحر»^(٢).

ومن الأذكار العظيمة كذلك: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٣).

والحاصل أن الإكثار من ذكر الله - عز وجل - باب عظيم من أبواب تحصيل السعادة، وطردِ بهم.

(١) الوابل الصيب ص ١٠٧.

(٢) البخاري (٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩١).

(٣) البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤).

وكذلك^(١) التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة^(٢)؛ فإن معرفتها^(٣) والتحدث بها^(٤) يدفع الله به الهمَّ والغمَّ^(٥)، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها^(٦).

(١) قوله: «وكذلك»: أي من أسباب السعادة، وانشرح الصدر، وهذا شروع في ذكر السبب السادس.

(٢) قوله: «التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة»: هذا هو السبب السادس، والمقصود بذلك أن يتحدث بها العبد على سبيل الشكر لله، وامتنال أمره -جل ثناؤه- إذ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى.

ويقول: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ البقرة: ١٥٢.

لا أن يتحدث بها على سبيل الفخر، والبطر، والأشر.

وقد أفاد الشيخ هذا السبب من صاحب كتاب (دع القلق) الذي عقد الفصل الخامس عشر من كتابه المذكور في هذا السبب^(١)، وعنون له بقوله: «هل تستبدل مليون ريال بما تملك»^(٢).

وخته بقوله: «فإذا أردت أن تقهر القلق، وتبدأ الحياة فإليك القاعدة رقم (٤): «أحص نعم الله عليك بدلاً من أن تحصي متاعبك»^(٣).

ولكن الشيخ عبدالرحمن رحمته الله أوضح ذلك السبب بمزيد تحرير، وإيضاح؛ لكون الشكر عبادةً، وقربةً إلى الله، ويترتب عليها ما يترتب من الأجر العظيم، وقرار النعم، وزيادتها، ونحو ذلك من البركات المتنوعة التي يختص بها المسلم الشاكر. =

(١) انظر دع القلق ص ١٦٦-١٧٣.

(٢) دع القلق ص ١٦٦.

(٣) دع القلق ص ١٧٣.

= (٣) قوله: «فإن معرفتها»: يعني معرفة النعم التي تفضل الله بها، سواء كان ذلك على سبيل الإجمال، أو على سبيل التفصيل.

ولا ريب أن تذكر النعم على وجه التفصيل أدعى لمزيد من الشكر؛ فيتذكر الإنسان نعمه الدينية - وهي أعظم - فيتذكر كونه مسلماً، وعلى هدي النبي محمد ﷺ فتلك نعمة كبرى، بل هي أجل النعم على الإطلاق.

ولهذا ذكرها الله - عز وجل - في سورة النحل التي تسمى سورة النعم، وجعلها أول النعم؛ حيث قال - جل ثناؤه - في مفتتح السورة مقديماً لها على سائر النعم: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۚ ﴿١﴾.

ثم ما يستتبع هذه النعمة من نعمة الهداية، والقرآن، السنة، والعلم، وما إلى ذلك من النعم الدينية.

ويتذكر النعم الدنيوية من نحو نعمة الجوارح، ونعمة الأمن، والصحة، وتوافر المطاعم، والمشارب، والمراكب، ووسائل الراحة عموماً.

ويتذكر نعمة المال، والزوج، والولد، والصدقة، والتراحم، ونحو ذلك من النعم التي لا تحصى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

بل إن كثيراً من النعم لو تأملها الإنسان لرأى من العجب العجاب من إنعام الله عليه بها.

ومع ذلك فالغفلة عن استحضارها، وشكر الله عليها - مستحكمة: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ سبأ: ١٣.

(٤) قوله: « والتحدث»: أي لا يكفي مجرد معرفتها، وتذكرها فحسب.

بل لا بد من التحدث بها على سبيل الشكر لله - عز وجل -.. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾.

= وبذلك يكمل الشكر، وتجتمع أركانه، وهي الشكر بالقلب، واللسان، والجوارح كما قال الأول:

أفادتكم النعماء عني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

(٥) قوله: «يدفع الله بها الهم والغم»: هذه ثمرة من ثمرات معرفة النعم، والتحدث بها مما يناسب هذه الرسالة التي تدور حول هذا المعنى؛ حيث إن التحدث بها على سبيل الشكر يورث السعادة، والسرور، ويطرد الهموم والغموم.

(٦) قوله: «ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها»: هذه ثمرة أخرى لمعرفة النعم والتحدث بها؛ حيث يحمل الإنسان على مزيد من الشكر. والشكر من أجل العبوديات، وأعلى المنازل؛ إذ هو نصف الإيمان، فالإيمان صبر وشكر.

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده، وأثنى على أهل الشكر، ووصف به خاصة خلقه، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر -عز وجل- أن أهل الشكر هم المنتفعون بأياته.

والشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة.

وحقيقة الشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً.

والمؤمن حقاً هو مَنْ يلازم الشكر في شتى أحواله؛ فإذا نزل به ما يحب شكر الله عليه؛ إذ هو المنعم المتفضل، وإذا نزل به ما يكره شكر الله على ما قدره عليه؛ كظماً للغیظ، وسترًا للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم؛ فإن العلم بالله والأدب معه يأمران بشكر الله على المحاب والمكاره، وإن كان الشكر على المكاره أشق وأصعب^(١).

(١) انظر مدارج السالكين ١٩٩/٢، ٢٣٥، و٢٤٣.

حتى ولو كان العبد في حالة فقر، أو مرض، أو غيرهما من أنواع البلياء؛ فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه - التي لا يُحصى لها عدٌّ ولا حسابٌ - وبين ما أصابه من مكروه، لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة^(١).

(١) يعني أن الإنسان مهما ابتلي بأي نوع من الابتلاء من نحو الفقر، أو المرض، أو خسارة مال، أو فقد محبوب، أو إساءة سمعة، أو تسلط عدو - فهو مخوف بجيش من النعم التي لا يحصي لها عدًّا.

وإذا قارن بين تلك النعم التي تترى عليه من كل جانب، وبين ما أصيب به من البلاء لم يكن لذلك المكروه نسبة تُذكر.

يقال هذا؛ لأن فئاماً من الناس ينسون ما يتقلبون به من النعم بمجرد أدنى نازلة تنزل بهم؛ فقد يتلى بعض الناس بفقد ولد؛ فيكبر عليه ذلك كثيراً، وربما سخط قضاء الله، مع أنه قد يكون لديه أكثر من ولد.

وقد لا يكون لديه إلا ولد واحد؛ فينظر إلى بقية النعم، أو إلى من ليس عنده ولد أصلاً، فيستحضر أن الله أنعم به، فشكر، وأخذ، فصبر؛ فيكون بذلك قد استكمل الإيمان.

وقد يصاب بمرض يسير؛ فينسيه ذلك المرض جميع النعم. وقد يؤمل في مال، أو وظيفة، أو زوجة؛ فإذا لم يحصل له شيء من ذلك ندب حظه، وقرع سنه، وأطال أسفه.

بل قد يصاب بأمر يسير جداً؛ فيسلبه سعادته، ويأخذ عليه تفكيره، ويرى أنه مبتلى، وغيره معافى.

ولو أنه قارن ما أصابه بما هو متقلب فيه من النعم لرأى البون شاسعاً. بل لو سلب جميع النعم، واستحضر نعمة الإسلام والإيمان - لكفته تلك النعمة؛ لما يؤمله من الأجر والثواب - كما سيأتي في الفقرة التالية.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، وأدى فيها وظيفته الصبر، والرضا والتسليم - هانت وطأئها، وخفَّت مؤنثها، وكان تأميلُ العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضا - يدع الأشياء المرة حلوة؛ فتنسيه حلوة أجرها مرارة صبرها^(١).

(١) بعد أن أوضح الشيخ أن الشكر على النعم من أعظم أسباب السعادة، وأن ما يتلى به الإنسان من البلاء لا يقارن بالنعم التي تُحيط به من كل جانب - أراد أن يوضح ههنا أن ما ينزل بالعبد من سائر الابتلاءات يحتاج إلى صبرٍ، ورضاً وتسليماً؛ ليكمل إيمانه؛ إذ الإيمان شكر، وصبر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. ثم بين أن من كانت هذه حاله فإن مصائبه تهون عليه، ويخف عليه احتمالها. بل إذا كان يرجو ثواب تلك الابتلاءات، ويؤمل في أن يكون من وراء ذلك خير، وحسن عاقبة - انقلبت تلك المحن إلى منح؛ فصار استمتاعه بالبلاء كاستمتاعه بالنعماء؛ لما في الصبر من جميل العوائد، وحميد العواقب. بل قد تسمو به الحال؛ فيرتقي إلى منزلة الرضا؛ فمن رضي عن الله رضي الله عنه، بل إن رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه؛ فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضاً قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضاً بعده هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا بابَ الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين، وقرّة عيون المشتاقين^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «من ملأ قلبه من الرضا بالقدر ملأ الله صدره غنى، وأمناً، وقناعةً، وفرغ قلبه لمحبهته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.»

(١) انظر مدارج السالكين ١٧٢/٢.

== ومن فاته حَظُّه من الرضا امتلاً قلبه بضد ذلك ، واشتغل عمَّا فيه سعادته
وفلاحه» (١).

«وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟

فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه؛ فيقول: إن أعطيتني
قبلت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت» (٢).

وقال بعضهم: «ارض عن الله في جميع ما يفعله بك؛ فإنه ما منعك
إلا ليعطيك ، ولا ابتلاك إلا ليعافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك
إلا ليحييك؛ فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين ، فتسقط من عينه» (٣).

ومما ينبغي أن يُعلم أنه ليس من شرط الرضا ألا يحس العبد بالألم والمكاره ، بل
ألا يعترض على الحكم ، ولا يتسخطه.
قال أحد الحكماء:

إذا اشتدت البلوى تخفف بالرضا عن الله قد فاز الرضيُّ المراقب
وكم نعممة مقروننة بليلة على الناس تخفى والبلايا مواهب (٤)

ومع هذا فلا خروج للعبد عما قدر عليه ، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر
وهو محمود ، مشكور ، ملطوف به ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف
به.

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ٢/٢١٦ .

(٤) انظر برد الأكباد عند فقد الأولاد ص ٣٧ .

= ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطفُ عليه ، واللفظ فيه ، فيصير بين عطفه ولطفه؛ فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يُهَوِّنُ عليه ما قدر له. وقد تسمو به الحال من منزلة الرضا إلى منزلة الشكر الذي هو أعلى من الرضا. بل قد ترقى به الحال إلى منزلة الفرح عن الله في كل ما يقدره ويقضيه من محابِّ ومكاره.

وتلك حال خواص المؤمنين ، وهي منزلة عظيمة تذهب بكل همٍّ وحسرة ، وضيق.

وتلك المنازل لا تخطر ببال من لم يدْرِ ما الكتاب ولا الإيمان ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

قال ابن القيم رحمه الله عن هذه المنزلة: «والفرح أعلى نعيم القلب ، ولذته وبهجته ، فالفرح والسرور نعيمه ، والهم والحزن عذابه.

والفرح بالشيء فوق الرضا به؛ فإن الرضا طمأنينة ، وسكون ، وانسراح. والفرح لذة ، وبهجة ، وسرور؛ فكلُّ فرحٍ راضٍ ، وليس كلُّ راضٍ فرحاً؛ ولهذا كان الفرح ضد الحزن ، والرضا ضد السخط ، والحزن يؤلم صاحبه ، والسخط لا يؤلمه إلا ما كان مع العجز عن الانتقام ، والله أعلم»^(١).

ولو نظرت في سير بعض الصالحين ، والعباد ، والعلماء الربانيين لوجدت أحوالهم ناطقة بذلك ، وقد ذكر ابن القيم أطرافاً من ذلك في كتابه مدارج السالكين ، وذكر في مواضع من كتبه أن تلك هي أحوال شيخه ابن تيمية رحمه الله . =

(١) مدارج السالكين ٣/١٥٠ .

= ومن القصص العجيبة في هذا الشأن ما جاء في كتاب (الثقات ٥/٢-٥) لابن حبان في ترجمة التابعي الجليل أبي قلابة رضي الله عنه وهي قصة تنطق بالشكر والرضا عنه، والفرح بقضائه.

قال ابن حبان رضي الله عنه: «أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي من عباد أهل البصرة وزهادهم، يروي عن أنس بن مالك، ومالك بن الحويرث، وروى عنه أيوب وخالده مات بالشام سنة ١٠٤ هـ في ولاية يزيد ابن عبد الملك.

حدثني بقصة موته محمد بن المنذر بن سعيد، قال: حدثنا يعقوب بن إسحاق ابن الجراح، قال: حدثنا الفضل بن عيسى عن بقية بن الوليد، قال: حدثنا الأوزاعي عن عبد الله بن محمد، قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً، وكان رابطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل، فإذا أنا ببطيحة، وفي البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يده ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وماله من جارحة تنفعه إلا لسأته وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمذك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت عليّ بها، وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً.

قال الأوزاعي: قال عبد الله قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسأله أنى له هذا الكلام: فهم أم علم؟ أم إلهام ألهم؟.

فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمذك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي، وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً، فأني نعمته من نعم الله عليك تحمده عليها؟ وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟

= قال: وما ترى ما صنع بي ربي؟ والله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقني، وأمر الجبال فدمرتني، وأمر البحار فأغرقتني، وأمر الأرض فبلعتني، ما ازددت لربي إلا شكراً؛ لما أنعم علي من لساني هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالة أنا، أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بُنيُّ لي يتعاهدني في وقت صلاتي، فيوضِّيني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله.

فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام، فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كئبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبعٌ، وأكل لحمه؛ فاسترجعت وقلت: أنى لي وجهٌ رقيقٌ آتى به الرجل، فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكرُ أيوب النبي ﷺ فلما أتيته سلمت عليه، فرد عليَّ السلام، فقال: ألسنت بصاحبي؟ قلت: بلى! قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي، قلت: هل علمت ما صنع الله به، أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى! قلت: فكيف وجدته؟ قال: وجدته صابراً شاكراً حامداً، قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبابه قال: نعم، قلت فكيف وجدته ربه؟ قال: وجدته صابراً شاكراً حامداً، قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيرَه عرضاً لمارٍ الطريق هل علمت؟ قال: نعم، قلت: فكيف وجدته ربه؟ قال: صابراً شاكراً حامداً، أوجز رحمك الله! قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كئبان الرمل وقد افترسه سبع، فأكل =

= لحمه؛ فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر.

فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه؛ فيعذبه بالنار، ثم استرجع، وشهق شهقة فمات، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عَظُمَت مصيبيتي، رجلٌ مثل هذا إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر له على ضر ولا نفع، فسجّيته بشملة كانت عليه، وقعدت عند رأسه باكياً، فبينما أنا قاعد إذ تهجّم عليّ أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله! ما حالك وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه، فكشفت عن وجهه؛ فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مرة، ويديه أخرى ويقولون: بأبي عين طالما غضت عن محارم الله، وبأبي وجسمه طالما كنت ساجداً والناس نيام، فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله - تعالى - وللنبي ﷺ فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا، وصلينا عليه ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي، فلما أن جنّ الليل وضعت رأسي، فرأيت فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة، وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: ﴿سَلَّمَ عَلَيَّكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤)، فقلت: ألسنت بصاحبني، قال: بلى، قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن الله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء مع خشية الله - عز وجل - بالسر والعلانية.

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضوع ^(١) استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح ^(٢)، حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» ^(٣).

(١) قوله: «من أنفع الأشياء في هذا الموضوع»: يعني من أجدى ما يكون في حصول الشكر الذي تحصل به السعادة.

وهذا شروع في بيان السبب السابع، وهو نظر الإنسان إلى من دونه في سائر النعم الدنيوية.

(٢) قوله: «استعمال ما أرشد به النبي ﷺ في الحديث الصحيح»: يشير بذلك إلى أن الأخذ بما جاء في الحديث الآتي من أنفع ما يحصل به الشكر على أتم وجوهه. ويعني بذلك أن ينظر الإنسان إلى من هو أدنى في أمور الدنيا؛ حتى ينبعث إلى مزيد من الشكر، وتقدير النعم، وينظر إلى من هو أعلى في أمور الدين وسائر الفضائل؛ حتى ينبعث إلى الترقى في الكمالات.

(٣) استشهاد الشيخ بهذا الحديث العظيم الذي رواه أبو هريرة - كما في الصحيحين: البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٦٣٢٩) عن النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق - فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل عليه».

وزاد مسلم: «فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق قطعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية - رأى ربه قد أعطاه خيراً كثيراً، ودفع عنه شروراً متعددة.

ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور^(١).

(١) ما مضى من الكلام شرح من الشيخ رحمته الله للحديث السابق؛ حيث شرحه بما يناسب المقام، وبين أن من أخذ بتلك الطريقة أقبلت عليه السعادة، وانجابت عنه الهموم والغموم^(١).

وما جاء في هذا الحديث، وشرحه هو المعيار الحقيقي، والموازنة المجدية؛ فذلك مما يبصر الإنسان بنعمة ربه، ويقوده إلى شكره، وإيثار محبته؛ فإذا نظر إلى من هو فوقه في العلم، والتقوى، والعبادة، والكرم، ومحاسن الأخلاق، وسائر الفضائل - انبعث إلى العمل، والمسارة إلى الخيرات والكمالات.

وإذا نظر إلى من هو دونه في الصحة، والعقل، والمال، والجاه، والمركب، والملبس، والمسكن، ونحو ذلك من أمور الدنيا - قاده ذلك إلى مزيد من الشكر. بل وينظر - كذلك - إلى من بلوا بكثير من الذنوب، والمعاصي، والمظالم، والبذاءة، وكزازة الطباع، وسوء الأخلاق.

(١) للشيخ السعدي رحمته الله شرح وافٍ مفصل لهذا الحديث، في كتابه (لهجة قلوب الأبرار) شرح الحديث (١٩) ص ٧٥-٧٨.

= ويرى أن الله -بمنه وكرمه- سلمه من ذلك؛ فينبعث إلى مزيد شكره،
والثناء عليه -جل ثناؤه-.

قال ابن بطال رحمته الله في شرح الحديث السابق: «هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها - إلا وجد من هو فوقه؛ فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله؛ فيكون أبداً في زيادة تُقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيصة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه؛ فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه؛ فيلزم نفسه الشكر؛ فيعظمُ اغتباطه بذلك في معاده»^(١).

قيل في منثور الحكم: «وإذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال،
ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء»^(٢).

وقال ابن العميد:

من شاء عيشاً هنيئاً يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فليُنظَرَنَّ إلى مَنْ فوقه أدباً ولينظرن إلى من دونه مالا^(٣)

فإذا أخذ المرء بهذا الأدب السني، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً، ويبقى لها الذكر =

(١) فتح الباري ١١/٣٣٠.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٧٢.

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٧٣.

= الجميل أجلاً - لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ، ويرتقي إلى النهاية في الكمال ، فيحوز السعادة الإنسانية ، والرئاسة الحقيقية ، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً ، وجميل الذكر مخلداً - كما قال الجاحظ -^(١).

أما إذا عكس الأمر؛ فنظر إلى من هو فوقه في أمور الدنيا ، وإلى من هو دونه في أمور الدين ، والفضائل - فقد حكم على نفسه بالشقاء ، والقلق .

قال الله - جل ثناؤه - : ﴿ وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه .

قال أبي بن كعب رضي الله عنه : « من لم يتعز بعزة الله تَقَطَّعَتْ نفسه ، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس يَظُلُّ حزنُهُ ، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه - فقد قَلَّ علمه ، وحَضَرَ عذابه »^(٢).

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله في تفسير الآية السابقة : « أي ولا تمد عينيك معجباً ، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة ، والملابس الفاخرة ، والبيوت المزخرفة ، والنساء الجملة؛ فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا ، تبتهج بها نفوس المغترين ، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين ، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون ، ثم تذهب سريعاً ، وتمضي جميعاً ، وتقتل محبيها وعشاقها ، فيندمون حيث لا تنفع الندامة ، ويعلمون ما هم عليه يوم القيامة ، وإنما جعلها الله فتنة =

(١) تهذيب الأخلاق للجاحظ ٦٠-٦١ .

(٢) تفسير البغوي ٣٠٣/٥-٣٠٤ .

= واختباراً؛ ليعلم من يقف عندها، ويغتربها، ومن هو أحسن عملاً^(١).
 وما أحسن قول أبي فراس الحمداني:
 إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حافي
 ما كل ما فوق البسيطة كافياً فإذا قنعت فكل شيء كافي^(٢)

(١) تيسير الكريم الرحمن - تفسير السعدي ٢٦٠/٣ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٢٢٣ .

فصل

ومن الأسباب الموجبة للسرور^(١) وزوال الهم والغم - السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم، وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور^(٢).
وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردها^(٣)، ومعرفة أنه اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال، وأن ذلك حمق وجنون، فيجاهد قلبه عن التفكير فيها^(٤).

(١) قوله: «ومن الأسباب الموجبة للسرور...»: هذا شروع في بيان السبب الثامن من أسباب السعادة، وهو السعي في إزالة أسباب الهم، وفي تحصيل أسباب السرور.

وهذا السبب أفاده الشيخ رحمته الله من ديل كارنيجي خصوصاً في الفصل الحادي عشر الذي عنون له بقوله: «لا تحاول أن تنشر النشارة».

(٢) قوله: «السعي في إزالة...» إلى قوله: «الجالبة للسرور»: هذا هو السبب الذي يريد بيانه ههنا، ويُقصد به الجد والاجتهاد في إزالة كل سبب من شأنه جلب الهم، والسعي في تحصيل كل وسيلة تفضي إلى السعادة.

وهذا مقتضى الإيمان، والعقل، والحكمة؛ فشأن هذه المقتضيات جلب المنافع وعلى رأسها السعادة، ودفع المفسد، وعلى رأسها الشقاء، والقلق.

(٣) قوله: «وذلك بنسيان»: إلى قوله: «لا يمكن ردها»: يشير بذلك أن التعامل الصحيح مع ما مضى من الأحزان، والمواقف المؤلمة - هو نسيانها، أو تناسيها؛ إذ إن رد ما مضى مستحيل، وتداركه غير ممكن؛ فوجب على الإنسان نسيانها، أو تناسيها، والاشتغال عنها.

= (٤) قوله: «ومعرفته أن اشتغال فكره فيها...» إلى قوله: «عن التفكير فيها»: يعني أن يعلم الإنسان، ويستحضر أن تذكر تلك المكاره، والمآسي، والإكثار من ترديدها على الذهن - هو من باب العبث، والاشتغال بما لا ينفع، بل بما يضر حتماً.

وذلك كله حماقة، وسفه، وجنون، وكيف يسعى في جنون من عقل؟! فادراً لهم ما استطعت عن النفس - فس فحماً لئسك الهموم جنوناً وهذا نوع من الاجترار المذموم المضر؛ فهناك من هو مولع باجترار المآسي، والأخطاء، والأحداث الأليمة؛ فتراه دائماً يكررها على نفسه، وعلى من حوله. فإذا حدثت له - على سبيل المثال - مشكلة ثم انتهت بحل من الحلول، وأغلق بابها - لم يكتف بذلك، بل تراه دائماً التذكير بها خصوصاً إذا حدثت مشكلة أخرى.

واللائق بمثل هذه الأحوال أن إذا حدثت مشكلة جديدة أن يسعى في حلها بعيداً عن أجواء المشكلة الأولى؛ حتى تهدأ النفوس، وتتهيأ لقبول الحلول طالما أن المشكلة الجديدة ليس لها ارتباط بالأولى.

بل اللائق أن يُبتعد عن كل ما يكدر الصفو من العتاب القاسي، أو المنة في العفو إذا حصل؛ كما قال الله - عز وجل - : ﴿فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر: ٨٥. والصفح الجميل: هو الصفح بلا عتاب؛ فهذا يوسف - عليه السلام - لما مكَّنه الله في الأرض، وأذعن له إخوته، واعترفوا بخطئهم، ورأوا كيف آثره الله عليهم - لم يجتر المآسي الأولى، وإنما أشار إلى مصائبه السابقة - من الإلقاء في الحب، ومشاهدة مكر إخوته - بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]. =

= فكلمة ﴿بَعْدِ﴾ اقتضت - كما يقول العلامة ابن عاشور - أن ذلك شيء انقضى أثره، وقد ألمَّ به إجمالاً؛ اقتصاراً على شكر النعمة، وإعراضاً عن التذكير بتلك الحوادث المُكَدَّرَة للصلة بينه وبين إخوته؛ فَمَرَّ بها مرور الكرام، وباعدَها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان.

ومن أنواع الاجترار المُضِرُّ تذكُّرُ الإخفاقات؛ فمن الناس مَنْ إذا همَّ بعمل تذكَّرَ أنه قد أخفق في يوم من الأيام في كذا وكذا، فتصرف نفسه، وتفترهه من المضي قدماً في ذلك السبيل؛ خوفاً من الإخفاق.

ومن ذلك تذكُّرُ الإنسانِ المصائبِ التي حلت به، فتراه يكثر من ترادها على ذهنه؛ فكلما همَّ بفرح هجمت عليه تلك الخواطر الرديئة هجوم الليل إذا يغشى؛ فما تلبث أن تقلب سروره إلى جحيم مُلْهِبٍ. فمريد السعادة - إذا - لا يلقي نفسه في بئر الحسرات الماضية، وإنما ينأى عن ذلك؛ ليسعد في حاضره، ومستقبله.

وقد أبدى ديل كارنيجي وأعاد في الفصل الحادي عشر في كتابه (دع القلق) في هذا المعنى، وساق الحكم، والأمثال، والتجارب التي تفيد في هذا السبب، وأوضح ما وقع فيه من أخطاء بسبب اجتراره لإخفاقاته.

ومن ذلك قوله: «لَكُمْ تَمْنِيَةٌ أَنْ أَكُونَ طَالِباً فِي كَلِيَّةِ (جورج واشنطن) بنيويورك؛ لأتلمذ على دمستر براندوين ذلك الأستاذ الذي تتلمذ على يديه (ألف سوندرز) من أهالي مدينة نيويورك»^(١).

ثم أورد قصة ذلك التلميذ مع أستاذه فقال: «حدثني (سوندرز) أن (دمستر براندوين) مدرس الصحة بكلية (جورج واشنطن) علمه درساً لن ينساه أبداً. =

(١) دع القلق ص ١٢٦-١٢٧.

= ثم قصَّ علي قصة هذا الدرس ، فقال : « لم أكنُ بعد قد بلغت العشرين من عمري ولكنني كنت شديد القلق حتى في تلك الفترة المبكرة من حياتي ؛ فقد اعتدت أن أستعيد أخطائي ، وأهتمُّ بها اهتماماً بالغاً ، وكنت إذا فرغت من أداء امتحان ، وقدمت أوراق الإجابة أعود إلى فراشي ، فأستلقي عليه ، ثم أعض أصابعي وأنا في أشد حالات القلق ؛ خشية الرسوب .

لقد كنت أعيش في الماضي وفيما صنعته فيه ، وأود لو أنني صنعت غير الذي كان ، وأفكر فيما قلته من زمن مضى ، وأود لو أنني قلت غير الذي قلت ، وهكذا . حتى كنت ذات صباح ، وقد ضممني وزملائي الطلبة الفصل ، وبعد قليل دخل المدرس (مستر براندوين) ومعه زجاجة مملوءة باللبن وضعها أمامه على المكتب ، وتعلقت أبصارنا جميعاً بزجاجة اللبن ، وراحت خواطرننا تتساءل : ما دخل زجاجة اللبن في دروس الصحة التي يلقتها لنا (مستر براندوين)؟

وفجأة نهض (مستر براندوين) وأطاح بزجاجة اللبن بظهر يده؛ فوقعت على الأرض وكُسرت ، وأريق ما فيها من اللبن ، وصاح (مستر براندوين) : (لا يَبْكِ أحدكم على ما فات).

ثم نادانا الأستاذ واحداً فواحداً؛ لتأمل حُطام الزجاجةِ واللبنِ المُرَاقِ على الأرض ، وجعل يقول لكل واحد منا : (انظر جيداً.. إنني أريد أن تذكُر هذا الدرس مدى حياتك؛ لقد ذهب هذا اللبن ، واستوعبته بالوعة؛ فمهما تشد شعرك ، وتسمح للهم والكدر أن يمسكا بخناقك - فلن تستطيع أن تستعيد قطرة واحدة منه ، لقد كان يمكن بشيء من الحيلة والحذر أن تتلافى إراقة اللبن .

ولكن لقد فات الوقت الآن ، وكل ما تستطيعه أن تمحو أثره ، وتنساه ، ثم تعود إلى عملك بهمة ونشاط»^(١) .

(١) دع القلق ص ١٢٧-١٢٨ .

= ثم ذكر كارنيجي أن سوندرز استطرد في الكلام، وعلق على ذلك الموقف بقوله: «ولقد بقيت على هذه التجربة الصغيرة عالقاً بذهني بعد أن تلاشت منه معلومات الحساب والهندسة واللاتينية.

بل الحق أنها أفادتني في حياتي العملية أكثر مما أفادني أي شيء آخر مما تعلمته خلال السنوات الأربع التي قضيتها في الكلية؛ لقد علمتني أن أحول دون إراقة اللبن إذا استطعت، وأن أنسى أنه أريق إذا لم أستطع الحيلولة دون إراقتي»^(١).

ثم يعلق كارنيجي على هذا الكلام بقوله: «وكأنني ببعض القراء يهزون أكتافهم؛ استخفافاً حين يرون كيف بالغ الأستاذ في تجسيم مثل سائر معروف (لا تبك على ما فات)»^(٢).

ثم يعقب كارنيجي على هذا الكلام بأن الأمثلة السائرة تتضمن جواهر الحكمة، وأنا لو أخذنا بها لما احتجنا إلى من يعلمنا كيف نتقي القلق؛ وأنا لو طبقنا معظم الأمثال القديمة لعشنا عيشة مثالية لا ينقصها شيء^(٣).

فإذا كان هذا الكلام يقال في أمثال البشر، التي هي وليد تجربة وحكمة بشرية يعتربها ما يعتربها من النقص، والقصور، والخطأ فكيف بحكمة أحكم الحاكمين التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

(١) دع القلق ص ١٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣) انظر دع القلق ص ١٢٨-١٣١.

وكذلك^(١) يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله مما يتوهمه من فقر، أو خوف، أو غيرهما من المكارِه التي يتخيلها في مستقبل حياته^(٢).

(١) قوله: «وكذلك»: عطف على الكلام السابق من اشتغال الفكر بالأمر الماضي التي تكدر على الإنسان، والتي ينبغي عليه أن يتجنبها؛ ليعيش سعيداً.

(٢) قوله: «يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله...» إلى قوله: «مستقبل حياته»: أي كما يجاهد نفسه عن اشتغال الفكر بالماضي المؤلم - يجاهد نفسه - كذلك - على ترك القلق لما يستقبله من أيامه، وذلك بسبب ما يتوهمه من حصول الفقر؛ بحيث يخشى الفاقة؛ فيرتبُّ على ذلك تنغصَّ عيشه، وسوء حاله، وتشتت أولاده؛ فيكونون عالة على غيرهم، ونحو ذلك مما ينشأ عن توهم الفقر، وما يجلبه من الشقاء - بزعمه -.

أو ما يتوهمه من الخوف بأنواعه المختلفة التي مر ذكر لها، وبيان لما يحدثه الخوف من القلق واليأس.

أو يتوهم غير ذلك من المكارِه كَتَوَقُّع المرض، أو الحروب، أو الموت، أو حدوث الأزمات، أو تسلط الناس عليه إلى غير ذلك من الأوهام التي تنسجها الأذهان المبلبلية، والخواطر السيئة التي تهجم على الإنسان هجوماً النفس؛ فيستسلم لها؛ فتغص عليه حياته، وتنهك أعصابه؛ إذ بعض الناس قابل لذلك الإيحاء؛ فبينما هو ينعم في مجبوحة من العيش من جهة وفرة المال، وتمام الصحة، واستتباب الأمن، وسعة المسكن، وملائمة الزوجة، وصالح الأولاد، وغير ذلك من النعم الكثيرة التي لا تقدر بثمن - فإنك لا تراه يقنع بها، أو يتذكرها؛ لينبث إلى مزيد شكرها.

= وإنما تجده يبحث ، ويُنقَّب عن منغصات لا وجود لها ، أو تكون موجودة ، لكنها لا تستدعي سوى غض الطرف عنها ، أو تكون نسبة وقوعها ضئيلة ، ولو وقعت لكان التعامل معها سهلاً وميسوراً .
غير أن ذلك المتعجل همَّه يُكبِّر تلك الصغائر ، ويجعلها تقلبُ سعادته إلى شقاء .

فما الداعي للبحث عن المآسي واجترار الآلام ، ولماذا لا يتذكر الإنسان نعمه ، ويحاول الاستمتاع بكل لحظة من حياته؟ ولماذا لا يحسن الظن بربه ، وينام خالي البال تاركاً المقادير تجري في أعنتها؟ .

فيعلم أن الأمور المستقبلية مجهولٌ ما يقع فيها من خير وشر وآمال وآلام، وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلا السعي في تحصيل خيراتها، ودفع مضراتها، ويعلم العبد أنه إذا صرّف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره، واتكل على ربه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك اطمأن قلبه، وصلحت أحواله، وزال عنه همه وقلقه^(١).

(١) يوضح الشيخ في هذا المقطع ما أجمله آنفاً من التفكير بالمستقبل المخوف، وكونه سبباً للقلق والشقاء، والأحزان؛ فيبين ههنا أن علم المستقبل عند الله العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى، وأنها بيده وحده دون من سواه: ما قضى الله كائن لا محالة والشقي الجهول من لام حاله فالخير، والشر، والآلام، والآمال أمرها عند الله، وليس للعباد سوى الأخذ الأسباب، والسعي في تحصيل الخير، ودفع الشر، والتوكل على من بيده ملكوت كل شيء؛ فإذا اعتمد العبد على ربه، وفوض الأمر إليه، وأخذ بالأسباب المشروعة والمباحة - حصلت له الطمأنينة، وغشيتة السكينة، وزالت عنه الهموم، وانجابت عنه الغموم؛ وحارب كل سبب يقوده إلى اليأس؛ إذ ليس بعبس الوجه والنفس كاليأس؛ فاعتقاديك أن لا مستقبل لك، ولا أمل في حياتك، ولا خير ينتظرك - سم قاتل، وسجن مظلم، يصد النفس ويقمعها، ولا يزال بالإنسان حتى يهلكه.

وعلى العكس من ذلك فإن توقع الإنسان الخير، وأمله في الحياة - يحمله على أن يوسع معارفه في الحياة، وعلى الجد فيما اختاره من صنوف العيش، وعلى استعمال ما وهبه الله خير استعمال.

= فإذا أردت السرور فحارب اليأس ، واقطع أسبابه ، وعود نفسك الأمل ،
وتوقع الخير في المستقبل.

ومن أعظم ما يعين على ذلك طردُ الهمِّ ، ومحاربةُ الكآبةِ؛ ذلك أن الاستسلام
للحزن ، والإغراقَ في التشاؤم ، والاسترسالَ مع الهم ، والخوف من توقع
المكروه ، والإفراطَ في تقدير الآلام - مما يضعف الحياة ، ويقلل الإنتاج ، ويزيد
الآلام ، ويضاعف البؤسَ والشقاء؛ فحارب الكآبة من نفسك ، وادراً الهم
ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وابتسم للحياة ، وابتهج بها من غير إسراف - تزدد
حياتك قوة ، وتشعر بالسرور والسعادة.

قال الإمام الشافعي رحمته الله :

سهرت أعين ونامت عيونُ	في أمور تكون أو لا تكون
فادراً الهم ما استطعت عن النفس	س فحملاتك الهم جنونُ
إن ربك كفأك بالأمس ما كا	ن سيكفيك في غد ما يكون

ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور^(١) استعمالُ هذا الدعاء^(٢) الذي كان النبي ﷺ يدعو به: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر». وكذلك قوله: «اللهم رَحِمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

فإذا لهج العبدُ بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك -حقق الله له ما دعاه، ورجاه، وعمل له، وانقلب همه فرحاً وسروراً^(٣).

(١) قوله: «ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور»: يعني بذلك ما مضى من الكلام السابق من حسن التعامل مع المستقبل. وهذا شروع في بيان السبب التاسع، ألا وهو الأخذ بالدعاء.

(٢) قوله: «استعمال هذا الدعاء»: يعني الأخذ بما أرشد إليه النبي ﷺ من الأدعية التي تناسب هذا الباب؛ فيكفَى بسببها الإنسان همَّ المستقبل.

(٣) قوله: «الذي كان النبي ﷺ يدعو به...» إلى قوله: «فرحاً وسروراً»: أرشد ﷺ إلى الأخذ بهذه الأدعية التي وردت في الحديثين المذكورين. وهي أدعية عظيمة جامعة تعين الإنسان على صلاح دينه، ودنياه، ومعاشه، ومعاده.

فالحديث الأول الذي رواه مسلم (٢٧٢٠) اشتمل على أدعية عظيمة؛ فبدأ أولاً بالدعاء بصلاح الدين؛ لأنه أعظم المقاصد، وأهم المطالب؛ لأن من صلح دينه أفلح وأنجح، ومن فسد دينه خاب وخسر.

== والمقصود بسؤال الإنسان الله صلاح الدين أن يوفقه للدين الحق وهو الإسلام، وأن يهدى إلى التمسك بالكتاب والسنة.

قال بعض السلف: «أنت تحتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج؛ فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مرَّ على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً»^(١).

ثم ثنى بسؤال الله صلاح الدنيا، وذلك بأن يرزق الإنسان الكفاف، والحلال، وما يتبع ذلك من صلاح الأهل والذرية، والمسكن الهنيء، والحياة الآمنة.

ثم ثلث بسؤال الله صلاح الآخرة، ويكون ذلك بملازمة الطاعة والثبات على الدين الحق والهداية لحسن الخاتمة والفوز بالجنان، والنجاة من النيران.

وقوله: «**واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير**»: سؤال بأن تكون الحياة معمورة بالعمل الصالح الذي يرضي الله -عز وجل-.

وقوله: «**واجعل الموت راحةً لي من كل شر**»: دعاء بأن يكون الموت راحة من جميع هموم الدنيا والفتن، والمحن، والبلايا، والكوارث، وسائر المخاوف والمكاره.

وقوله في الحديث الآخر: «**اللهم رحمتك أرجو...**» هذا حديث رواه أبو داود (٥٠٩٠) وهو ما يعرف بدعاء المضطر، أو دعاء المكروب؛ حيث جاء في أوله قول النبي ﷺ: «**دعوات المكروب...**».

والمكروب: هو الذي نزل به الهم، والحزن، والغم.

والحديث يتضمن الطمع برحمة الله، وألا يُترك الداعي وحيداً بلا عون ولا رعاية من الله ولو مقدار لحظة واحدة؛ فإن العبد إذا زال عنه اللطف الإلهي، ووكل إلى نفسه صار إلى ضيعة، وخسارة، وهلكة.

==

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد ص ٢٢٨.

ثم عقب الشيخ رحمته الله بعد إيراد هذين الحديثين بأن الدعاء بما ورد فيهما سببٌ عظيمٌ لصلاح مستقبل الإنسان الديني والديني خصوصاً إذا دعا بحضور قلب، وصدق توجُّه، واجتهاد في تحقيق ذلك من الأسباب التي تعين على إجابة الدعاء من الإلحاح، وطيب المطعم، وقوة الرجاء، وحسن الظن، ونحو ذلك من أسباب إجابة الدعاء، وآدابه، وشروطه.

وإذا كانت هذه حاله انقلبت مخاوفه أمناً، وهمومه وغمومه فرحاً وسروراً. بل إن الدعاء نفسه من أعظم أسباب السعادة وانسراح الصدر، وإزاحة الهموم، والغموم، وحصول الخيرات والبركات؛ فهو عبادة بجد ذاته، وهو أكرم شيء على الله، وسبب لدفع غضبه - جل شأنه -.

وهو سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفع بعد نزوله.

وهو مفزع المظلومين، وملجأ المستضعفين.

ثم إن ثمرته مضمونه - بإذن الله - قال - عليه الصلاة والسلام - : « ما من مؤمن يَنْصِبُ وجهه لله يسأله مسألةً إلا أعطاه الله إياها؛ إما عَجَّلَهَا له في الدنيا، وإما ذخرها له في الآخرة، لم يعجل ».

قالوا: يا رسول الله! وما عَجَّلَتْهُ؟

قال: « يقول دعوت، ودعوت، ولا أراه يستجاب لي »^(١).

والدعاء يفتح للداعي باب المناجاة، ولذا نذرها؛ قال بعض العباد: « إنه لتكون لي حاجةٌ إلى الله؛ فأسأله إياها؛ فَيَفْتَحَ علي من مناجاته، ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه - ما أحب معه أن يُؤخَّرَ عني قضاؤها، وتدوم لي تلك الحال »^(٢).

(١) أخرجه أحمد ٤٤٨/٢، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب

المفرد (٥٤٨).

(٢) مدارج السالكين ١٦٦/٢.

= ولقد أحسن من قال :

وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عليّ فما ينفكُّ أن يتفرجاً
 وربّ فتىّ ضاقت عليه وجوهه أصاب له في دعوة الله مخرجاً
 وكلما اشتدت حاجة الإنسان إلى ربه ، وعظمت ضرورته إليه ، واشتد تحريه
 لإجابة دعائه - جاءه الفرج ، وأقبل عليه اليسر؛ فانتظار الفرج من أجلّ
 العبوديات وأعظمها :

ما ضاق بالمرء أمرٌ فاستعدّ له عبادة الله إلا جاءه الفرجُ
 ولا أنـاخ بـباب الله ذو ألم إلا ترحزح عنه الهم والحرجُ
قال ابن القيم رحمه الله : « انتظار رَوْح الفرج : يعني راحته ، ونسيمه ، ولذته؛ فإن
 انتظاره ، ومطالعتّه ، وترقبه يخفف حِمْل المشقة لا سيما عند قوة الرجاء ، أو القطع
 بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من رَوْح الفرج ، ونسيمه ، وراحته ما هو من
 خفي الألفاف ، وما هو فرج معجل »^(١).

وبالجملّة فإن الدعاء من أعظم الأسلحة لطرد الهم ، وجلب السعادة؛ فمن أراد
 السعادة الحقّة ، والسلامة من الهم وتوابعه فليلازم الدعاء في شتى أحواله.
 يقال هذا؛ لأن من الناس من تتنابه الهموم ، والغموم ، فلا يفرغ إلى الدعاء ،
 ومن الناس من لا يلجأ إلى الله ، ولا يتضرع إليه إلا إذا نزلت بهم عظام الأمور
 وشدائدها من نحو المصائب الكبيرة كفقد الأحبة ، وخسارة الأموال الطائلة ، أو نزول
 الأمراض المستعصية ، وما جرى مجرى هذه الأمور.

(١) مدارج السالكين ١٦٦/٢ .

= أما ما عدا ذلك فلا يخطر ببالهم الدعاء، والتضرعُ إلى الله؛ لظنهم أنها أمور يسيرة لا تستدعي الانقطاع إلى الله.
ولا ريب أن ذلك خطأ يجدر بالمسلم تجنبه؛ إذ اللائق به أن يعلّق رجاءه بربه، وأن يسأله كل صغيرة وكبيرة من أمره؛ فتكدر الوالدين على الولد، وسوء خلق الزوجة، ونفور الأولاد، وجفاء الأصحاب، وتكاسل مَنْ يعمل تحت يد الإنسان، وتَعكُّسُ بعض الأمور عليه، ونحو ذلك مما شاكله وجرى مجراه - كل ذلك من البلاء الذي يحتاج إلى دعاء وإنابة.

ويرشد إلى ذلك قول النبي ﷺ: «سلوا الله كل شيء حتى الشسع؛ فإن الله - عز وجل - لو لم ييسره لم يتيسر»^(١).
والشسع: هو أحد سُيُور النعل، وهو الذي يُدخِل بين الأصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل.

فقوله ﷺ: «حتى الشسع»: إشارة إلى أن ما فوقه أولى وأولى، وأن الإنسان لا غنى له عن ربه - جل وعلا -.

والمقصود من ذلك أن على العبد أن يتوجه إلى ربه في جميع حوائجه؛ فالله =

(١) أخرجه الترمذي ٢٩٢٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٥٦)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٣٦٢) ولكن الحديث صحيح موقوفاً من قول عائشة - رضي الله عنها - موقوفاً عليها، انظر مسند أبي يعلى (٤٥٦٠)، وعمل اليوم والليلة (٣٥٧)، قال الهيثمي في الحديث: «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبيد الله وهو ثقة» انظر المجمع ١٥٠/١٠.

= عز وجل- يجب أن يُسألَ، ويُرَغَبَ إليه في الحوائج، ويُلحَّ في سؤاله ودعائه، بل إنه -تبارك وتعالى- يغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه سُؤْلَهُم من غير أن ينقص من ملكه شيء؛ فلا يحسن بالعبد -والحالة هذه- أن يدع الدعاء في دقيق أمره وجليله.

وقد جاء في أثر إسرائيلي أن موسى -عليه السلام- قال: «يا ربُّ إنه لتَعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا؛ فأستحيي أن أسألك إياها يا رب».

فقال الله -تعالى-: «يا موسى: سلني حتى ملحَّ عجيتك، وعلف شاتك»^(١).

وكان بعض السلف -كما يقول ابن رجب- يسأل الله في صلاته كل حوائجه، حتى ملح عجنته، وعلف شاته^(٢).

ولقد أحسن الشيخ المكوذي رحمته الله إذ يقول:

إذا عرضت لي في زماني حاجة وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصدُ
وقفت بسباب الله وقفة ضارِع وقلت إلهي إنني لسك قاصدُ
ولست تراني واقفاً عند باب مَنْ يقول فتاه: سيدي اليوم راقدُ^(٣)

فإذا اعتاد الإنسان دعاء ربه، وسأله كلَّ شأن من شؤونه - كان حرياً بالإجابة، جديراً بالعزة والكرامة.

وذلك مما يعود عليه بالسعادة والسرور.

(١) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ٢/٢٥١، وابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/٣٥.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ٢/٣٩.

(٣) انظر المطالع للغزولي ١/٢٩، وحكم وأخلاق عربية لمحمد المكي بن الحسين ص ١٨١ و ٢٥٩.

فصل

ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم^(١) إذا حصل على العبد شيء من النكبات^(٢) - أن يسعى في تخفيفها^(٣) بأن يُقدِّر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن على ذلك نفسه^(٤).

(١) قوله: «ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم»: هذا شروع في بيان السبب العاشر من أسباب السعادة وطرد الهم ألا وهو حسن التعامل مع وقوع المكاره.

(٢) قوله: «إذا حصل شيء من النكبات»: يعني حال حصول بلية من البلايا، أو رزية من الرزايا من نحو المصائب المؤلمة في النفس، أو الولد، أو المال، أو نحو ذلك من الأمور المزعجة المخوفة التي تلقي بكلكلها على القلوب؛ فتجثم عليها، وتورثها القلق، وتُسودُّ الدنيا بوجه من تقع عليه.

(٣) قوله: «أن يسعى في تخفيفها»: يعني أن يجتهد في تلطيف هذه المصيبة، وتقليل حدتها، وشدة وطأتها.

(٤) قوله: «بأن يقدر أسوأ الاحتمالات...» إلى قوله: «على ذلك نفسه»: يعني أن يستحضر الإنسان أقصى مدى ستصل إليه هذه المصيبة، أو النازلة، أو البلية؛ بحيث يقدر أشد ما سيؤول إليه الأمر بسببها؛ ثم يرتب أموره على وفق ذلك التقدير. وقد أفاد الشيخ ذلك من كارنيجي الذي تطرق لهذا السبب، وعقد له فصلاً في كتابه (دع القلق) وهو الفصل الثاني الذي عنون له بقوله: «وصفة سحرية لتبديد القلق»^(١).

(١) دع القلق ص ٣٧.

= ثم شرع في تفصيل ذلك الفصل^(١).

ومما قاله في ذلك: «فإن من أسوأ مميزات القلق أنه يبدد القدرة على التركيز الذهني؛ فنحن عندما نقلق تشتت أذهاننا، ونفقد كل قدرة على البت أو اتخاذ قرار حاسم.

لكننا عندما نُعدُّ أنفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات، ونعد أنفسنا ذهنيًا لمواجهة - فإننا بذلك نضع أنفسنا في موقف يَسَعُنَا فيه أن نركز أذهاننا في صميم المشكلة»^(٢).

وقال - أيضاً -: «قال الفيلسوف الصيني (لين يرتانج): إن طمأنينة الذهن لا تأتي إلا مع التسليم بأسوأ الفروض؛ ومرجع ذلك من الوجهة السكيولوجية إلى أن هذا التسليم يحرر النشاط من قيوده»^(٣).

ثم يعلق كارنيجي على هذا الكلام بقوله: «هذا هو الواقع بالضبط؛ فإن التسليم بأسوأ الفروض يحرر النشاط من قيوده؛ فمتى سلمنا بأسوأ الفروض لم يبق لنا شيء نخسره، وإن بقي ما نكسبه.

ومع ذلك فإن ملايين من الناس قد حطّموا حياتهم في صورة^(٤) غضب؛ لأنهم رفضوا أن يسلموا بأسوأ الفروض، ورفضوا أن ينقذوا منه ما يمكن إنقاذه، وبدلاً من أن يحاولوا بناء آمالهم من جديد خاضوا معركةً مريرةً مع الماضي، وامتثلوا للقلق الذي لا طائل من ورائه»^(٥).

(١) انظر دع القلق ص ٣٧-٤٤.

(٢) دع القلق ص ٣٩.

(٣) دع القلق ص ٤٠.

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها: (سورة).

(٥) دع القلق ص ٤٠.

= وما مضى من تقدير أسوأ الاحتمالات ، وعمل ما ينبغي حيال ذلك - لا ينافي التفاؤل ، وإنما المقصود ألا يُفِرطَ الإنسان في التفاؤل؛ فلا يتصور إلا حدوث ما أمَّله من الخير؛ ثم إذا أتت الأمور على خلاف ما أراد؛ كانت الصدمة شديدة الوقع على نفسه.

وإنما يتفاءل ، ويؤمل الخير ، وفي الوقت نفسه يتوقع أن تأتي الأمور على خلاف ما أمَّله تماماً؛ فبذلك يجمع ما بين التفاؤل وحسن الظن ، وبين توطين النفس على حصول المكروه ، وتوغل الشر ، وتشعب المصيبة؛ فكأنه بذلك يعطي نفسه مَصْلاً طيباً ، أو ما يعرف بالتطعيمات الوقائية التي تُستخدم للتعامل مع الأمراض الوبائية المعدية؛ فيكون مستعداً لكل وارد يرد إليه من جراء تلك النازلة؛ فلا تأتيه حين تأتيه بغتةً فتبهته ، وتأخذه على غرة ، وتجتاحه جُملة .
وإنما تأتيه وقد أخذ أهبطه ، واستعداده التام لتلقِّيها .

فإذا فعل ذلك^(١) فَلْيَسْعَ إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان^(٢)؛ فبهذا التوطين، وبهذا السعي النافع تزول همومه وغمومه، ويكون بدل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي دفع المضار الميسورة للعبد^(٣).

(١) قوله: «فإذا فعل ذلك»: أي إذا وطن نفسه على احتمال وقوع المكروه المخوف.

(٢) قوله: «فليسع إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان»: يعني إذا وقع المكروه فليقم بما يستطيع القيام به من تلطيفه، وتهوين شأنه، وتقليل ما يترتب عليه من المخاوف، والمخاطر.

يقول ديل كارنيجي في خاتمة الفصل الثاني من كتابه (دع القلق): «إذا كانت لديك مشكلة تبعث على القلق فطبّق وصفة (ويليس كاربير) السحرية متخذاً هذه الخطوات الثلاث:

١- اسأل نفسك: ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي؟

٢- هيئ نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات.

٣- ثم اشرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه»^(١).

(٣) قوله: «فبهذا التوطين...» إلى قوله: «الميسورة للعبد»: يعني أن هذا التوطين من أعظم ما يفيد في هذا الباب؛ بحيث يفرض وقوع المكروه، ثم يسعى لتلطيفه، ويوطن نفسه على احتمالها؛ ثم يشرع في إنقاذ ما يمكنه إنقاذه.

قال ابن حزم رحمته الله: «وطن نفسك على ما تكره يقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته»^(٢).

(١) دع القلق ص ٤٤.

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٦.

= وهذا التوطين يفيد الإنسان بكل حال سواء كان الأمر المخوف واقعاً متمدداً، أو كان واقعاً ويتوقع أن يتمدد، ويتضاعف ضرره. فلو تصور -مثلاً- أنه خطب ولم يُجِدْ، وانتقده السامعون، ثم صغر النتيجة وهونها، وقال في نفسه: كل خطيب معرض لمثل ذلك - لتشجع، ولم يجبن. بل ربما أصبح فيما بعد خطيباً مصقفاً، لا تقيده حبسة، ولا يثنيه جماح. وكذا لو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية، فقدر الموت، واستصغره - لقبال الأمر بثبات وهكذا.

وكذلك لو دخل في تجارة وتوقع أرباحاً مضاعفة، ووطن نفسه - كذلك - على الخسارة الفادحة، واستعد لذلك كله - كان أسلم له، وأحمد عاقبة.

فإذا سلم من الموت، وربح في بيعه تعاضم سروره، وإذا خسر كان مستعداً لتلقي تلك الخسارة؛ فيكون وقعها عليه غير شديد.

وهذا ما سيبينه المؤلف في الفقرة التالية.

فإذا حَلَّتْ به أسبابُ الخوفِ، وأسبابُ الأسقامِ، وأسبابُ الفقرِ والعدمِ لما يحبه من المحبوباتِ المتنوعة - فليَتَلَقَّ ذلكَ بطمأنينةٍ، وتوطينٍ للنفسِ عليها، بل على أشدِّ ما يمكنُ منها؛ فإن توطينَ النفسِ على احتمالِ المكارهِ يهونُها، ويزيلُ شدَّتَها، وخصوصاً إذا أشغلَ نفسه بمدافعتها بحسبِ مقدوره؛ فيجتمع في حقه توطينُ النفسِ مع السعيِ النافعِ الذي يشغلُ عن الاهتمامِ بالمصائبِ، ويجاهدُ نفسه على تجديدِ قُوَّتِهِ المُقاوِمَةِ للمكارهِ^(١)، مع اعتماده في ذلكَ على الله، وحسنِ الثقةِ به.

ولا ريبُ أن لهذه الأمورِ فائدتها العظمى في حصولِ السرورِ، وانسراحِ الصدورِ، مع ما يؤمله العبدُ من الثوابِ العاجلِ والآجلِ، وهذا مشاهدٌ مجربٌ، ووقائعه ممن جربه كثيرةٌ جداً^(٢).

(١) في ط ١ و ٢، وفي بعض النسخ المتأخرة (قوة المقاومة).

(٢) هذا مزيدٌ شرح وبيان من المؤلف لما أجمله آنفاً.

ويعني بذلك أن المصائبِ، والنوازلِ إذا حلتْ بالإنسانِ واقعاً، لا توقعاً، ولا افتراضاً؛ بحيث نزلتْ به أسبابُ الخوفِ، وترحلتْ عنه أسبابُ السعادةِ - فليستقبل ذلكَ بطمأنينةٍ نفسٍ، وهدوءٍ بالٍ، وحسنِ تبصُّرٍ؛ فذلكَ من أعظمِ ما يعين على تلقي تلكِ المكارهِ.

وإذا صحب ذلكَ أخذُ بالأسبابِ التي تعين على تخفيفِ تلكِ المكارهِ، وتداركِ ما يمكن تداركه من نحو التماسكِ، وتركِ الاستسلامِ للمصيبةِ، والاشتغالِ بما ينفعُ حيالِ هذا الأمرِ النازلِ - كان ذلكَ من أعظمِ ما يطردُ شبحَ اليأسِ والقلقِ، ويُجِلُّ محلَّه السكينةَ، والطمأنينةَ.

ويعظمُ الأخذُ بتلكِ الأسبابِ إذا اقترنَ بالتوكلِ على الله، والثقةِ بكفايته، وتسليمِ الأمورِ إليه فيما لا يُقدَّرُ عليه؛ فذلكَ من أعظمِ ما يحسمُ مادةَ القلقِ، والخوفِ.

=

== قال ابن القيم رحمه الله: «الذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فمن سلم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب له - لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضعٌ؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب، وأن ما كتب لها - أيضاً - لا بد أن يصيبها؛ فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التسليم - أيضاً - فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه؛ حيث لا تنالها يدُ عدوٍّ عادٍ، ولا بغيةٌ باغٍ عاتٍ»^(١).

وإذا صحب ذلك كله احتسابٌ للأجر، وترقبٌ للخُلف العاجل والآجل من الله - عز وجل - كان ذلك نوراً على نور.

وهذا التوطين جاء في مثل قول الله - تعالى -: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ سورة البقرة.

فالله - عز وجل - يبين لنا أننا في دار الدنيا، وهي دار عمل وابتلاء، وليست دار حساب، وثواب، وجزاء.

والوقائع، والمشاهدات، والتجارب تشهد بأن من لزم هذا التوطين، وأحسن استقبال ما يرد عليه من نوائب الدهر - كان حرياً بالسعادة، والنجاة من القلق، ومحركاته.

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣٢/٢ .

= ومن لم يكن كذلك فهو الشقيُّ الجهولُ الذي يتعجل همَّه، ويضاعف قلقه، ومصائبه.

وهذا ما يحصل عند من لا يفقهون هذا المعنى العظيم؛ فإذا وقعت مصيبة على أحد من أهل بيت من البيوت - قلبت البيت جحيماً مُلهباً؛ فإذا مرض شخص من أهل ذلك البيت مرضاً عضالاً، أو أصيب أحد من أفرادِه بمصيبة - صاروا جميعاً مرضى، أو فاقدى التوازن.

ولا ريب أن مشاركة الأهل والأقارب في الأفراح والأتراح مطلب شرعي واجتماعي، كما أن برود الإحساس، وفقر المشاعر تجاه الآخرين داء وييل، يَنمُّ عن أثرِ قبيحة.

ولكن ذلك لا يعني أن يُحمَّلَ الإنسانُ الأمورَ فوق ما تحتمل؛ فيبالغ في الأسى، والحسرة، والحزن، والحُرقة؛ فيخرج بذلك عن طوره؛ فبدلاً من أن تكون المصيبة واحدة تكون أضعافاً مضاعفة.

فالذي تقتضيه الحكمة أن يشارك المرء إخوانه دون أن يُفْرِطَ في تضخيم الأمور، ودون أن يَعْزُبَ عنه رأيه.

والحاصل أن توطين النفس على وقوع المكروه، وحسن التعامل معه إذا نزل - فِقْهٌ عظيمٌ يعود على من يأخذ به بالسعادة، وتخفيف الآلام، والمصائب؛ فقد جرت العادة أن أسباب الخوف، وتداعيات القلق إذا اجتمعت، واستحكمت حلقاتها آذنت بالفرج كما مر عند الكلام على تعامل مريم -عليها السلام- مع الهم.

فصل

ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضاً للأمراض البدنية - قوة القلب، وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة^(١)؛ لأن الإنسان متى استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب، والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحاب - أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة^(٢).

(١) قوله: «ومن أعظم العلاجات...» إلى قوله: «الأفكار السيئة»: هذا شروع في السبب الحادي عشر من أسباب دفع القلق، وجلب السعادة، ألا وهو قوة القلب، وعدم انزعاجه، وذلك بترك الاسترسال وراء الأوهام والخيالات الفاسدة التي تنتج عن الأفكار السيئة اليائسة القانطة المستجيبة لكل خاطر مزعج مقلق.

وقوة القلب صفة جبلية فطرية، وتكتسب - كذلك - بالتمرين، والممارسة، وهي من أعظم ما تُتلقى بها المكاره.

(٢) قوله: «لأن الإنسان متى استسلم» إلى قوله: «مضارها الكثيرة»: يعني بذلك أن الركون إلى تلك الخواطر السيئة، والانقياد لمحركاتها وبواعثها، كالسير وراء سورات الغضب، وتوقع المكروه، وتخري سلب النعم - من أعظم ما يوقع في برائن القلق، وما يستتبع ذلك من الأمراض الحسية والمعنوية؛ ذلك أن من أكبر أسباب الشقاء رخاوة النفس، وانزعاجها العظيم لما ينزل بها؛ فما إن يصاب =

= بعض الناس بأمر من الأمور حتى تراه حرج الصدر، لهيف القلب، كاسف الوجه، ناكس البصر، تتناجى الهموم في صدره، فتقضى مضجعه، وتؤرق جفنه، وهي وأكثر منها لو حدثت لمن هو أقوى منه احتمالاً لم يلق لها بالاً، ولم تحرك منه نفساً، ونام ملء جفونه رضيّ البال، قرير العين.

ولهذا ترى بعض الناس حال حلول مصيبة من المصائب يفقد توازنه، ويخرج عن طوره، وربما سقط مغشياً عليه، وربما مات من فوره، وربما فقد عقله، وربما لجأ إلى المخدرات، أو الانتحار؛ هرباً مما نزل به.

ولو أنه تماسك، وتصبر، واسترجع، واستدعى السكينة، وتدبّر العواقب - لثاب إليه رشده، وحسنُ تدبيره، واستقبل تلك المصائب بما يمليه عليه داعي الإيمان والعقل.

والواقع المشهود يُصدّق ما ذكر آنفاً؛ إذ ترى من لا يؤمن بالله وقدره، ومن لا يأخذ بأسباب النجاة وحسن التعامل مع المصائب - يجزع لأتفه الأسباب، فيتغص عيشه، وتسوء حاله.

وسياتي شواهد على ذلك في فقرة قادمة.

والكلام في هذه الفقرة - وهو الحث على قوة القلب، وعدم انزعاجه، وترك الاستسلام للأوهام والخيالات - لا ينافي ما مضى في الفقرة السابقة من توطين النفس على وقوع المكروه، وتقدير أسوأ الاحتمالات، وتخفيف ما يمكن تخفيفه ونحو ذلك مما مر؛ فذلك من الحزم، وحسن التدبير.

وأما الاسترسال مع الخيال الفاسد، والخوف من أمورٍ نسبةً وقوعها ضئيلة جداً
= فذلك ضعف وخور.

= قال ضابئ بن الحارث :

ورب أمور لا تضـمـيرك ضـمـيرةً وللقـلب من مـخـشـاتـهن وجـيب

وقال البـحـثـري :

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه وأبرح مما حل ما يتوقع

بل إن الخوف من الشر في أحيان كثيرة أشد من وقوع الشر نفسه.

ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا مَلَكَتْهُ الخيالات السيئة، ووثق بالله، وطمع في فضله - اندفعت عنه - بذلك - الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة، والانشراح، والسرور ما لا يمكن التعبير عنه^(١).

(١) في هذه الفقرة مزيد إيضاح من المؤلف لما مر آنفاً من الحث على قوة القلب، وترك الانزعاج والاسترسال مع الأوهام، والخيالات الفاسدة. ويرشد ههنا إلى أعظم ما يعين على ذلك، ألا وهو التوكل على من بيده ملكوت كل شيء؛ فمن توكل على الله، ووثق بكفايته، ورغب في فضله، وانتظر لطفه، واستشعر معيته، وقربه - أقبلت عليه الخيرات، واندفعت عنه الشرور والآفات؛ وصار في كنف الله، وحرزه وعطفه ولطفه - كما مر في فقرة سابقة.. وكما عظم توكله على الله، والتفويض له في سائر الأمر - عَظُمَ سروره، وتهيأ له من القوة، واتساع النفس، وانشراح الصدر ما لا يمكن وصفه. والناس في ذلك مراتب، ودرجات بحسب إيمانهم، ويقينهم، وأخذهم بأسباب النجاة.

فكم مُلئت المستشفياتُ من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثرت هذه الأمور على قلوب كثيرين من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلى الحمق والجنون^(١).

(١) يشير بذلك إلى أن آثار الاسترسال مع الأوهام، والخيالات الفاسدة كثيرة، وتنال نيلها من صحة الناس، وعقولهم. والواقع يشهد بذلك؛ فالمستشفيات والمصحات النفسية مملأى بأمثال أولئك ممن يعانون من تلك الأمراض الناتجة عن الخور، والضعف، والاستسلام. وهذه الآثار المدمرة تفرى فريهاً في قلوب كثيرين سواء كانوا أغنياء، أو فقراء، أو متعلمين، أو عامة، أو ضعفاء، أو أقوياء؛ فكم أدت بهم تلك الآثار إلى فقدان السيطرة على أنفسهم، بل ربما أدى الجزع والخور بكثير منهم إلى الجنون، والوسوسة، وتعاطي المخدرات، وقتل النفس. ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقضاء والقدر، كأمریکا والسويد، والنرويج، وسويسرا، وألمانيا. وتؤكد منظمة الصحة العالمية أن هناك شخصاً واحداً على الأقل ينتحر كل أربعين ثانية في العالم. ويعد الانتحارُ السببَ الثامنَ للوفاة لدى عامة الناس، والسببَ الثالثَ للوفاة لدى الشباب الأمريكيين من سن ١٥-٢٤. وترجع أسباب الانتحار إلى عوامل عدة كالعوامل الاجتماعية، والنفسية، وأكثرها فقدان الأمل، والحزن على فقدان عزيز، والرغبة في الانتقام من المجتمع، والشعور بالدونية.

= وهناك عوامل بيولوجية وراثية؛ فقد أكدت بعض الدراسات وجود خلل في مادة السيروتونين ، ومادة النورأدرينالين في الدماغ لدى بعض المنتحرين ، وهناك أمراض نفسية وباطنية قد تسبب في الانتحار خصوصاً مرض الاكتئاب^(١) . ولهذا يقدم بعضهم على الانتحار لأسباب قد تكون تافهةً جداً ، لا تستدعي سوى التغافل و غرض البصر عنها؛ فبعضهم ينتحر؛ لتخلي خطيئته عنه ، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان ، وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه ، أو الشخص الذي يعجبه ، أو بسبب هزيمة الفريق الذي يميل إليه وهكذا ... وقد يكون الانتحار جماعياً ، والعجيب في الأمر أن غالبية المنتحرين ليسوا من طبقة الفقراء حتى يقال : انتحروا؛ لضيق معيشتهم . بل قد يكونون من الطبقة الغنية المغرقة في النعيم ، بل ويقع الانتحار من المشاهير^(٢) .

(١) انظر تفصيل ذلك في مقال للأستاذ الدكتور فهد العصيمي -حفظه الله-.

(٢) انظر لماذا انتحر هؤلاء لهاني الخبير ص ٤٢ ، وأفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الجرائم لمصطفى غزال ص ٥٠-٥٥ ، و ١٠٦-١٠٧ ، و ١٠٩-١١١ .

والمعافى من عافاه الله، ووقفه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قال -تعالى-: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ : أي كافيهِ جميع ما يهمله من أمر دينه ودنياه؛ فالمتوكل على الله قويُّ القلب لا تؤثر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث؛ لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك- أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة؛ فيثق بالله، ويطمئن لوعده؛ فيزول همه وقلقه، ويتبدل عسره يسراً، وترحه فرحاً، وخوفه أمناً؛ فنسأله -تعالى- العافية وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته، وبالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير، ودفع كل مكروه وضير^(١).

(١) قوله: «والمعافى...» إلى قوله: «مكروه وضير»: بيان لعظم شأن العافية من القلق، وأن المنعم عليهم حقاً من سلمه من ذلك، ووقفه للأخذ بأسباب النجاة من ذلك الداء الويليل.

ثم أوضح أن العافية تُنال من الله، وأن الأخذ بالأسباب المقرونة بالتوكل أمان -ياذن الله- من كل قلق، وجنةٌ تُتلقى بها كلُّ مصائب الحياة على اختلاف تنوعها، وأسبابها؛ فمن يتوكل على الله فهو كافيهِ، وحافظه؛ فالمتوكل في حرز مكين، وأمان من المخاوف.

فصل^(١)

وفي قول النبي ﷺ: « لا يَضْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خَلْقًا رَضِيَ مِنْهَا خَلْقًا آخَرَ » فائدتان عظيمتان^(٢):

(١) قوله: « فصل » : هذا شروع في بيان السبب الثاني عشر من أسباب السعادة، ألا وهو حسن التعامل مع نقائص البشر، وتوطين النفس على تحمل عيوبهم؛ ذلك أن الناس -عموماً- محبوبون على النقص؛ إذ الكمال عزيز؛ فأبي الرجال المهذب؛ ومن ذا الذي ترضى جميع سجايهاه. فإذا استحضر الإنسان هذا المعنى، وأدرك أن الناس يختلفون طبعاً، وذوقاً، وتربية، وتعليماً، ثم عامل الناس على هذا المقتضى - أراح نفسه، وأراح غيره ممن يتعامل معهم.

(٢) قوله: « وفي قول النبي ﷺ... » إلى قوله: « فائدتان عظيمتان » : استشهاد على تقرير القاعدة السابقة التي تعد من قواعد السعادة، وأهم مقوماتها، ألا وهي حسن التعامل مع النقائص البشرية.

وساق هذا الحديث العظيم الذي رواه مسلم في صحيحه (١٤٦٩)، والذي يؤصل لتلك القاعدة.

ومعنى: « لا يفرک » : أي لا يكره، ولا يمل، ولا يبغض.

والمراد من هذا الحديث توطين الزوج على حسن المعاشرة لزوجته؛ بحيث يقبلها بما فيها؛ لأن طول المعاشرة، وقرب كل واحد من المعاشرين إلى معاشره - يفضي إلى معرفة كل طرف بصاحبه معرفة دقيقة؛ فيرى كل طرف صاحبه حال غضبه ورضاه، وحال صحته ومرضه، وحال قوته وضعفه، وحال صعوده وهبوطه، وهكذا...

= وذلك قد يورث كراهيةً ، أو ملالةً ، أو بغضاء ، أو سوءَ عشرة عند بعض الناس .

فإذا وطن الزوج -رجلاً كان أو امرأة- نفسه على هذا المعنى لم يعد للفرك مكان؛ إذ الفرك من الشيطان ، والإلف من الرحمن -كما يقول ابن مسعود رضي الله عنه- .
وبذلك تتصافى الأسر ، وتتعايش بالمعروف ، والمدارة ، والتذمم ، وقبول كل طرف بالطرف الآخر؛ ففرقٌ بين من تصاحبه باستمرار ، ومن لا تلقاه إلا لماماً .
ولهذا قال النبي ﷺ : « إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر » : يعني قد يكون فيها عيباً خلقياً ، ولكن فيها محاسن أخرى تغطي ذلك العيب .
وقد يكون فيها عيباً خلقياً ، ولكن يوجد فيها مناقب ، ومكارم تغمر ذلك العيب ، وهكذا...

فلو زهد كل زوج بزوجه لمجرد أدنى عيب لما بقي بيت من البيوت ملتئماً متماسكاً .

والحديث خاص بالزوج مع زوجته؛ لكون تلك المعاشرة ، والمعاملة أقوى الروابط ، وأشدّها اتصالاً .

والشيخ رحمته الله يعمم هذا المعنى؛ فلا يقصره على الحياة الزوجية ، وإنما يرى أنه صالح لكل المتعاشرين ، والمتعاملين .

ولهذا ذكر أن في الحديث **فائدتين عظيمتين** ، وشرع في ذكرهما على نحو ما سيأتي .

وهما -بلا ريب- عظيمتان ، بل هما منهج حياة يُرْتَسَم ، ويفضي إلى السعادة ، وحسن الرعاية ، والعشرة .

إحداهما^(١) : الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال^(٢)، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب، أو نقص، أو أمر تكرهه^(٣)؛ فإذا وجدت ذلك^(٤) فـقارن بين هذا^(٥) وبين ما يجب عليك، أو ينبغي لك^(٦) من قوة الاتصال، والإبقاء على المحبة^(٧) بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة^(٨).

(١) قوله : «إحداهما» : يعني الفائدة الأولى من الحديث السابق.

(٢) قوله : «الإرشاد...» إلى قوله : «أو اتصال» : يشير بذلك إلى عموم تلك القاعدة في المعاملة ، وأطرافها مع جميع المعاملين ممن تربطك بهم علاقة من زوج، أو والد، أو ولد، أو ذي رحم، أو جار، أو صديق، أو شريك، أو مبايع، أو زميل في دراسة أو عمل، أو رئيس، أو مرؤوس، أو موافق، أو مخالف، أو أي أحد كائناً من كان ممن تربطك به أية رابطة؛ فالمعنى عامٌ شامل، وليس مقتصراً على ما ذكر في الحديث، وهي الزوجة.

(٣) قوله : «وأنه ينبغي أن توطن نفسك...» إلى قوله : «أو أمر تكرهه» : يعني أن مقتضى ما تمليه عليك الشريعة، ودواعي العقل والحكمة والمروءة - أن تتقبلَ هذا الأمر، وتدركَ أن تلك طبيعة البشر؛ فهم متفاوتون في أخلاقهم، وما جبلوا عليه.

(٤) قوله : «فإذا وجدت ذلك» : أي إذا رأيت تلك الأمور التي لا تروقك في بعض من تعاشرهم.

(٥) قوله : «فـقارن بين هذا» : أي بين ما تراه من العيوب، والنقائص، وسائر ما تكرهه.

= (٦) قوله: «وبين ما يجب عليك، أو ينبغي لك»: يعني من حسن المعاشرة، وجميل الرعاية، والتذمم، والصبر، والمداراة؛ إذ بعض ذلك واجب كما هي الحال في شأن الوالدين، والأرحام، ونحوهم من ذوي الحقوق الواجبة. وبعضه مستحب كسائر المعاشرين ممن يستحب القيام بحقوقهم، وتحمُّل نقائصهم.

(٧) قوله: «من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة»: يعني ما يجب عليك، أو ينبغي لك القيام به من حسن التعامل مع أولئك مما يؤثِّق عُرى الصلة، ويقوِّي دواعي القربى، والمودة من نحو ما ذكر آنفاً، أو -في الأقل- ما يُبقي بعضهم على الحياد، وتقليل الشر.

(٨) قوله: «بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة»: يعني أن من أعظم ما يعينك على تقبُّل أولئك على علاقتهم أن تتذكر ما فيهم من الميزات، والنوايا الحسنة؛ فبيعتك ذلك على الإبقاء على مودتهم، وزيادة القربى منهم؛ بحيث إذا ساءك منهم خُلُقٌ رضيت منهم أخلاقاً أخرى. ويتأكد ذلك إذا غلبت المحاسنُ المساوئَ، وغمرتها؛ فلا وجه للصرم والقطع على حد قول الأول:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيف
وقول الآخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوف =

= وقد أرشدنا ربنا إلى هذه القاعدة العظيمة بقوله -جل ثناؤه-: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^{١١١} الأعراف.
 أي خذ منهم ما سهل عليهم، وطوّعت لك به أنفسهم؛ سماحة، واختياراً،
 ولا تحمّلهم على العنت والمشقة.
 قال عبدالله بن الزبير -رضي الله عنهما- في هذه الآية: «أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»^(١).

وقال مجاهد رضي الله عنه: «يعني خذ العفو من أخلاق الناس، وأعمالهم من غير تخسيس؛ مثل قبول الأعذار، والعفو، والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم»^(٢).

وكل ذلك من حسن العشرة، ولطيف المداراة، فالناس خلقوا للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا لينفرد كل واحد منهم بحياته.
 وللإنسان عوارض نفسية كالحب، والبغض، والرضا، والغضب، والاستحسان، والاستهجان.

فلو سار على أن يكشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال- لاختل الاجتماع، ولم يحصل التعارف، وانقبضت الأيدي عن التعاون.

فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به ما يحدث تقاطعاً، أو يدعو إلى تحاذل، ذلك الأدب هو المداراة.

(١) مدارج السالكين ٢/٢٩٠.

(٢) مدارج السالكين ٢/٢٩٠.

= فالمدارة مما يزرع المودة والألفة، ويجمع الآراء المشتتة، والقلوب المتنافرة.
قال ابن الحنفية: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدءاً
حتى يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج»^(١).

وقال العتابي: «المدارة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملك ولا سُوقَة، يجتلبون
بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فمن كثرت مداراته كان في ذمة الحمد
والسلامة»^(٢).

وقال بعضهم: «ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح في الماء الجاري»^(٣).
وقال الحسن: «حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل،
والقصد في المعيشة نصف المؤونة»^(٤).

وتتأكد هذه المعاني في حق من يكون شهم الخاطر جزل المروءة؛ إذ قد يؤذيه
ما يراه من تصرفات ينكرها طبعه الكريم، وأعمالٍ دنيئةٍ يأبأها ذوقه السليم؛ فيتأذى
منها أذىً كثيراً؛ لكونها لا ترتقي إلى المقام الذي يؤمله؛ فتتال نيلها من صحته،
وأعصابه.

وخير له من ذلك أن يتغاضى عن بعض ما يراه من التفريط، والتقصير؛ حتى
يكون أقرب إلى الواقعية والاعتدال بعيداً عن الإفراط في المثالية، وتطلب الكمال على
حد قول الأول:

(١) روضة العقلاء لابن حيان البستي ص ٧٠.

(٢ - ٣) عين الأدب والسياسة لعبدالرحمن بن هذيل ص ٥٤.

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٣/٣.

= اَقْبَلُ مِنَ النَّاسِ مَا تيسر ودَعُ مِنَ النَّاسِ مَا تعسر
فإنَّما النَّاسُ مِنَ زجاج إن لم تَرَفِّقْ بِهِ تَكَسَّرُ
وتتأكد هذه المعاني - كذلك - عند بعض الوالدين؛ إذ ترى منهم من يؤمل
الآمال العراض في أولادهم؛ بحيث يكونون على قدر كبير من العلم، والمروءة،
والتميز، وتراه يسعى سعيه لأن يكونوا كذلك.

ولكن قد تسير الأمور على غير ما يريد، فلا يكونون على وفق ما أمل.
ومن هنا قد يصاب بخيبة أمل، وربما ضاق ذرعاً بفوات ما توقعه من خير،
وربما وقع في الاعتراض على الحكمة الربانية.
وقد يزهد بأولاده؛ فلا يراهم أهلاً لأن يبذل من أجلهم ما يبذل؛ فيضيق
صدره، وتتنغص حياته.

ولو اتسع عقله، وبعُدَتْ نظرته، ورضي بقِسْمَةِ رَبِّه لما وقع في بحر الحسرات،
وإنما سلّم، واستبشر، وأمل، وانتظر الخير، وصار لسان حاله يقول:
وعليّ أن أسعَى وليّ — — — — — عليّ إدراك النجاح
فهو - إذاً - محسنٌ، مأجورٌ، مثابٌ على ما بذل.

ولكن مقاليد الأمور بيد الله - عز وجل - فحريٌّ به أن يرضى، ويقنع، ويُسَلِّم،
ويتحرى الخيرة، فرمما صلحوا بعد حين، وادَّكروا بعد أمة، وربما خرج من
أصلا بهم من يناله برُّهم، ودعواتهم.
وجدير بالوالد أن يقبل أولاده على علائهم؛ فيعاملهم على ما هم عليه ولو
كانوا خلاف ما يؤمل.

والعرب تقول في حكمها السائرة: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

وتقول: «أَنْفُكَ مِنْكَ وَإِنْ دَنْ، وَعَيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشْبَاءً» .
وإذا كانت الأخرى بحيث لم يرضَ، ولم يُسَلِّمْ، فَسَيَمَلُّ مِنْهُ أَوْلَادُهُ، وربما
زادوه وهنا على وهن؛ فكانت الحسرة عليه مضاعفة.
وقل مثل ذلك في شأن من بُلُوا بِوَالِدٍ شَرَسِ الطَّبَاعِ، كثير العتاب، سريع
الغضب؛ فخيرٌ لهم أن يسعوا في إصلاحه، وكبح جماحه، واستنزال طائره؛ فإن
لم يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ فَلْيَسْلَمُوا اللَّهَ، وليتقبلوا الأمر، ويحسنوا التعامل معه.
وقس على هذه النبذة ما شئت مما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المعاملين.

وبهذا الإغضاء عن المساوئ وملاحظة المحاسن^(١) تدوم الصحبة^١ والاتصال^(٢)، وتتم الراحة^(٣)، وتحصل لك الفائدة الثانية^(٤)؛

(١) قوله: «وبهذا...» إلى قوله: «المحاسن»: يعني بذلك: الأخذ بالقاعدة السابقة، وهي حسن التعامل مع نقائص البشر، وقبولهم على علاتهم، وتوطين النفس على ذلك.

(٢) قوله: «تدوم الصحبة، والاتصال»: يعني أن الأخذ بتلك القاعدة من أعظم أسباب دوام الألفة، واستمرار العشرة والتواصل.

(٣) قوله: «وتتم الراحة»: يعني أن من ثمار الأخذ بتلك القاعدة حصول الراحة الناجمة من جلاء المحبة، والألفة، والصلة، والسلامة من المكدرات الناتجة عن القطيعة، والبغضاء، وما يستتبعهما من العداوة، والتربص.

(٤) قوله: «وتحصل لك الفائدة الثانية»: ويعني بها الثمرة الأخرى، وهي معطوفة على الفائدة الأولى، وهي الإرشاد إلى حسن المعاملة مع كافة من لك بهم صلة.

وفي بعض النسخ لهذه الرسالة تكتب هكذا: «وتحصل لك» ثم توضع نقطة، وتكون كلمة: «الفائدة الثانية» في سطر جديد وكأن الضمير في الفعل «تحصل» يعود إلى كلمة «الراحة» في الجملة التي قبلها.

والحقيقة أن الضمير عائد على ما بعدها، وهي «الفائدة الثانية» التي سيشرح المؤلف في إيضاها وتفصيلها.

وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين.
ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ بل عكس القضية؛ فلاحظ المساوئ، وعمي عن المحاسن - فلا بد أن يقلق، ولا بد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، وَيَتَقَطَّعَ كثير من الحقوق التي على كلٍّ منهما المحافظة عليها^(١).

(١) يشير المؤلف في هذه الفقرة إلى الفائدة الأخرى التي تحصل لمن أخذ بالقاعدة السالفة.

وتلك الفائدة هي من صميم موضوع هذه الرسالة؛ ألا وهي طرد الهموم، وحصول السعادة، والمحافظة على صفاء القلوب واستمرار القيام بأداء الحقوق، وتمام الراحة والطمأنينة، والبعد عن سائر المكدرات.
وبيين - كذلك - أن مَنْ عَكَسَ الأمر، فكان همُّه النظر إلى المساوئ والتعامي عن المحاسن فسيكون مآله الكدر، والقلق، والتدابير، والتقاطع، وتضييع الحقوق وزوال البركة.

وتلك نتائج حتمية لمن كانت هذه حاله؛ فالذي يرغب من التعامل مع لا عيب فيه ولا نقص - فخير له أن يبحث عن كوكب يعيش فيه غير الأرض، أو أن يفتش عن خَلْقٍ يعيش بين ظهرانيتهم غير البشر، كحال الأحيمر السعدي في قوله:
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكادت أطيرو
يرى الله أني للأنيس لكاره وتبغضهم لي مقلته وضمير
= وكحال الشنفرى الذي يقول في لاميته المشهورة بـ (لامية العرب):

ولي دونكم أهلون سيّد عمّلس وأرقط زهلول وعرفاء جبال
 أولئك لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل
 ويقصد بالسيّد العمّلس: الذئب، والأرقط: النمر، والعرفاء: الضبع.

فهو يفضل العيش مع هذه السباع على العيش مع البشر.
 فهذه -إذاً- طبيعة البشر؛ فهم ليسوا على سنة واحدة، ومن أراد غير ذلك فقد
 رام مستحيلاً، وتكلف شططاً.
 وقد كتبت مقالاّ عنوانه (نظرية الطبلون) وهو منشور في كتابي (بصائر
 ص ١٦١).

وهو مناسب لهذا المقام، وهذا نصه: «الطبلون -كما تسميه العامة- هو عداد
 السرعة للمركبات، والطائرات، والسفن، والبواخر؛ فهو الذي تقاس به السرعة،
 فبعض ما ذكر سرعته فائقة جداً، وبعضها متوسط السرعة، وبعضها بطيء
 كالمركبات.

بل إنه النوع منهن متفاوت في ذلك.
 فالسيارات مثلاً متفاوتة السرعة؛ ففيها السريع، وفيها متوسط السرعة، وفيها
 البطيء جداً كبعض السيارات التي تستعمل لرصف الطرق؛ فمهما حاولت أن تزيد
 من سرعتها فلن تستطيع؛ لأن هذه هي طاقتها؛ فلهذا لا تتوقع منها مزيد سرعة.
 ونظرية الطبلون يمكن تطبيقها إلى حد ما في التعامل مع البشر؛ فذلك
 مما يريح كثيراً، وينأى بمن يأخذ بهذه النظرية عن كثير من العتاب، واللوم، وأكل
 بعضه بعضاً.

وتوضيح ذلك أن بعض الناس سريع النجدة، عالي الهمة، كامل المروءة؛
 فما إن يوكل إليه عمل، أو يسمع عن أمر من الأمور يحتاج إلى مساعفة وإنجاد إلا
 وتراه يقبل إليه إقبال البرق الخاطف.

= ولا تتفق معه اتفاقاً على عمل إلا وتجده سمحاً بذاك مبيناً.
وفي مقابل ذلك من تجده ثاكل المروءة، بليد الطبع، قليل الإحساس؛
فلا ينهض إلى مساعدة، أو معروف، وإذا أراد القيام بشيء من ذلك قام
كالمغشي عليه من الموت.
ثم إن المعروف عند الأول يزكو ولو كان قليلاً، وأما الثاني فمهما أسدي إليه
لا تجده إلا جاحداً كنوداً.
وبين هذين مراتب ودرجات تتفاوت بتفاوت الهمم والطبائع،
والاستعدادات النفسية، وآثار التربية، والتهذيب.
وقس على هذه النبذة الكثير من الأمور.
وكنت كثيراً ما أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الأحبة حول هذا الشأن،
فأرى منهم انزعاجاً لما يرونه من التماوت والتباطؤ من بعض الناس في النائبات أو
الواجبات التي يجب عليهم القيام بها خصوصاً إذا قارنوا أولئك ببعض أصحابهم
وزملائهم، ونظرائهم في السن أو العمل ممن هم على درجة من الهمة والمروءة.
وربما عزوا ذلك إلى قلة الاهتمام من أولئك، أو إلى احتقارهم للآخرين، أو
نحو ذلك؛ فكان مما أعزبهم به أن أحيلهم إلى (نظرية الطبلون) الأنفة الذكر،
وأقول لهم ولنفسى: هونوا عليكم؛ فهذا هو منتهى ذوقهم ومروءتهم؛ وليسوا
بالضرورة قاصدين إهانتكم، أو التقليل من شأنكم، وإنما هي طبائعهم الباردة
التي استرسلوا معها؛ فكان ذلك الحديث يعلل بعض الأصحاب، ويظفئ عنهم
بعض ما يجدونه من الغيظ على أولئك المتبلدين؛ فصارت (نظرية الطبلون) =

= مثار حديثنا في كثير من الأحيان ، وأصبحت تُقْصِرنا عن كثير من الإثارة والغضب دون أن يعني ذلك ترك المحاسبة للمخطئ ، ومحاولة الإصلاح للمعوج ، وإنما المقصود ألا تتأثر تلك الأحوال على مشاعرنا ، وسلوكنا بالسلب.

وبعد فهذه هي (نظرية الطبلون) التي ربما تخفف عنك بعض الهم ، وتلطف شيئاً من هجير الحياة ، ولفحها» .

وكثير من الناس ذوي الهمم العالية يوطنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة؛ لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون، ويتكدر الصفاء.

والسبب في هذا أنهم وطنوا نفوسهم عند الأمور الكبار، وتركوها عند الأمور الصغار؛ فضرتهم، وأثرت في راحتهم؛ فالحازم يوطن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وألا يكَلِّه إلى نفسه طرفة عين؛ فعند ذلك يسهل عليه الصغير كما سهل عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحاً^(١).

(١) هذه الفقرة دمجها المؤلف رحمته الله في فصل واحد مع الفقرة الماضية.

والحقيقة أنها مستقلة، وكان حقها أن تكون في فصل مستقل؛ إذ هي -برأسها- سبب خاص من أعظم أسباب السعادة، وهو السبب الثالث عشر ويمكن أن يُعَوَّن له ب: توطين النفس على القيام بصغار الأمور وكبارها. وهو بذلك يعالج خطأ مستحكماً يقع فيه فئام من الناس؛ فينال نيله من سعادتهم.

وقد أشار الشيخ رحمته الله إلى هذا الملحظ اللطيف، وأبان أن كثيراً من الأكابر يقومون بعضائم الأمور، ويتلقون المكاره والكوارث، والمشكلات العويصة بكل ثقة، وهدوء بال، وسكينة نفس؛ فلا ترى منهم ضيقاً بذلك، ولا تبرماً، ولا شكوى.

بل يأخذون بزمام المبادرة، فيرأبون الصدع، ويحلون الإشكال، ويتحملون التبعات.

=

= ولا ريب أن تلك الخصلة بالغة في المجد ذروتة ، وفي المروءة سنامها .
 وهم -بذلك- يسعدون أنفسهم ، ويسعدون غيرهم .
 ولكن الإشكال عند بعض أولئك أنهم توطنوا على القيام بكبار الأمور دون
 صغارها؛ فتراهم عند الأمور اليسيرة جداً يتكدرن ، ويكدرن على من
 عندهم ، ولا يكادون يحتملون هذه الصغائر التافهة؛ فتجد -على سبيل المثال- من
 يستضيف الجموع الغفيرة من الناس ولا يتبرم؛ فإذا أخطأ أحد أولاده في أمر من
 أمور الضيافة ، أو ركل أحد الصغار قدح شاي - أقام ذلك الكبير الدنيا ولم
 يقعدھا؛ فنغص على نفسه وعلى من حوله .

وترى رب الأسرة يبذل ما يبذل لأولاده ، وربما سافر بهم للترويح عنهم؛
 فيحصل تأخر عن موعد ، أو تباطؤ في أمر ما ، فيميل عليهم ميلاً واحداً يفسد
 من خلالها كل ما صنع .

وقس على هذه النبذة ما تقيس من الأمثلة .

وقد أفاد الشيخ رحمته الله هذا الفكرة من ديل كارنيجي الذي عقد فصلاً في كتابه
 (دع القلق) لمعالجة هذا الأمر؛ وهو الفصل السابع^(١) الذي عنون له بقوله:
 «لا تدع الهوام تغلبك على أمرك»^(٢) .

ومما قاله في ذلك الشأن: «فنحن غالباً ما نسمح لأنفسنا بالثورة من أجل
 توافه ما كان أخلقنا بتجاهلها؛ ها نحن في هذا العالم لا يزيد عمر أحد عن =

(١) انظر دع القلق ص ٨٩-٩٦ .

(٢) دع القلق ص ٨٩ .

== بضع عشرات من السنين ، وبرغم ذلك فإننا ننفق ساعات العمر التي لا يمكن تعويضها في اجترار أحزانٍ خليقةٍ بأن يطويها النسيان»^(١).

وقال في خاتمة هذا الفصل : «فلكي تحطم عادة القلق قبل أن تحطمك إليك هذه القاعدة (لا تسمح لنفسك بالثورة من أجل التوفاه ، وتذكر أن الحياة أقصر من أن تقصّها)»^(٢).

والمقصود -كما أوضح الشيخ- أن يوطن الإنسان نفسه على صغار الأمور وكبارها؛ ليحافظ على نفسه وراحتها؛ فذلك من تمام الحزم ، ومن أمارات السعادة. وأعظم ما يُمكن الإنسان من هذه الحصلة أن يسأل ربه الإعانة ، والتوفيق ، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين.

وفي ذلك إشارة إلى الصغير والكبير من الأمور.

وهذا المعنى العظيم من ألطف ما يذكر في كتب السير ، ومن أهم ما يربي الأكابر نفوسهم ، ومن تحت أيديهم عليه؛ فقد أخرج ابن عساكر عن الشعبي قال : «دهاة العرب أربعة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ، فأما معاوية فللحلم والأناة ، وأما عمرو فलلمعضلات ، وأما المغيرة فللمبادهات ، وأما زياد فلكبيرة والصغيرة».

وقال الأصمعي : «كان معاوية رضي الله عنه يقول : أنا للأناة ، وعمرو للبديهة ، وزياد للصغار والكبار ، والمغيرة للأمر العظيم».

= فتأمل قولهم : «لكبيرة والصغيرة» ، وقولهم : «لصغار والكبار».

(١) دع القلق ص ٩٣ .

(٢) دع القلق ص ٩٦ .

== وجاء في كتب السير والأدب أن عبد الله بن قاسم بن طولون كَاتِبَ العباس بن أحمد بن طولون قال: «بعث إليّ أحمد بن طولون بعد أن مضى من الليل نصفه، فوافيته وأنا منه خائفٌ مذعور.

ودخل الحاجب بين يديّ وأنا في أثره، حتى أدخلني إلى بيتٍ مظلم، فقال لي: سلّم على الأمير!

فسلّمت، فقال لي ابن طولون من داخل البيت وهو في الظلام: لأي شيء يصلح هذا البيت؟ قلت: للفكر، قال: ولم؟

قلت: لأنه ليس فيه شيء يشغل الطرف بالنظر فيه.

قال: أحسنت! امض إلى ابني العباس، فقل له: يقول لك الأمير اغدُ عليّ، وامنعه من أن يأكل شيئاً من الطعام إلى أن يجيئني؛ فياكل معي، فقلت: السمع والطاعة.

وكان العباس قليل الصبر على الجوع؛ فرام شيئاً يسيراً قبل ذهابه إلى أبيه؛ فَمَنَعْتُهُ؛ فركب إليه، وجلس بين يديه، وأطال أحمد بن طولون عمداً، حتى علم أن العباس قد اشتدّ جوعه، وأُحْضِرْت مائدةً ليس عليها إلا البوارد من البقول المطبوخة؛ فانهمك العباس في أكلها؛ لشدة جوعه، حتى شبع من ذلك الطعام، وأبوه متوقف عن الانبساط في الأكل، فلما علم أنه قد امتلأ من ذلك الطعام أمرهم بنقل المائدة، وأُحْضِر كلُّ لون طيّب من الدجاج، والبط، والجُدّي، والخروف؛ فانبسط أبوه في جميع ذلك، فأكل، وأقبل يضع بين يدي ابنه منه؛ فلا يمكنه الأكل؛ لِشِبَعِهِ.

قال له أبوه: إنني أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحتك به؛ لا تلق بهمّتك على صغار الأمور بأن تسهّل على نفسك تناول يسيرها؛ فيمنعك ذلك من كبارها، ولا تشتغل بما يقلّ قدره؛ فلا يكون فيك فضلٌ لما يعظم قدره». ١.هـ =

== فما مضى ذكره من الأخبار إنما هو نزرٌ يسيرٌ مما ورد من هذا المعنى في كتب السير والتراجم.

وهذه الأخبار تشير إلى معانٍ عظيمةٍ قد تغيب عن بال كثيرٍ من الناس؛ فتجد مَنْ يشغله أئفه سببٍ؛ فيغلق عليه ذهنه، ويأخذ بمجامع قلبه. وقد يكون ذلك الإنسان عظيمًا، أو مؤهلاً للعظمة، ثم تراه يشغل نفسه بأمرٍ صغيرة، فتأخذ بلبه، وتشغل وقته، وتستنفد طاقته، وتقطعه عن مصالح كثيرة كبيرة، كحال بعض التجار -على سبيل المثال- حيث تراه يشغل نفسه بأمرٍ صغيرة في ميدان تجارته، فتتال نيلها من أعصابه، وجهده، ووقته. ولو أنه وكل تلك الأمور الصغيرة إلى غيره ممن هم تحت يده، لكان خيرًا له، وأزكى لتجارته.

وقل مثل ذلك في شأن من يتولى ولاية؛ حيث ترى بعضهم يهلك نفسه في أمورٍ صغيرة، فإذا دهمت عظام الأمور لم يعد فيه بقيةٌ من جهدٍ لمواجهتها. وترى في الناس من هو خلاف ذلك؛ فتجده لا يأبه للأمر اليسيرة، واللفتات الحانية، والجوانب الإنسانية التي ترفع من قدره، وتكمل عظمته، وتنهض بمروءته.

وترى مَنْ هذه حاله يعتذر لنفسه بأنه مشغول بأمرٍ عظيمةٍ كبيرة؛ لذا تراه لا يأبه بمحادثة الصغير، وملاحظة الغريب، والتواضع للمسكين. والذي تقتضيه الحكمة أن يُفرغ المرء نفسه لكبار الأمور، ولا ينسى -مع ذلك- أن يقوم بصغارها، من غير أن يعطيها أكبر من حجمها^(١).

(١) انظر خواطر ص ١٨٤-١٨٧.

= وأشد ما في ذلك ما تراه من اشتغال كثير من الناس بمعارك صغيرة تأكل سعادته ، وأوقاته أكلاً؛ فقد يوهب بعض الناس نبوغاً ، وذكاءً ، والمعية .

وقد يكون ذا قدرات فائقة ، ومواهب متعددة ، وإمكانات واسعة؛ فيكون بذلك مؤهلاً للقيام بأعمال جليلة من شأنها أن تنهض به ، وبمن له صلة بهم من نحو قرابة ، أو زمالة ، أو ما جرى مجرى ذلك .

بل قد يكون مهيناً لأن يكون له أثرٌ أوسع جولةً ، وأخلدُ ذكراً .

ولكن تلك الخلال ، والمهيات ، والقدرات قد تذهب أدراج الرياح؛ فلا يكون لها عين أو أثر ، بل قد تكون وبالاً على صاحبها .

والسبب في ذلك أمور لعل من أبرزها ضيق النفس لدى ذلك الإنسان؛ حيث يتلى بسرعة غضبه ، واستسلامه لاستتارات يسيرة؛ فيُقضى عليه أن يعيش معارك صغيرة جداً سواء مع بعض أقربائه ، أو زملائه ، أو غيرهم؛ فينزل بذلك إلى دركٍ سحيق ، وتضيع عليه أوقات هو بأمرس الحاجة إليها ، ويفوته الترقى في كمالات كان جديراً بها؛ ذلك أن تلك المعارك الصغيرة تنهكه أيما إنهاك ، فتشُلُّ تفكيره ، وتقتل إبداعه ، وتشغله أيما إشغال عمماً ينفعه .

ولو أنه غضَّ الطرف عن تلك المعارك ، أو أعطاها التفاتةً يسيرةً لتطفئ نائرتها- لكان خيراً له في عاجله ، وأحسن تأويلاً في عاقبته .

والحاصل أن العاقل الذي يعرف شرف زمانه ، وما ينبغي له من الاشتغال بما ينفعه - هو الذي ينأى بنفسه قدر الإمكان عن إضاعة وقته في معارك صغيرة ، أو وهمية؛ فتلك المعارك كلُّ يجيدها؛ فهي دأب الخاملين البطالين الذين يشغلون بها =

= ذوي النفوس الكبيرة، والأعمال الجليلة^(١)، وقديماً قالت العرب: «ويلٌ للشجي من الخلي».

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وجد أنه يتمثل القيام بصغار الأمور وكبارها أحسن تمثّل؛ حيث كان يقوم بالمصالح العليا، ويُعنى بشؤون الأمة، وتبليغ الدعوة، والجهاد في سبيل الله، واستقبال الوفود، وما جرى مجرى ذلك من الأعمال الجليلة.

ومع ذلك تراه يلاطف الصغير، ويحيب الدعوة، ويمازح أصحابه، ويكون في مهنة أهله؛ فقد أعطى كل ذي حق حقه، وجعل لكل مقام ما يناسبه دون وكس، ولا شطط.

ولم يكن أحدٌ يلهيه عن أحدٍ كأنه والدٌ والناس أطفالٌ ومن أعجب من تراه في هذا العصر ممن يمثل هذا المعنى، ويسير على هذا النمط سماحة شيخنا الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمته الله.

وهذا سرٌّ من أسرار عظمته وألمعيته، ولطائف سيرته، وأسباب تميزه، وحلوله في سواد العيون، وسويداء القلوب؛ ففي الوقت الذي يقوم فيه بجلائل الأعمال، من مراسلات لكبار المسؤولين، ومناصحة لرؤساء الدول، واستقبال الوفود من أعلى المستويات، وقيام بالدروس والفتوى، والردود على الأسئلة المتتابة، ورئاسة الاجتماعات في الرابطة أو الهيئة أو غيرها، ونحو ذلك من الأعمال التي يترتب عليها المصالح العامة للأمة - لا تراه يهمل دقائق الأمور، =

(١) انظر بصائر ص ١٧٣-١٧٤.

= وصغارها؛ بحجة اشتغاله بما هو أهم، بل تراه يسمع سؤال المرأة، ويستقبل الفقير المسكين، ويجيب عما يُورَدُ عليه عبر الهاتف ولو كان يسيراً، بل تراه يداعب قائد سيارته، والعاملين معه، ويسألهم عن أحوالهم، وأحوال ذويهم، بل لا يُغفلُ الثناء على طباخ المنزل على الوجبات التي يعدها، ولا ينسى مداعبة الصغار، والقيام بحقوق الأهل، وهكذا كانت حاله مع الناس؛ فكل يعطيه حقه، وينزله منزلته، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ولذا تراه يقضي سحابة يومه بأعمال كثيرة، وبسعادة تغمره، وتسري إلى من حوله.

فصل (١)

العاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياةُ السعادة والطمأنينة، وأنها قصيرة جداً؛ فلا ينبغي له أن يقصرها بالهم والاسترسال مع الأكدار؛ فإن ذلك ضدُّ الحياة الصحيحة؛ فَيَشِخُّ بحياته أن يذهبَ كثيرٌ منها نهباً للهموم والأكدار، ولا فرق في هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصفِ الحظُّ الأوفر، والنصيبُ النافعُ العاجلُ والآجلُ^(١).

(١) هذا الفصل الذي عقده المؤلف أشبه ما يكون بالأفكار التي تعين على بلوغ السعادة، وطرد الهم.

وهي معان تطرَّق لها، وأبدى وأعاد حولها في غضون الصفحات الماضية.

(٢) قوله: «العاقل...» إلى قوله: «والآجل»: يقصد بذلك أن الإنسان الحازم اللبيب هو الذي يدرك أن الحياة الحقيقية للإنسان هي ما سَعَدَ فيها، واطمأنت بها نفسه، وسلم فيها قلبه من المكدرات؛ ذلك أن حياته قصيرة مهما طالت؛ فلا يسوغ له أن يزيدها غمًّا بغمٍّ؛ فيقصرها بالهموم، والاسترسال مع المنغصات، كما قال الأول: إنما عمر الفتى ما سرَّه ليس عمراً المرء طول الأزمنة وحرى بالإنسان أن يضمن بوقته أن يذهب سدى متفرقاً بين هموم وأنكاد. وقد أفاد هذه الفكرة من ديل كارنيجي الذي: «قال دزرائيلي مرة: (إن الحياة أقصر من أن نُقصرها)»^(١).

ويوضح الشيخ رحمته الله أن هذا القدر من السعادة يشترك في تحصيله البرُّ والفاجرُ على حدٍ سواء غير أن للمؤمن من تحقُّقه القُدْحُ المعلى في هذه الدنيا وفي دار الجزاء. وقد مر الكلام على مثل ذلك، وأنه ينبغي لمريد السعادة أن يجاهد نفسه على طرد الهم، ومحاربة الكآبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

(١) دع القلق ص ٩٣.

وينبغي^(١) -أيضاً- إذا أصابه مكروه، أو خاف منه أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينية أو دنيوية، وبين ما أصابه من مكروه؛ فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره^(٢).

(١) قوله: «وينبغي»: أي لمريد السعادة.

(٢) قوله: «إذا أصابه مكروه...» إلى قوله: «المكاره»: يشير إلى سبب من أسباب السعادة، وقد مر آنفاً، ويمكن أن يكون سبباً متصلاً، وهو الرابع عشر، ألا وهو لزوم الشكر، والأخذ بالمقارنة الصحيحة؛ فيقارن بين ما ابتلي به من المكاره والمخاوف وبين ما يتقلب فيه من نعم لا يحصى لها عدداً سواء كانت دينية من نحو الإسلام، والإيمان، والسنة، والعلم، والقرآن، وسائر شعب الإيمان. أو كانت دنيوية من نحو الصحة في الأبدان، والأمن في الأوطان، وتوافر الغذاء، والدواء، وسائر وسائل الراحة من مراكب، ومنازل، وملابس، ونحوها من النعم؛ فحينئذٍ يتبين له البون الشاسع؛ فتتلاشى المكاره التي حلت به أمام تلك النعم التي لا تحصى.

وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوث ضرر عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها؛ فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثيرة القوية.

وبذلك يزول همه وخوفه، ويُقدَّر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيُوطَّن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يقع منها، وفي رفع ما وقع أو تخفيفه^(١).

(١) يقصد بذلك أنه ينبغي لمريد السعادة وطردهم أن يوجد مقارنة صحيحة بين ما يتوقعه من المكاره وبين دواعي السلامة، والنجاة من المكاره والمخاوف؛ إذ قد تكون احتمالات العطب ضعيفة أو متوهمة - وهو الغالب -.

وتكون احتمالات النجاة قوية كثيرة؛ فلا ينبغي له - والحالة هذه - أن يسترسل مع الأوهام؛ فتذهب نفسه حسرات من احتمال وقوع الشر قبل وقوعه. وإنما عليه أن يوطن نفسه على استقبال كل وارد يأتيه؛ فإذا نزل به ما يسوؤه - سعى لرفعه، أو تلطيفه.

وإن لم يأتِه سرُّ بذلك أيما سرور؛ فلا تذهب نفسه حسرات على توقع أمر لم ينزل بعد؛ إذ أغلب الخوف مدفوع - كما قال الماوردي -.

قال عبدالعزيز بن زرارة الكلابي :

لا يملأ الهول قلبي قبل وقعته ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعها
وقال البارودي مثنياً على الشرف، والنفس العالية :

ولست لأمر لم يكن متوقعاً ولست على شيء مضى أتعجبُ
وقد أشار المؤلف رحمته الله إلى هذا المعنى، ومر تفصيل الكلام في شرحه.

ومن الأمور النافعة^(١) أن تعرف أن أذية الناس لك - وخصوصاً في الأقوال السيئة - لا تضرك، بل تضرهم^(٢) إلا إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسوغت لها أن تملك مشاعرك؛ فعند ذلك تضرك كما ضررتهم؛ فإن أنت لم تُصنع لها بالاً لم تضرك شيئاً^(٣).

(١) قوله: «ومن الأمور النافعة»: يعني التي تفيد الإنسان في معاشه، ومعاده، وتجلب له السعادة، وتطرد عنه شبح القلق.

(٢) قوله: «أن تعرف...» إلى قوله: «بل تضرهم»: يشير بذلك إلى السبب الخامس عشر من أسباب السعادة ألا وهو حسن التعامل مع أذية الناس؛ إذ إن الأذى اللاحق بالإنسان من سائر الناس من أعظم ما ينغص عليه حياته، ويفقده راحته، وطمأنينته؛ إذ هو بشر، وله مشاعر وإحساسات؛ فتؤذيه الكلمة الجارحة، وتقلقه السخرية، والظلم، وانتقاص القدر.

ومن الناس من يُفرط في ذلك، فتراه ينغص على نفسه، وعلى من حوله من كلمة يسمعها، أو يؤولها تأويلاً سيئاً، أو من عمل تافه حدث له أو منه؛ فتراه بعد ذلك وقد اسودّت الدنيا في نظره، ثم هو يسودّها على من حوله.

وهؤلاء عندهم قدرة على المبالغة في الشر، فيجعلون من الحبة قبة.

فإذا استشعر الإنسان أن أذية الناس - وخصوصاً ما كان منها قولياً - لا يضر إلا المسيء كان ذلك مفضياً إلى حسن التلقي للإساءة؛ فالقول السيئ يرجع إلى صاحبه بالأذى في دينه وعرضه، كما قال الأول:

ضربتني بكفّها ابنة مَعْنٍ أوجعتُ كفّها وما أوجعتني =

= (٣) قوله: «إلا إذا أشغلت نفسك...» إلى قوله: «لم تضرك شيئاً»: يشير بهذا إلى الحالة التي تنال نيلها من الإنسان، وهي إذا أعار كلام الناس اهتمامه، وصارت أقوالهم ترهقه، وتأخذ عليه تفكيره؛ بحيث تضره، وتفقدته راحته. بخلاف ما إذا أعرض عن الجهل، وترفع عن السباب؛ فإنه بذلك يحمي عرضه، ويريح نفسه، وذلك مما أدبنا به ربنا -جل وعلا- بقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فبالإعراض عن الجاهلين يحفظ الرجل على نفسه عزتها، إذ يرفع عن الطائفة التي تلذ المهاترة والإقذاع.

قال بعض الشعراء:

إنني لأعرض عن أشياء أسمعها حتى يقول رجالٌ إن بي حمقاً
أخشى جواب سفيهٍ لا حياء له فسئلٍ وظنَّ أناسٍ أنه صدقاً^(١)
والعرب تقول: «إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر»^(٢).

«وروي أن رجلاً نال من عمر بن عبد العزيز، فلم يجبه، ف قيل له: ما يمنعك منه؟... قال التقيُّ ملجماً»^(٣).

ثم إن الترفع عن السباب من دلائل شرف النفس، وبُعد الهمة كما قالت الحكماء: «شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم»^(٤).

(١) انظر عيون الأخبار ١/٢٨٤.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص ١٥٩.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز ٢/٤٢٤.

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٢-٢٥٣.

= بل إن الحكماء ليعدّون الاستهانة بالمسيء ضرب من ضروب الأنفة، ومن مستحسن الكبر، وفي مثل ذلك قول بعضهم:

أو كلما طن الذباب طردته إن الذباب - إذاً - عليّ كريم^(١)
«وأسمع رجل ابن هبيرة كلاماً جارحاً؛ فأعرض عنه؛ فقال: إياك أعني،
فقال: وعنك أعرض»^(٢).

والحاصل أن السلامة من كلام الناس عزيزة المنال، وإن شئت فقل هي ضرب من المحال خصوصاً لمن يتصدر لجلائل الأعمال؛ بل قال ابن حزم رحمته الله: «من قدر أن يسلم من طعن الناس فهو مجنون»^(٣).

ولكن الشأن كل الشأن في التعامل الأمثل مع كلام الناس؛ فذلك مما يحتاج إلى شيء من التفصيل والبسط؛ فقد تكون المبالاة بكلام الناس ضرباً من الخور، وضعف الرأي، وضعة النفس، وذلك كحال من يدع الأعمال الجليلة، أو المشروعات النافعة بسبب نقد ظالم، أو كلمة ساخرة، أو جارحة، أو مخذلة.

وقد تكون المبالاة بكلام الناس دليلاً على القوة، وأصالة الرأي، والتجرد عن الهوى، كحال من يسمع نقداً هادفاً، أو تخطئةً لعملٍ كان يقوم به، فجعل ذلك في حسبانته، وتقبله بقبول حسن، وتفادى خطأه، ولم يصرّ على باطله.

وقل مثل ذلك في قلة المبالاة بكلام الناس؛ فقد تكون أثراً من آثار الصفاقة، والقحة، والبلاهة، وذلك كحال من لا يترفع عن المبادل، ولا يتخرج من وضع =

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٣ .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٣ .

(٣) الأخلاق والسير ص ١٧ .

= نفسه في مواضع الريب ، ولا يأنف من المجاهرة بالفسوق ، ولا يبالي بظلم الآخرين ، والاستهانة بهم وما جرى مجرى ذلك ، ثم إذا ولغ الناس في عرضه ، ولا موه على سوء صنيعه ، تمادى في غيه ، ومشى في غلوائه غير مبال بما يواجّه به ، ولا عابئ بما يقال عنه؛ فذلك مذموم ، ممقوت ، معدود في جملة السُّفل .
وقد قيل للقمان -عليه السلام- : أي الناس شر؟ فقال : « الذي يسيئ ، ولا يبالي أن يراه الناس مسيئاً » .

وقد تكون قلة المبالاة بكلام الناس محموداً دالةً على عظمة وألمعية .
وذلك كما إذا قام الإنسان بما تقتضيه الحكمة من استفراغ الجهد ، وتحري الصواب ، ومداراة الناس ، ونحو ذلك ثم ناله ما ناله من الطعن ، والقذح ، والنقد الظالم ، فأعرض عن ذلك كله ، ومضى فيما هو بصدده من الأعمال التي ترضي الله ، وتنفع الناس ، مستشعراً أن كلام الناس لا يضره إلا إذا اشتغل به ، مستحضراً أن النقد الظالم إنما هو اعتراف ضمني بقدرته ، وعلو كعبه؛ فذلك دليل كبير النفس ، وسعة الصدر ، وبعد الهمة ، وحسن التدبر للعواقب .
وعلى ذلك يحمل كل ما جاء من الوصايا والحكم التي توصي باطراح المبالاة بكلام الناس ، وبأن لا يجعل الإنسان مراقبتهم ، والحذر من لمزهم حائلاً بينه وبين تحقيق مآربه النافعة له ، ولأمته ، ووطنه .

قال بشار بن برد :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيباتِ الفاتكُ اللّهجُ^(١)

(١) ديوان بشار بن برد ص ٦٠ .

= وقال تلميذه سلم الخاسر:

من راقب الناس مات همًّا وفاز باللذة الجسورُ
وقال ابن حزم رحمه الله في الأخلاق والسير: «العقل والراحة هو اطراح المبالاة
بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق - عز وجل - بل هذا هو باب العقل
والراحة كلها»^(١).

ولا يعني اطراح المبالاة بكلام الناس أن يتقصد المرء مخالفتهم أو أن يعمد إلى
مخاشنتهم، والإغلاظ عليهم؛ لأن الحكمة تقتضي مداراة الناس، ومعرفة
أحوالهم، وإنزالهم منازلهم؛ فالحكيم الحازم العاقل يزن عقول من يلاقونه،
ويحس ما تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحبهم وهو على بصيرة
مما وراء ألسنتهم من عقول، وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن
ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

فإذا قام المرء بما تقتضيه الحكمة - فليقدم على ما قصد إليه دونما التفات أو
مبالاة بكلام أحد؛ فلا لوم ولا تثريب عليه حينئذ.

ولا ريب أن توطئ النفس على هذا الأمر يحتاج إلى دربة، وتمرين، وصبر؛
فإذا أحكم الإنسان هذا الأمر - كان ذلك من أسباب سعادته.

هذا وقد أفاد الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في هذا السبب من أسباب
السعادة - وهو حسن التعامل مع إساءة الناس - من ديل كارنيجي الذي عقد في
كتابه (دع القلق) فصلاً قال فيه: «الفصل الحادي عشر: كن عَصِيًّا على النقد»^(٢).

(١) الأخلاق والسير ص ١٧ .

(٢) دع القلق ص ٢٢٨ .

= وساق تحت هذا الفصل جملة من القصص ، والحكم ، ومما جاء في ذلك قوله موضحاً أن كلام الناس لا يضرُّك إلا إذا اشتغلت : « وإنِّي لأعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير في زيد أو عمرو من الناس أكثر من لحظات ؛ فهم مشغولون بالتفكير في أنفسهم منذ أن يفتحوا أعينهم على اليوم الجديد ؛ حتى يأوون إلى مضاجعهم .

وإن صُدَّاعاً خفيفاً يُلْمُّ بهم لهو كفيفٌ بأن يلهيهم عن خبر موتي أو موتك »^(١) .
وقال : « وحتى لو نالنا من الناس كذب ، أو افتراء ، وطعن يوجه إلى ظهورنا جهراً أو في الخفاء - فلا ينبغي أن يحزننا هذا »^(٢) .

إلى أن قال : « لقد اكتشفت أنني وإن عجزت عن اعتقال السنة الناس حتى لا يطلقوها في ظلماً وعدواناً إلا أنه في وسعي أن أفعل ما هو خير من هذا ، وهو أنني أتجاهل لَوْمَ الناس .

ودعني أوضح لك ذلك ؛ إنني لا أطالبك أن تتجاهل النقد إطلاقاً ، وإنما أقصد النقد الظالم المغرض »^(٣) .

هذا وإن لابن تيمية رسالة مختصرة عنوانها (قاعدة في الصبر) وهي من أحسن ما كتب في كيفية التعامل مع أذية الناس ؛ فقد ذكر فيها أسباباً عدة لو أخذ بها الإنسان المؤمن على وجه الخصوص لكانت لديه مناعة في ذلك الشأن .

= ومما ذكره من ذلك بإيجازٍ شديدٍ ما يلي :

(١) دع القلق ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

أ- أن يشهد العبد أن الله - تعالى - خالقُ أفعال العباد؛ فلا يتحرك شيء إلا بمشيئته؛ فانظر إلى الذي سلطهم عليك ولا تنظر إلى فعلهم بك تسترح من الهم والغم.

ب- أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه؛ كما قال - تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى: ٣٠.
ج- أن يشهد حسن الثواب الذي وُعد به من عفا وصبر.

د- أن يشهد ما في العفو من سلامة القلب، وحصول حلاوة العفو؛ فذلك مما يزيد على الانتقام أضعافاً مضاعفة.

هـ- أن يشهد معية الله، ومحبتة إذا صبر، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ١٥٣، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٦.

و- أنه ربما كان انتقامه سبباً لزيادة شرِّ خصمه، وقوة نفسه؛ فإذا صبر وعفا أمن هذا الضرر.

ز- أن هذه المظلمة التي ظلمها هي سببٌ إما لتكفير سيئته، أو رفع درجة؛ فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن كذلك.

ح- أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه.

واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيما يعود عليك
نفعه في دين أو دنيا فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس^(١).

(١) يشير الشيخ رحمته الله في هذه الفقرة إلى السبب السادس عشر من أسباب
السعادة ألا وهو إصلاح الأفكار والخواطر، ويبين أن أفكار الإنسان هي التي
توجهه؛ فإن كانت أفكاراً صحيحة سليمة قادتته إلى ما ينفعه من أعمال في دينه
ودنياه؛ إذ الأعمال ثمرة للأفكار.

ومن كانت أفكاره كذلك حسنت أعماله، وعاد حسنهما عليه بالسعادة.
وإن كانت الأخرى؛ بحيث تكون أفكاراً سيئة قادتته إلى الأعمال السيئة؛ فنتج
عنها مايسوؤه، وينوؤه، ويلطخ سمعته، ويوقعه في الورطات، ويسلبه السعادة،
ويلقيه في برائن القلق.

ولابن القيم رحمته الله لفتات مائعة، ووقفات رائعة في إصلاح الخواطر والأفكار،
يقول في كتابه (الفوائد) مبيناً أن الخواطر والأفكار هي مبادئ كل أمر من الأمور:
«مبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب
التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل،
وكثرة تكراره تعطي العادة؛ فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار،
وفسادها بفسادها؛ فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلها، صاعدة إليه،
دائرة على مرضاته ومحابه؛ فإنه -سبحانه- به كل صلاح، ومن عنده كل هدى،
ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل
ضلال وشقاء».

= وقال مبيناً ما تؤول إليه الخواطر والأفكار: «واعلم أن الخطرات والوسوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر، فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة؛ فردّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتامها.

ومعلوم أنه لم يُعط الإنسان إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها؛ فإنها تهجم عليه هجوم النَّفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها، ورضاه به، ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها، وكرهته له، وأنفته منه».

إلى أن قال ﷺ موضحاً أن النفس البشرية لا تقف عن الجولان في الأفكار: «وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن، ولا بد لها من شيء تطحنه؛ فإن وُضع فيها حبُّ طحنته، وإن وُضع فيها تراب أو حصى طحنته؛ فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى مُعطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها؛ فمن الناس من تطحن رحاه حبّاً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك؛ فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه».

وقال ﷺ مبيناً أهمية إصلاح الخواطر والأفكار: «فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكراً جواً، فاستخدم الإرادة، فتساعدت هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد.

=

= ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعينك دون ما لا يعينك؛ فالفكر فيما لا يعين باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه».

إلى أن قال محذراً مساكنة الشيطان، وتسليم النفس لما يلقيه من وساوس وأماني: «وإياك أن تُمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعتته على نفسك بتمكينه من قلبك، وخواطرك فمَلَكَهَا عَلَيْكَ»^(١).

وقد أفاد الشيخ السعدي رحمته الله هذا السبب من ديل كارنيجي الذي عقد الفصل الثاني عشر من كتابه (دع القلق)^(٢) وعنون له بقوله: «حياتك من صنع أفكارك»^(٣).

وساق تحته -كالعادة- جملة من القصص، والأمثال، والمواقف، والحكم، والتوجيهات التي تؤيد هذه القاعدة.

ثم ختم الفصل بقوله: «فكر في السعادة، واصطنعها تجد السعادة ملك يديك»^(٤).

(١) الفوائد ص ٢٤٩-٢٥١.

(٢) دع القلق ص ١٣٤-١٤٩.

(٣) دع القلق ص ١٣٤.

(٤) دع القلق ص ١٤٩.

ومن أنفع الأمور لطرد الهم أن توطن نفسك على ألا تطلب الشكر إلا من الله^(١)، فإذا أحسنت إلى من له حقُّ عليك^(٢) أو من ليس له حق^(٣) فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله^(٤)؛ فلا تُبالِ بشكر من أنعمت عليه^(٥)، كما قال -تعالى- في حق خواص خلقه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾^(٦).

(١) قوله: «ومن أنفع الأمور» إلى قوله: «إلا من الله»: بيان للسبب السابع عشر من أسباب السعادة ألا وهو توطن النفس على تطلب الشكر من الله دون من سواه.

(٢) قوله: «فإذا أحسنت إلى من له حق عليك»: يعني إذا قدمت معروفاً واجباً عليك تجاه أحد من الناس، كوالد، أو ولد، أو سائر من له حق شرعي عليك يلزمك القيام به.

(٣) قوله: «أو من ليس له حق»: يعني من سائر الناس ممن تتطوع، وتتكرم؛ فتسدي له معروفاً، وتحسن إليه في أي نوع من أنواع الإحسان المستحب.

(٤) قوله: «فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله»: يعني بذلك أن جميع ما تقدمه من إحسان واجب أو مستحب هو -في الحقيقة- تعامل مع الله، وتقرُّب إليه بذلك العمل؛ إذ الإحسان من أعظم القربات ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو -جل ثناؤه- ﴿ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾.

وهو الذي يأخذ الصدقات، ويتقبل من المتقين، ويضاعف ثواب المقرضين. وكفى بذلك منقبةً، وشرفاً، وذخراً، وسعادةً في الآجل، وأجرًا غير مجذوذ في الآجل.

(٥) قوله: «فلا تبال بشكر من أنعمت عليه»: أي لا يعظم عليك ألا يشكرك من أحسنت إليهم؛ فتدع صنع المعروف لمجرد كنود من أسديته له.

= (٦) قوله: « كما قال -تعالى- في حق خواص خلقه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ » : أي كما هو شأن أولئك المصطفين الأخيار من أهل العلم والإيمان من السابقين المقربين المحسنين؛ فشأن أولئك أنهم يسدون الجميل؛ حسبةً لله، ورغبة في رضاه، وطمعاً في جزيل عطاياه، ولسان حالهم إنما تقدم ما تقدم لوجه الله فحسب، لا رغبةً ولا طمعاً فيما عند الناس من المكافأة والمحمدة.

ولهذا لما سمع عبدالله بن جعفر - وهو من الأجواد المعروفين - هذين البيتين:
 إن الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى تنال بها كريم المصنع
 فإذا اصطنعت صنيعةً فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دع
 قال: « هذان البيتان يبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطراً؛ فإن أصاب الكرام كانوا أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت أهلاً ».

وقال الفقيه ابن سراج:

بُثَّ الصَّنَائِعَ لَا تَحْفَلُ بِمَوْقِعِهَا فِي آمَلٍ شَكَرَ الْمَعْرُوفَ أَوْ كَفَرَا
 كَالغَيْثِ لَيْسَ يَبَالِي حِينَما انْسَكَبَتْ مِنْهُ الْغَمَائِمُ تُرْباً كَانَ أَوْ حَجَرَا
 وقد مر أبو الديك المعتوه بمن ينشد:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تنال بها كريم المصنع
 فقال: كذب شاعركم، بل يصرف المعروف إلى أهله، وغير أهله، وإلا كيف ينالني، وكنيتي أبو الديك، وأنا معتوه؟!

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد ومن قوي اتصالك بهم^(١)، فمتى وَطَّنتَ نفسك على إلقاء الشر عنهم فقد أرحت واسترحت^(٢).

(١) قوله: «ويتأكد هذا...» إلى قوله: «اتصالك بهم»: يعني بذلك أن الإحسان إلى الناس -خالصاً لوجه الله- عمل طيب، ويترتب عليه ما يترتب من جزيل الثواب.

ولكنه يتأكد، ويعظم أجره إذا كان ذلك الإحسان متوجهاً إلى الأولاد، والوالدين، والأرحام، وسائر من لهم حقُّ عليك؛ فالإحسان إليهم أولى، وأحرى، وأكد، وأوجب: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢١٥.

(٢) قوله: «فمتى وطَّنتَ نفسك على إلقاء الشر عنهم فقد أرحت واسترحت»: يعني بذلك أن من وطَّن نفسه على القيام بالإحسان إلى من مضى ذكرهم بكافة ضروره دون أن ينتظر منهم جزاءً، أو شكوراً، فسيريح ويستريح. وقوله: «إلقاء الشر»: يظهر أنه يقصد بقوله: «الشر»: الشره، أو الشرهه، وهي كلمة عامية معروفة مرادفة للعتاب.

ويعني بذلك أن تقدم المعروف لأولئك؛ فإذا لم تلق منهم شكراً على ما قدمت فلا يعظّم ذلك عليك كنودهم، ولا تعاتبهم على ترك الشكر، ومقابلة الجميل بالجميل؛ فإنك إن أخذت بذلك الأدب أرحت نفسك من الهم، وأرحت معامليكَ من ذلك.

وقد تكون الكلمة (إلقاء الشكر) فيكون المعنى أنك تلقي الشكر عنهم؛ فلا تطالبهم به.

= وعلى كل حال فتلك منزلة عالية تفضي إلى سعادة الدنيا والآخرة، وتطلق يد المحسن ولسانه؛ كي يتابع إحسانه الفعلي والقولي ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فصلت .

وما ذلك إلا لصعوبة مثل ذلك على كثير من النفوس؛ إذ كثيراً ما تسمع من يقول: قَصَّرَ فلان في حقي، ولم يعرف فلان قدرتي، وضاع جميلي عند فلان، ولم يثمر صنيعي عند فلان وفلان.

وكثير من الناس يشتكى كنودَ صديقه، أو جحودَ رصيفه، أو تنكرَ ربيبِ نعمته؛ فترى هؤلاء يلومون من لم يَقْضِهِمْ حَقَّ الزيارة، أو التحية، أو الرغد، أو المواساة.

ولا ريب أن نسيان الفضل، ومقابلة الإحسان بالإساءة - ثقیل على النفس، بل ربما كان ذلك سبباً في قطع الإحسان كما قال عنترة:

نبئت عمراً غيرَ شاكرٍ نعمتي والكفرُ مَحْبِثَةٌ لنفس المنعم

بل إنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس، وقد قال الله - عز وجل - لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ثم قال: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ التوبة: ١٠٣ .

فأمر النبي ﷺ أن يدعو للأغنياء إذا أخذ منهم الزكاة، وفي ذلك شكر لهم، وتقدير لصنيعهم.

ومع ذلك فإنه يجدر بمن أسدى معروفاً، وقدّم جميلاً أيّاً كان ألا ينتظر مُقَابِلَهُ جزاءً ولا شكوراً، بل ولا حتى دعاءً.

وأن يستحضر - كذلك - أنه قد يوجد في الناس من هو لئيم الطبع، قليل الشكر؛ بل منهم من يحسد حتى من يحسن إليه، كما قال المتنبي:

=وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب ولكن ليس بالضرورة أن يسمى تارك الشكر ناكراً للجميل؛ إذ قد يعترف بالجميل، ويضمّر المحبة، والدعاء، ولكنه قد يكون مشغولاً بأمور تلهيه عن تقديم الشكر، أو رد الجميل.

وقد يكون بارد الطبع، فقير المشاعر؛ فلا يعبر عن عواطفه المكنونة، وإن كان قلبه منطوياً على الشكر والعرفان.

ولهذا فإن القياس قد لا ينضبط في هذا الباب؛ فقد تُقدّم معروفاً واحداً لمجموعة من الناس؛ فيلقى أرضاً طيبة عند بعضهم، ولا يلقى شيئاً من ذلك عند آخرين. وبالجملة فإنه يحسن بالعاقل توطين نفسه على أن يعطي الله، وألا ينتظر المقابل من الناس، وأن يكون عفاً عن كل ما في أيديهم أياً كان ذلك؛ فإذا وطن نفسه على هذه الخطة فسيعيش في سرور ونعيم، وسيتقلب في رخاء وهناء، وسيكون عزيز الجانب، موفور الكرامة.

وسيريح نفسه، ومن يسدي لهم المعروف من لواذع العتاب، وما ينتج عنه من شر وفساد.

هذا وقد أفاد الشيخ هذا السبب من ديل كارنيجي الذي عقد الفصل الرابع عشر من كتاب (دع القلق) وعنون له بقوله: «لا تنتظر الشكر من أحد»^(١).

وساق تحته ما ساق من المواقف والقصص والحكم^(٢).

ومما قاله في ذلك: «إذا أردنا السعادة فلنكف عن التفكير في الشكر، أو انتظاره، ولنُعطِ بقصد الإعطاء ذاته»^(٣).

(١) دع القلق ص ١٦٠ .

(٢) انظر دع القلق ص ١٦٠-١٦٥ .

(٣) دع القلق ص ١٦٣ .

ومن دواعي الراحة^(١) أخذ الفضائل^(٢) والعمل عليها^(٣) بحسب الداعي النفسي دون التكلف الذي يقلقك، وتعود على أدراجك خائباً من حصول الفضيلة حيث سلكت الطريق الملتوي، وهذا من الحكمة^(٤).

(١) قوله: «ومن دواعي الراحة»: يعني من أسباب راحة القلب، وسعادة النفس، والسلامة من القلق.

وفي ذلك شروع في بيان السبب الثامن عشر من أسباب السعادة، ألا وهو الأخذ بالفضائل.

(٢) قوله: «أخذ الفضائل»: يعني الحرص على الاتصاف بمعالى الأمور، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم.

(٣) قوله: «والعمل بها»: يعني حمل النفس على القيام بها، وتمثلها.

(٤) قوله: «بحسب الداعي...» إلى قوله: «وهذا من الحكمة»: أي بمقدار ما تميل إليه النفس من تلك المعالى والمكارم؛ وما تطوعت به دون عنت أو مشقة: ألا إن خير الود ود تطوعت به النفس لا ود أتى وهو متعب إذ التكلف، وحمل النفس على كثير من الأعباء لا يطيقه كل أحد؛ إذ الهمم تتفاوت والطباع تختلف؛ فإذا حمل الإنسان على نفسها ما لا تطيق أرهقها عسراً، وربما لم يطق حمل ما عزم عليه؛ لما ركب عليه طبعه وطاقته.

فإذا ساس نفسه، وأحكم مداراتها أراحها من أعباء تنال نيلها من الصحة، والأعصاب، والمال.

ولهذا جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: «نهينا عن التكلف»^(١).

(١) البخاري (٧٢٩٣).

= وقال - عليه الصلاة والسلام - : « اكلفوا من الأعمال ما تطيقون »^(١) .
ولا بأس بالمحاولات التي ترقى بالإنسان إلى الكمالات .
ولكن لا بد من معرفة طبيعة النفس ، وأخذها بسنة التدرج حتى تألف ما لم تكن تألفه سابقاً؛ فذلك من جميل الحكمة ، وحُسنِ المداراة .
وإن هو أخذ بالحزم دفعة واحدة ، وكلف نفسه ما لا تطيق ، وسلك بها غير طريق الحكمة - أو شك أن يرجع بالخيبة ، وصِفْرِ العِيَّة .
وأعظم ما يعين على ذلك أن يحرص الإنسان على تقوية إرادته؛ فالإرادة القوية إرادة تُقدم على ما قصدت مهما كلفها من المشاق ، ولا تتحجم أمام العقبات التي تعترضها ، وإنما تبذل ما في وسعها لتذليلها ، ولا شيء عندها أصعب من عُذُولها عن قصدها .
والمقصود بالإرادة ههنا إنما هي الإرادة المتوجهة إلى الخير ، فمن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حقٍّ ، أو إقامة مصلحة .
وهذه الإرادة هي سر النجاح في الحياة ، وهي عنوان عظماء الرجال ، الذين إذا أزمعوا أمراً لم يُثْنِهم عنه شيء ، بل يسلكون إليه كل سبيل ، ويركبون له كل صعب وذلول .
فلقوة الإرادة أثرٌ عظيمٌ في انقلاب حال الأفراد والجماعات؛ فكم من فتى يساويه في نباهة الذهن ، وسائر الفضائل فتیان كثيرون .
ولكنه يجد من قوة الإرادة ما لا يجدون ، فيكون له شأن غير شأنهم ، ويبلغ في المحامد شأواً أبعد من شأوهم .

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٥) .

= ولو نظرت إلى كثير ممن ظهروا أكثر مما يظهر غيرهم ، وأقمت موازنة بينهم وبين كثير من لداتهم لم تجد في أولئك الظاهرين مزية يرجح بها وزنهم غير أنهم يهتمون بالأمر فيعملون.

والإرادة قد يعتريها ما يعتريها من الأمراض فلا تستطيع مقاومة الأهواء ، والشهوات ، ولا تتحمل المسؤوليات والتبعات ، فيستسلم صاحبها لسورة الجهل ، أو ثورة الغضب ، وينأى بنفسه عن تحمل المسؤوليات التي تناط به. ومن المظاهر التي تعتري الإرادة أن يرى الإنسان الخير في شيء ، ويرى وجوب عمله ، ويعزم عليه ، ثم تخونه إرادته ، فيستسلم للخمول والكسل. وعلاج تلك الإرادة يمكن بأنواع من العلاج ، منها المجاهدة: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٦٩ ﴾ العنكبوت. ومنها محاسبة النفس؛ فإن أجادت وعملت أجمها ، وأراحها ، وأرسلها على سجيتها في المباح بعض الوقت.

وإذا قصرت وتوانت أخذها بالحزم والجد ، وحرمتها من بعض ما تريد. على أنه لا ينبغي أن يطيل في محاسبة النفس؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى انقباض النفس وانكماشها.

ومنها الإقبال على الله بكثرة التعبد؛ فذلك مما يقوي إرادته ، وعزيمته في الإقدام على الخير، والإقلاع عن الشر، ويروضه على الفضائل الشاقة كالصبر، والثبات، والحزم، والعزم، وتحرره من الشهوات وملكها لعنانه. ومن أعظم ما يعين على ذلك تعريف النفس طرق الخير والشر؛ فقد تكون الإرادة قوية ، ولكن مرضها في اتجاهها وميلها نحو الجرائم والشور.

= فعلاجها حينئذ أن نعرف النفس طرق الخير والشر ، وأن نلزمها سلوك سبيل الخير ، وأن نحوطها بكل ما يحببها بالخير ، وأن نتذرع بالصبر في مقاومة ميلها إلى الشرور؛ حتى تهتدي إلى الصراط المستقيم ، كما نفعل بالشجرة الفتية إذا نحن آسننا منها اعوجاجاً فإننا نحوطها بكل ما يصلح وجهتها ، ونقاوم اعوجاجها مدة حتى تستقيم قناتها ، ويصلب عودها؛ فلا تتأثر بعد ذلك بشيء .

وبالجمل فكل مجهود يبذل في مقاومة هوى أو شهوة ، ثم يؤدي التغلب عليهما لكسب الإرادة - يعد قوة وشجاعة^(١) .

(١) انظر الأخلاق لأحمد أمين ص ٥٢-٥٦ ، و ٦٦ ، ورسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين ٦٥/١-٦٦ ، وعيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي ص ٥٣٨-٥٣٩ ، والهمة العالية ص ٢٣٥-٢٤١ .

وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية حلوة، وبذلك يزيد صفاء اللذات، وتزول الأكدار^(١).

(١) هذا المقطع بيان للسبب التاسع عشر من أسباب السعادة، ألا وهو اعتياد النظر إلى الجانب المشرق، وهو مما أفاده المؤلف رحمه الله من ديل كارنيجي؛ حيث عقد في كتابه (دع القلق) فصلاً في ذلك وهو الفصل السابع عشر، وعنون له بقوله: «اصنع من الليمونة المالحة شراباً حلواً»^(١).

ثم شرع في تفصيل ذلك من خلال المواقف، والأمثال، والقصص، والحكم. ثم ختم هذا الفصل بقوله: «و- إذا- فلكي تتخذ اتجاهها ذهنياً يجلب لك الراحة والسعادة اتبع القاعدة رقم ٦: عندما تلقى المقادير بين يديك ليمونة ملحة حاول أن تصنع منها شراباً سائغاً حلواً»^(٢).

والمعنى أن تنظر إلى الجانب المشرق من كل أزمة تمر بك، وتنغص حياتك؛ فإنك إذا استرسلت مع اجترار تداعياتها، وما سينجم عنها من الخطر الذي يهدد مستقبلك وسعادتك- أو شككت تلك الأزمة أن تفتك بقلبك ومشاعرك.

وإن أنت نظرت إلى جانبها المشرق، وما تنطوي عليه من الحكم والأسرار، والألطف الربانية، والأجور المترتبة عليها، وما يعقبها من حميد العاقبة، وجميل التجربة، ولزوم التحوُّط، وحسن النظر في قابل الأيام- كانت تلك الأزمة برداً وسلاماً؛ فلا تخلو محنة من منحة، ولا شرٌّ من خير؛ فليس هناك شرٌّ محض من كل وجه.

وذلك عام في شتى أمور الإنسان الخاصة والعامة.

(١) دع القلق ص ١٨٢.

(٢) دع القلق ص ١٩٠.

اجعل الأمور النافعة نصب عينيك، واعمل على تحقيقها، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة؛ لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن، واستعن بالراحة، وإجمام النفس على الأعمال المهمة^(١).

(١) هذا شروع في ذكر السبب العشرين من أسباب السعادة، ألا وهو الحرص على ما ينفع.

وهذا المقطع مما أفاده الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله من ديل كارينجي في كتابه (دع القلق) حيث خصص لذلك السبب فصلين: الأول منهما وقد عنون له بقوله: «الفصل الثالث والعشرون: كيف تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك»^(١). ثم شرع في شرح ذلك^(٢).

ومن أقواله التي أوردها قوله: «أكثر من الراحة، واسترح قبل أن يفاجئك التعب»^(٣).

ثم ختم ذلك الفصل بقوله: «دعني أكرر ما أسلفت: افعل كما يفعل الجيش؛ استرح في فترات متقطعة.

بل افعل كما يفعل قلبك قبل أن يدركك التعب، وبذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك»^(٤).

وأما الفصل الآخر فهو الفصل الرابع والعشرون، وقد عنون له بقوله: «الفصل الرابع والعشرون: كيف تتخلص من التعب»^(٥).

(١) دع القلق ص ٢٣٧.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٣٧-٢٤١.

(٣) دع القلق ص ٢٣٨.

(٤) دع القلق ص ٢٤١.

(٥) دع القلق ص ٢٤٢.

= فقول الشيخ السعدي: «اجعل الأمور النافعة نصب عينيك»: يعني لا تشغل نفسك بما لا ينفعك فضلاً عن أن تشغلها بما يضرك. وقوله: «واعمل على تحقيقها»: يعني لا يكفي مجرد التفكير بما ينفع، بل لابد أن يستتبع ذلك عمل، وإلا كان أمانياً، وكانت الحال كما قال أبو تمام: من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولاً وقوله: «ولا تلتفت...» إلى قوله: «والحزن»: يشير بذلك إلى أن الأمور الضارة كاسمها؛ تضر، ولا تجدي نفعاً، ولا تطفئ لوعة. فإذا ضربت عنها صفحاً كنت جديراً بالسعادة؛ إذ لهوت عن كل سبب جالب للقلق.

وقوله: «واستعن بالراحة»: أي لا تنتظر حتى يبلغ بك الإعياء مبلغاً، فتسقط مريضاً، أو مغشياً عليك؛ إذ إن كثيراً من ذوي الهمم ينهمك في العمل، ويواصل القيام به؛ رغبة في دقائق يغنمها، ثم تكون النتيجة أن يمرض من جراء ذلك، أو ينام نوماً طويلاً يخسر من خلاله ساعات، وربما أياماً. وقوله: «وإجمام النفس على الأعمال المهمة»: قوله: «إجمام» جاءت في أكثر الطبقات هكذا (إجماع).

وهذا خطأ؛ إذ جاء في الطبعة الأولى لهذه الرسالة هكذا: (إجمام).

وهذا أنسب؛ إذ الإجمام يلائم الراحة.

ويقصد بذلك أن تعطي نفسك قسطاً من الراحة قبل الإقدام على عمل مهم يترتب عليه قرارات، أو تبعات؛ فإن الراحة قبل ذلك العمل تعين على دقة التأمل وحسن النظر، وسلامة القرار، وصحة الحكم، وجودة الرأي.

ومن الأمور النافعة^(١) حسم الأعمال في الحال، والتفرغ في المستقبل^(٢)؛ لأن الأعمال إذا لم تحسم اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة؛ فتشدد وطأتها؛ فإذا حسمت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلية بقوة تفكير، وقوة عمل^(٣).

(١) قوله: «ومن الأمور النافعة»: أي التي تنفع الإنسان في معاشه، وتجلب له السعادة الحاضرة.

وفي هذا شروع في ذكر السبب الحادي والعشرين من أسباب السعادة؛ ألا وهو الحزم في حسم الأعمال.

(٢) قوله: «حسم الأعمال في الحال، والتفرغ في المستقبل»: يعني سرعة الإنجاز، والحذر من التأجيل بلا مسوغ؛ فذلك من أسباب السعادة، والشعور بالراحة خصوصاً ما كان ذلك واجباً تمليه عليه طبيعة العمل، قال الشاعر القروي: **وَنِمْتُ عَلَى رِيَشِ النِّعَامِ فَلَمْ أَجِدْ فِرَاشاً وَثِيراً مِثْلَ إِتْمَامِ وَاجِبِي** وقد أفاد الشيخ السعدي رحمته الله هذه الفائدة من ديل كارينجي، حيث يقول: «إذا ظهرت لك مشكلة فاعمد إلى حسمها فور ظهورها؛ لا تؤجل قراراً تستطيعه اليوم إلى غد»^(١).

(٣) قوله: «لأن الأعمال...» إلى قوله: «وقوة عمل»: يشير بذلك إلى لزوم المبادرة في إنجاز الأعمال، والحرص على تنفيذها، والحذر من تأجيلها؛ لما في ذلك من الحزم، وتعجل الراحة، ولما في التأجيل، والتسويف من تراكم الأعمال وضعف الإجابة فيها؛ فالحزم، والحسم -إذا- من أعظم ما يعين على إنجاز العمل الحاضر، والاستعداد للعمل القادم.

(١) دع القلق ص ٢٥٥.

= وهذا المعنى مما تتابعت عليه وصايا الحكماء.

ولو أنعمت النظر في أكثر مشكلات الناس الصحية، أو الاجتماعية، أو الوظيفية، أو الاقتصادية - لوجدت أن التأخر في حسم الأعمال يأتي على رأسها. والحزم مع النفس صفة عظماء الرجال الذين يحترمون أنفسهم، ويتدبرون عواقب أمورهم، فهم ينجزون أعمالهم، ويفنون بمواعيدهم، ولا يدعون للمفاجآت سبيلاً إليهم.

ولا ريب أن ذلك مظهرٌ من مظاهر العظمة الحقة، التي تجعل نصيب صاحبها من الاحترام موفياً غير منقوص.

والذي يلاحظ على ثقافة كثير من مجتمعاتنا أنها لا تحسب حساباً للمستقبل، وإنما تنظر إلى يومها الحاضر فحسب.

والنظر إلى الحاضر، وجمع الهمة عليه أمر محمود، ولكن ذلك لا ينافي النظر إلى المستقبل، وأخذ الأهبة لما سيأتي من أمور.

ولا يراد ههنا الاسترسال في هذا الشأن، وإنما هي إشارات إلى أمر يقع فيه فئامٌ منا؛ إذ يؤجلون كثيراً من أعمالهم التي تنتظر الحسم؛ فإذا جاءت ساعة الصفر، وقرب الموعد الذي لا بد فيه من إنجاز العمل - صاروا يركبون متن عمياء، ويخبطون خبط عشواء، ويوقعون أنفسهم في حرج شديد، وربما أخفقوا أو قصروا في إنجاز ذلك العمل.

والسبب أنهم فرطوا في أوقات السعة؛ فكانت تلك هي النتيجة الحتمية.

وأمثلة ذلك في حياتنا اليومية كثيرة جداً، ومنها ما يحدث عند بعض الطلاب، فتراه طيلة وقت الدراسة يمرح ويؤجل، ويسوّف في المذاكرة، وكتابة الأبحاث المطلوبة منه.

=

= فإذا قرب وقت الامتحان استنفر قواه ، وأجهد نفسه ، وربما كان ذلك على حساب صحته ، وتحصيله .

بل إنك لتعجب من الطلاب حين تراهم قبل الامتحان بدقائق وهم أمام قاعة الامتحان لا يكاد أحدهم يرفع طرفه من كتابه؛ رغبةً في اغتنام ما بقي من وقت ، ولا يكاد يدخل القاعة إلا بعد التي والثتيا .

ولو أنه استعد قبل ذلك لكان خيراً له ، وأحسن تأويلاً .

ومما هو داخل في ذلك القبيل ما تجده عند بعض الأساتذة؛ حيث يؤجل كتابة أسئلة الامتحان حتى إذا لم يبق إلا القليل كتبها على عجل ، وربما كان ذلك على حساب الطلاب .

وبعضهم تكون عنده مناقشة رسالة علمية ، فتمكث عنده شهوراً عديدة دون مسوغ ، فإذا قرب وقت المناقشة لم يبق عنده وقت لقراءة الرسالة ، وربما أتى خالي الوفاض من الملاحظات؛ فكان ذلك على حساب الطالب المناقش ، وربما عوّض الأستاذ ذلك النقص بملاحظات لا قيمة لها ، أو برفع الصوت على الطالب المناقش ، فيعرض الأستاذ نفسه للذم واللوم .

ومن الأمثلة على ذلك ما يكون في أيام المواسم كالأعياد مثلاً؛ فتجد أكثر الناس لا يستعد للعيد قبل مجيئه بأيام ولو كانت قلائل ، بل تراه يؤجل ، حتى إذا جاءت ساعة الصفر ، ولم يبق على العيد إلا ساعات دخل في معترك السوق ، ولقي الأمرين من جراء الزحام الشديد ، وربما لم يحصل على جميع ما يريد .

ومن هذا القبيل ما يكون من حاجيات الأولاد ، وطلباتهم ، فقد تُفاجأ بابنك إذا أردت إنزاله عند باب المدرسة وهو يعطيك تقريره الدراسي يريد منك الاطلاع عليه ، وكتابة توقيعك .

=

= وقد تأتي إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل ، فيقال لك : إن حليب الطفل قد انتهى ، ولا بد من إحضاره في هذه الساعة.

وقل مثل ذلك في شأن مواعيد المطارات ، والولائم ، وتسليم البحوث الطلابية ، ومراجعة الدوائر الحكومية ، وبداية الموسم الدراسي ، وما جرى مجرى تلك الأمور.

وكذلك ما يكون من حال كثير من الموظفين في المؤسسات الحكومية وغيرها؛ إذ دأب فئام منهم التأخر عن الدوام ، وتعطيل المصالح العامة ، وما سبب ذلك - في الغالب - إلا التكاسل ، والرغبة في كسب دقائق للنوم والراحة؛ فإذا جاءت ساعة الصفر هبَّ الموظف كالمذعور ، وربما خرج دون تناول إفطاره إذا كان الوقت صباحاً ، أو يتناوله على عجل ، وربما سار بسرعة جنونية ، وربما تجاوز إشارات المرور الحمراء؛ فيصِلُ وهو نائر النفس ، مشدود الأعصاب ، فيلقى ما يلقى من اللوم ، أو الحسم ، أو النظرات الشَّرِّرة التي تنال من سعادته ، وكرامته.

وهكذا الحال بالنسبة للصحة ، حيث تجد كثيراً منَّا يفرط في صحته ، ويدع المبادرة للعلاج؛ كسلاً ، وتهاوناً؛ فإذا ساءت صحته دفع الثمن أضعافاً مضاعفة من وقته وماله.

وإليكم مثلاً واحداً ألا وهو موضوع الأسنان ، فالواحد منَّا يدعُ المبادرة لعلاجها ، حتى إذا تهالكت راجع الطبيب بعد أن يفوت الأوان.

والأدهى في هذا الباب ما يكون في شأن الفرائض؛ حيث يلحظ على كثير منَّا تماديه في الشغل أو النوم حتى إذا قَرُبَ وقت الصلاة -مثلاً- نهض بسرعة ، =

= وعجل في الوضوء، وربما أخل به، فلا يأتي الصلاة إلا وقد فاتته ركعة أو ركعات، وربما فاتته الصلاة، بل ربما خرج وقت الصلاة ولما يؤدّها بعدُ. وهكذا الحال بالنسبة للصيام حتى إنك لتجد من يتشاغل بالكلام، أو النوم، أو بعض الأعمال، حتى إذا قرب وقت الإمساك صار يأكل ويشرب بسرعة قد تُضربُ بصحته، وربما طلع الفجر ولما يتسحرُ بعدُ. ولا يعني ما مضى أن يكون المرء كالألة، أو ألا يقع منه الخلل أو التقصير البتة. وإنما المقصود ألا يكون الخلل، والكسل، والتواني دأبه في سائر أحواله وأيامه. وهذا ما يؤكد لنا ضرورة المعالجة لمثل هذه الأمور، وأن نُعوِّد أنفسنا ومن تحت أيدينا على البعد عن المضايق، وعلى التصرف في أوقات السعة، وأن نشيع في بيوتنا، ومدارسنا، ودوائرنا، ومجتمعاتنا عموماً ثقافة الحزم، والمبادرة، واحترام المواعيد، وإنجاز الأعمال في أوقاتها^(١).

هذا وإن مما يعين على حسم الأعمال أمور كثيرة منها:

أ- أن نستحضر قيمة الزمن، وندرك بأنه محدود: فإذا كان الأمر كذلك، وكان لا يمكن أن يمد في الزمن أو يقصر، وكانت قيمته في حسن إنفاقه - وجب أن نحافظ عليه، وأن نستعمله أحسن استعمال.

قال ابن الجوزي رحمته الله: «ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل»^(٢).

(١) انظر ارتسامات ص ١٢٨-١٣١.

(٢) صيد الخاطر ٤٦/١.

= وقال الرافعي رحمه الله: « إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمرٌ ما ينبغي أن يستهان به » (١).

والعرب تقول في أمثالها: « اسرِّ وقمرٌ لك »: أي اغتنم ضوء القمر ما دام طالعاً فسر فيه (٢).

ومما ينسب للشافعي رحمه الله قوله:

إذا هجع النوام أسبلت عبرتي وأنشدت بيتاً وهو من أطف الشعر
أليس من الخسران أن ليالياً تمر بلا علمٍ وتحسب من عمري (٣)

ب- الدقة في المواعيد: فهذا مما يعين على اغتنام الوقت، وإتقان العمل؛ فتأخر دقائق عن موعد البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل.

وذلك يؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما الإسراع في العمل، وعدم الدقة فيه؛ لتعويض الزمن الفائت، وإما التعدي على أوقات خُصِّصَتْ لواجبات أخرى.

ج - الحذر من التأجيل: فالعمل المؤجل قلما يُعمل، وإذا عمل فقلما يعمل بإتقان كما لو كان في وقته.

قال ابن المقفع: « إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها؛ فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك، والضجر هو الذي يراكمها عليك » (٤).

(١) وحي القلم ١/ ٢٣٥.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٥٧.

(٣) غذاء الألباب للسفاريني ٢/ ٤٤٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٢.

= د- ألا نحتقر شيئاً ننجزه من العمل: فمما يعين على حسم الأعمال أن نعمر الأوقات بالعمل النافع ولو كان قليلاً، وألا نحتقر ما نبذله من جهد ولو كان يسيراً. بخلاف ما يوجد عند بعض الناس؛ فإما أن يقوم بأعمال كبيرة أو أن يدع العمل جملة؛ ذلك أن للنفوس إقبالاً وإدباراً، وكثير من الجادين يغتنم وقته حال الإقبال دون حال الإدبار؛ فإذا أقبلت نفسه، وهبَّت رياحُه - قام بأعمال جلييلة في مدة قصيرة.

وإذا أدبرت نفسه، وسكنت ريحُه - دبَّ الفتور إليه، وترك العمل بالكلية. والذي تقتضيه الحكمة أن يغتنم المرء وقته حال إقبال نفسه وحال إدبارها؛ فإذا أقبلت ضاعف جهده، واستفرغ ما في وسعه.

وإذا أدبرت وانقبضت فلا يحسن به أن يدع العمل البتة، بل يحسن به أن ينجز أي عمل ولو كان يسيراً، وألا يحتقر ما يقدم ولو كان قليلاً. والعرب تقول: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»^(١).

فالأخذ بهذه الطريقة يفيد كثيراً؛ حيث يبعث المرء لاغتنام وقته، وحسم أعماله، ويهيؤه لاستعادة نشاطه وقدرته، ويريحُه من تراكم الأعمال عليه.

قال ابن حزم رحمته الله: «لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل؛ فإن قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل»^(٢).

وقال: «لا تحقر شيئاً مما ترجوه به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وإن قل؛ فإنه يحط عنك كثيراً لو اجتمع عليك لقذف بك في النار»^(٣).

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٣٧.

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٧-٢٨.

(٣) الأخلاق والسير ص ٢٨.

وينبغي أن تتخير من الأعمالِ النافعةِ الأهمَّ فالأهمَّ، وميِّز بين ما تميل نفسك إليه، وتشتد رغبتك فيه؛ فإنَّ ضِدَّهُ يحدث السَّامةَ والملل والكدر، واستعن على ذلك بالفكر الصحيح، والمشاورة؛ فما ندم من استشار، وادرس ما تريد فعله درساً دقيقاً؛ فإذا تحققت المصلحة، وعزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين^(١).

(١) الكلام في هذه الفقرة -وهي آخر هذه الرسالة- قد مرت الإشارة إليه عند الكلام على أن من أسباب دفع القلق: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم.

والشيخ ههنا أراد التأكيد على هذا المعنى، وأنه يحسن بالإنسان أن ينظر فيما يلائمه من الأعمال، ويبدأ بالأهم فالمهم.

وقد أفاد ذلك من ديل كارينجي الذي يقول: «إن ثمة شيئين لا يشتريان بالمال: القدرة على التفكير، والقدرة على إنجاز الأعمال بحسب ترتيبها في الأهمية»^(١). والأهمية تختلف من جهة نوع العمل، أو وقته، أو كونه سيفوت، أو ما يترتب عليه، وهكذا...

ثم يشير الشيخ إلى أهمية ميل النفس إلى العمل الذي يقوم به الإنسان؛ فذلك من أعظم ما يعين على الإنجاز والإبداع.

ومما يعين على تخير العمل الملائم حسن النظر، واستشارة من يعرف واقع الحال، والاستخارة في الإقدام، أو الإحجام، وتأمل الأمر من جميع جوانبه؛ فإذا رأى الإنسان ملاءمة العمل من جميع جوانبه فليقدم متوكلاً على الله، مستمداً منه العون، والسداد.

(١) دع القلق ص ٢٥٥.

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سؤال أبي القاسم المغربي المعروف بالوصية الصغرى: «فأما تعيين مكسب من صناعة، أو تجارة، أو بناءة، أو حراثة، أو غير ذلك - فهذا يختلف باختلاف الناس، ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً. لكن إذا عَنَّ للإنسان جهة فليستخر الله - تعالى - فيها الاستخارة الشرعية المتلقاة من معلم الناس الخير؛ فإن فيها من البركة ما لا يحاط به. ثم ما تيسر له من العمل فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية»^(١).

(١) شرح الوصية الصغرى ص ٣١٣-٣١٦.

تمت هذه الرسالة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم^(١).

(١) وبهذه الحمدلة، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله وصحبه ختم المؤلف هذه الرسالة الماتعة التي جمع فيها أصولاً نافعة للسعادة؛ فمن أخذ بها كان حرياً بنيل السعادتين، والفوز بالجنتين.

هذا وإن هناك أسباباً أخرى كثيرة، وأصولاً غير ما ذكره المؤلف، وقد ترجع إلى ما ضمَّنه هذه الرسالة، ومنها على سبيل المثال ما يلي:

أولاً: الحرص على إقامة الصلاة: فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وأعظم شعائر الدين العملية.

والكلام عنها، وعن إقامتها، وتكميلها، وما يستتبع ذلك من الثمرات والأجور يطول.

ويكفي في هذا المقام التنبيه على كونها من أعظم أسباب السعادة؛ إذ من ثمراتها أنها قرة للعين، وفرح للفؤاد، قال النبي ﷺ: «حُبُّ إِيَّاهُ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطَّيْبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: «فأخبر أنه حُبُّ إِيَّاهُ مِنْ الدُّنْيَا شَيْئَانِ: (النِّسَاءُ وَالطَّيْبُ) ثُمَّ قَالَ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ).

وقرة العين فوق المحبة؛ فإنه ليس كلَّ محبوبٍ تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ، وإنما تَقَرُّ بِأَعْلَى الْمَحْبُوبَاتِ الَّذِي يُحِبُّ لِدَاتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٣٦٢٣) والنسائي والحاكم في المستدرک (٦٠/٢)، وقال: هذا صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٣١-٣٢.

= إلى أن قال ﷺ: « فالصلاة قرّةُ عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيه من مناجاة مَنْ لَا تَقْرُّ العيونُ، وَلَا تَطْمئنُّ القلوبُ، وَلَا تَسكنُ النفوسُ إِلَّا إليه، والتنعّم بذكره، والتذلل والخضوع له، والقرب منه ولاسيما في حال السجود، وتلك الحال أقربُ ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول ﷺ: (يا بلال! أرحنا بالصلاة).

فَأَعْلَمُ بذلك أن راحته ﷺ في الصلاة، كما أخبر أن قرّة عينه فيها، فأين هذا من قول القائل: نصلي ونستريح من الصلاة؟!

فالمحب راحته، وقرّة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلّص منها، وأحب الصلاة إليه أعجلها، وأسرعها؛ فإنه ليس له قرّة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، والعبد إذا قرّت عينه بشيء، واستراح قلبه به فأشق ما عليه مفارقتة، والمتكفّل الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة وأكره ما إليه طولها مع تفرغه، وصحته، وعدم اشتغاله»^(١).

ثانياً: البعد عن الذنوب والمعاصي: فإن لها أضراراً عظيمةً، وعقوباتٍ متنوعةً، سواء في الدنيا أو في الآخرة، على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات.

فمن أضرارها حرمانُ العلم والرزق، والوحشة التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس. ومنها تعسيرُ الأمور، وسوادُ الوجه، ووهنُ البدن، وحرمانُ الطاعة، وتقصيرُ العمر، ومحقُ بركته.

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٣٣-٣٤.

= ومنها ظلمة القلب، وضيقه، وحزنه، وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه، واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعرّيه من زينته.

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها، وتقوي في القلب إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب بالكلية، فيستمرىء صاحبها المعصية، وينسلخ من استقباحتها.

ومن أضرار المعاصي أنها تُنزلُ الرعبَ في قلب العاصي، وتزيل أَمْنَهُ، وتبدله به مخافةً؛ فأخوف الناس أشدهم إساءة.

كذلك تُخرِجُ العبدَ من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين، وتضعف سير قلبه إلى الله والدار الآخرة، وتصغر نفسه، وتعمي قلبه، وتسقط منزلته، وتسلبه أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذل والصغار، وتجعله من السفلة بعد أن كان مهياً لأن يكون من العلية، وتجريء عليه شياطين الجن والإنس، فيصير في أسرهم بعد أن كانوا يخافونه ويرهبونه.

ومنها وقوع العاصي في بئر الحسرات؛ فلا يزال في حسرة دائمة؛ فكلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعاف ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه؛ فيا لها ناراً قد عُدِّبَ بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

ومنها ضياع أعز الأشياء وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض عنه، ولا يعود إليه أبداً.

= وبالجملة فالآثار القبيحة للمعاصي أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً؛ فخير الدنيا والآخرة مجذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة مجذافيره في معصية الله^(١).

قال ابن القيم رحمه الله مبيناً فوائد ترك المعاصي: «سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك المعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أؤذي أو ظلم، ودُبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدمه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك =

(١) انظر الجواب الكافي فيه تفصيل لتلك الأضرار، وانظر طريق الهجرتين ص ٤٥٠-٤٥٤.

= الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، وَوَجَدُ حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تَلَقَّته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، ويتنقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، و﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الجمعة: ٤ (١).

ثالثاً: طهارة القلب، وسلامة المقاصد: فكل إنسان يرى الدنيا من خلال عمله، وفكره، وبواعثه؛ فإذا كان عمله حسناً، وقلبه طاهراً، ومقاصده سليمة - كان منظاره الذي ينظر به إلى الدنيا صافياً نقياً، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت، فسعد بنفسه، وأسعد غيره، وإلا تغبش منظاره، وأسود زجاجه، وساء ظنه بنفسه وبغيره، فرأى كل شيء أسود مغبشاً.

فإذا اتسم الإنسان بطهارة القلب، وسلامة المقاصد - عاش برخاء، وهناء، وعافية، وسلامة من أمراض القلوب كالحسد، والغل، والحقد، وما جرى مجرى ذلك.

(١) الفوائد ص ٢٢١-٢٢٢.

= رابعاً: سلامة الذوق: فمن أهم أسباب السرور والابتهاج بالحياة أن يكون للمرء ذوق سليم مهذب، يعرف كيف يستمتع بالحياة، ويحترم شعور الناس، ولا ينجس عليهم، بل ويدخل السرور على أنفسهم؛ فالذوق السليم يستجلب القلوب، ويدخل السرور على نفس صاحبه ومن حوله.

بل إن رقي الذوق قد يكون أكثر أثراً في سعادة الأمم من رقي العقل؛ ذلك أن الذوق إذ رقى أنف من الأعمال الحسيسة، والأقوال النابية، والأفعال السخيفة.

والذوق السليم إذ رقى في الأمة رقى أخلاقها، وسما بهمها.

خامساً: سعة الأفق: لأن من أهم أسباب الحزن ضيق الأفق، وكثرة تفكير الإنسان في نفسه، حتى كأنها مركز العالم، وكأن الشمس، والقمر، والنجوم، والسعادة، والرخاء كلها خلقت لشخص؛ فهو يقيس كل المسائل بمقياس نفسه، ويديم الفكر فيها، وفي علاقة العالم بها.

وهذا - من غير ريب - يوجد البؤس والشقاء والحزن؛ فمحال أن يجري العالم على وفق ما تريده نفسه؛ لأن نفسه ليست هي المركز، وإنما هي نقطة صغيرة على المحيط العظيم.

فإن هو وسع أفقه، ونظر إلى العالم الفسيح من حوله، ونسي نفسه أحياناً، ونسي نفسه كثيراً في سبيل مصلحة عامة أو نحو ذلك - شعر بأن الأعباء التي ترزح تحتها نفسه، والقيود الثقيلة التي ينوء بها كاهله - قد خفت كثيراً، وتحللت شيئاً فشيئاً.

وهذا هو السبب في أن أكثر الناس فراغاً هو أشدهم ضيقاً بنفسه؛ لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها، فإن هو استغرق في عمله، وفكر في أمته كان له من ذلك لذة مزدوجة: لذة الفكر والعمل، ولذة نسيان الهموم^(١).

(١) انظر تفصيل ذلك في فيض الخاطر لأحمد أمين ١٩٧/٢-٢٠٥، و ٢٠٣/٤، و ١٢٦/٦-١٢٩،

و ٢٠٦/١٠-٢٠٩، و ٢٢٣.

= قال الرافعي رحمته الله: « إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغر وتضيق ، وأدركت أن دنيائك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي » (١).

سادساً: عرض الحال على من يعين: فقد يكون بعض الناس في ضائقة ، وقد تكون يسيرة جداً ، ولكنه يراها كبيرة جداً ، وأنها قد سدّت الأفق أمامه؛ فلا يمكنه الخروج منها ، وأنه أشقى من يمشي على وجه البسيطة. ولو أنه عرضها على عاقل ، فاستشاره في شأنه لربما زال عنه القلق والاضطراب ، وربما فتح له أبواباً كثيرة من الصواب.

وهذا محل قول الحكيم العربي :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يسئلك أو يشكيك أو يتوجع وقد تكون المصيبة كبيرة جداً فيحتاج - حينئذ - إلى من يعينه على تخطيها. فإذا ما انطوى الإنسان على حاله ، وانكمش بعيداً مستسلماً لأوهامه ووساوسه - فإن بلاءه سيستطير ، وإن قلقه سيتضاعف.

وأما إذا كان ما يصيب الإنسان من نوع القلق الشديد ، والاكتئاب الحاد - فلا بد له من عرض حاله على طبيب نفسي؛ إذ قد يكون علاجه يسيراً ، أو قد يحتاج إلى مدة من الزمن تطول أو تقصر ، شأنه في ذلك شأن سائر الأمراض العضوية. وهذا أمر قد يتحرج منه بعض الناس خصوصاً في القديم.

=

(١) وحي القلم ١/ ٥٠ .

= أما الآن فقد زال ذلك الحرج مع ازدياد ثقافة الناس الطيبة ، وتطور الطب النفسي ، ورؤية ما يقوم به من دور كبير في معالجة كثير من الحالات المستعصية. والناس يرون بأعينهم آثار تلك النتائج.

وهناك أسباب غير ذلك ، وقد يسر الله لي كتابة شيء من هذا القبيل بشيء من البسط والتفصيل في غضون بعض ما أعان الله على تأليفه من الكتب؛ ككتاب مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث ، وهو في ثلاث مجلدات ، وفيه مقالات كثيرة تدور حول السعادة.

وكذلك ما جاء في كتب : (الهمة العالية) و(التوبة ووظيفة العمر) و(خواطر) و(ارتسامات) و(ومضات) و(بصائر) و(نظرات) و(شذرات)؛ فقد أودعت في تلك الكتب الثمانية الكثير من أسباب السعادة على وجه التفصيل.

وفي الختام أسأل الله -جل ثناؤه- أن يجزي الشيخ عبدالرحمن السعدي خير الجزاء ، وأن ينفع بهذا الشرح ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم؛ إنه سميع قريب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

المحتويات

٣	- المقدمة
	تمهيد: تعريف بالمؤلف والرسالة، وآراء الناس في السعادة، ونص
٧	الرسالة
٩	أولاً: تعريف بالمؤلف:
٩	١- نسبه ومولده
٩	٢- وصفه الخُلقي
١٠	٣- أخلاقه
١٠	٤- أعماله
١١	٥- مرضه ووفاته
١١	٦- علمه
١٣	ثانياً: تعريف بالرسالة:
١٣	١- اسم الرسالة، وسبب تأليفها
١٩	٢- طبع الرسالة
٢٢	٣- مجمل ما احتوت عليه الرسالة
٢٤	ثالثاً: آراء الناس في السعادة
٣٠	رابعاً: نص الرسالة
٤٥	شرح الرسالة
٤٧	- مقدمة المؤلف

- ٤٨ - شرح قوله: «فإن راحة القلب...»
- ٤٩ - شرح مجمل أسباب السعادة عنده
- شرح قوله: «وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسها هو الإيمان والعمل الصالح»: ٥٤
- ٥٤ **شروعه في ذكر السبب الأول للسعادة: الإيمان والعمل الصالح**
- ٥٤ - مفهوم الإيمان والعمل الصالح
- ٥٦ - شرح إيراد المؤلف لما وُعد به من جمع بين الإيمان والعمل الصالح
- ٥٧ - كلام لابن حزم في سعي الناس لطردهم والسبيل إلى ذلك
- ٥٨ - كلام لابن تيمية في أثر الإقبال على الله في سعادة الإنسان
- ٦١ - شرح قوله: «وسبب ذلك واضح...»
- ٦١ - تعريفات وفروقات بين القلق، الهم، والغم، والحزن
- ٦٢ - بيان المؤلف لأثر الإيمان والعمل الصالح في السعادة، وشرح ذلك
- ٦٤ - شرح قوله: «يتلقون المحابَّ والمسارَّ بقبول لها...»: ٦٤
- أحوال الشاكرين للنعم، والكافرين بها: سليمان - عليه السلام - وهامان ٦٥
- ٦٦ - قصة سبأ مع النعم
- ٦٨ - قوله: «ويتلقون المكاره، والمضارَّ، والهم، والغمَّ بالمقاومة...»: ٦٨
- ٧٠ - وقفة مع حديث: «عجباً لأمر المؤمن...»: ٧٠
- ٧٠ - لزوم الاعتدال حال السراء والضراء وأثره في السعادة

- ٧١ - آثار وأقوال ، وأشعار وأخبار في ذلك
- ٧٦ - أعظم مثال للاعتدال حال السراء والضراء
- شرح قوله : «لهذا تجداً اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير والشر
فيتفاوتان ...» :
- ٧٨
- ٧٩ - تلقي المؤمن للخير والشر
- ٨١ - تلقى غير المؤمن للمكاره
- ٨٧ - القناعة وأثرها في السعادة
- ٨٩ - شرح قوله : «فالمؤمن إذا ابتلي بمرض ، أو فقر ، أو نحوه ...» :
- ٩٠ - حال من ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان إذا ابتلي بشيء من الفقر
- ٩٠ - بيتان لابن الرومي في الحث على ترك التطلع
- ٩٠ - حديث (قد أفلح من أسلم ...)
- ٩٠ - شرح للشيخ عبدالرحمن السعدي لهذا الحديث
- ٩٢ - حال صحيح الإيمان إذا حدثت له أسباب الخوف
- ٩٣ - مثال لذلك : حسن تعامل مريم -عليها السلام- مع الهم
- ٩٩ - حال فاقد الإيمان إذا وقعت له المخاوف
- شرح قوله : «فالبر والفاجر والمؤمن والكافر يشتركان في جلب
الشجاعة الاكتسابية ... ولكن يتميز المؤمن ...» :
- ١٠٤
- ١٠٥ - سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- أعظم مثال للتعامل مع الخوف
- ١٠٥ - وقفات مع سيرة موسى - عليه السلام - في تعامله مع الخوف

- شروع المؤلف في بيان السبب الثاني من الأسباب التي تزيل الهم ، وهو الإحسان إلى الخلق ، وشرح ذلك : ١٠٩
- أنواع الإحسان ١٠٩
- شرح قول المؤلف : «وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها» : ١١١
- كلام لابن القيم حول هذا المعنى ١١١
- شرح قول المؤلف : «ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب ...» ١١٣
- شروع المؤلف في بيان السبب الثالث لدفع القلق ، وهو : الاشتغال بما ينفع ، والبعد عن الفراغ والبطالة ١١٥
- أمثلة للاشتغال بما ينفع : ١١٦
- كلام لابن عقيل الحنبلي ١١٦
- قصة لابن باز في الاشتغال بما ينفع ١١٦
- شرح قول المؤلف : «وهذا السبب مشترك بين المؤمن وغيره ، ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه ...» : ١١٨
- شرح قول المؤلف : «فلذلك أثره الفعال في دفع الهموم والغموم والأحزان...» : ١٢١
- اللذات العقلية أعظم من اللذات الحسية ١٢٢
- لذة الاشتغال بالعلم : أقوال وأشعار في ذلك ١٢٢
- شروع المؤلف في بيان السبب الرابع وهو اجتماع الفكر على العمل ١٢٥

الحاضر:

- ١٢٥ - شرح قوله: «ومما يدفع به الهم والقلق اجتماع الفكر...»: ١٢٥
- ١٢٦ - إشارات القرآن الكريم لهذه القاعدة ١٢٦
- ١٢٧ - شرح الشيخ السعدي لها ١٢٧
- ١٢٨ - أقوال لأهل التجارب والنظر في ذلك ١٢٨
- ١٣٠ - شرح قول المؤلف: «ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهم والحزن...»: ١٣٠
- ١٣٢ - شروع المؤلف في بيان السبب الخامس وهو الإكثار من ذكر الله: ١٣٢
- شرح قوله: «ومن أكبر الأسباب لانشرح الصدر وطمأنينته الإكثار من
١٣٢ ذكر الله...»: ١٣٢
- ١٣٤ - جملة من فوائد الذكر، ومعاني وفضائل أهم الأذكار ١٣٤
- شروع المؤلف في بيان السبب السادس، وهو التحدث بنعم الله الظاهرة
١٣٨ والباطنة: ١٣٨
- ١٣٨ - شرح كلام المؤلف لهذا السبب، وبيان أثر الشكر في حصول السعادة ١٣٨
- شرح قول المؤلف: «حتى ولو كان العبد في حالة فقر، أو مرض، أو
١٤١ غيرهما...»: ١٤١
- شرح قوله: «بل المكروه والمصائب إذا ابتلي بها العبد...»: إلى قوله:
١٤٢ «فتنسيه حلاوة أجرها مرارة صبرها»: ١٤٢
- ١٤٣ - كلمة ليحيى بن معاذ، وأبيات، وكلمة لابن القيم في الرضا ١٤٣
- ١٤٥ - قصة عجيبة في الشكر لابي قلابة الجرمي ١٤٥

- شروع المؤلف في بيان السبب السابع وهو نظر الإنسان إلى من هو دونه
 ١٤٨ في سائر النعم الدنيوية :
- استشهاد المؤلف بحديث : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ... » :
 ١٤٨
- تعليقه على هذا الحديث بما يناسب المقام
 ١٤٩
- شرح كلام المؤلف ، وكلمة لابن بطال في شرح الحديث ، وبيتان لابن
 العميد في هذا الشأن
 ١٤٩
- وقفة مع قوله -تعالى- : ﴿ ولا تمدن عينيك ... ﴾ :
 ١٥١
- كلمة لأبي بن كعب في الآية
 ١٥١
- تفسير السعدي لهذه الآية
 ١٥١
- بيتان لأبي فراس في هذا المعنى
 ١٥٢
- شروع المؤلف في بيان السبب الثامن وهو السعي في إزالة أسباب الهم ،
 وفي تحصيل أسباب السرور :
 ١٥٣
- شرح قول المؤلف : « ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم ... »
 ١٥٣
- شرح قوله : « بنسيان ما مضى ... » :
 ١٥٣
- أمثلة من اجترار الماضي
 ١٥٤
- كلمات لديل كارينجي في هذا المعنى
 ١٥٥
- شرح قول المؤلف : « وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله مما يتوهمه
 ... »
 ١٥٨
- شرح قوله : « فيعلم أن الأمور المستقبلية ... بيد العزيز الحكيم ... »
 ١٦٠

- ١٦٢ - شروع المؤلف في بيان السبب التاسع وهو الأخذ بالدعاء:
- استشهاد المؤلف بحديث: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري...» وحديث: «اللهم رحمتك أرجو...»
- ١٦٢ - شرح الحديثين
- ١٦٢ - كلمات، وأبيات حول الدعاء وفضله، والحث على سؤال الله كل صغيرة وكبيرة
- ١٦٥ - شروع المؤلف في بيان السبب العاشر وهو حسن التعامل مع المكاره:
- شرح قوله: «ومن أنفع الأسباب الموجبة لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد شيء من النكبات أن يسعى في تخفيفها بأن يقدر أسوأ الاحتمالات...»:
- ١٦٨ - كلمات لديل كارينجي في هذا الشأن
- ١٦٨ - توطين النفس على وقوع المكروه لا ينافي التفاؤل
- ١٧٠ - شرح قوله: «فإذا فعل ذلك فليُسع إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان...»
- ١٧١ - شرح قوله: «فإذا حلت به أسباب الخوف... فليتلق ذلك بطمأنينة...»
- ١٧٣ - كلمة لابن القيم في حسم مادة الخوف
- ١٧٤ - شروع المؤلف في بيان السبب الحادي عشر وهو قوة القلب، وعدم انزعاجه:
- ١٧٦ - شرح قوله: «ومتى اعتمد القلب على الله... اندفعت عنه الهموم والغموم...»
- ١٧٩

- شرح قوله: «فكم ملئت المستشفيات من مرض الأوهام... وكم أدت بهم إلى الحمق والجنون»: ١٨٠
- كلام عن كثرة الانتحار في البلاد التي لا تؤمن بالقضاء والقدر ١٨٠
- شرح قوله: «والمعافى من عافاه الله، ووقفه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقيمة للقلب...»: ١٨٢
- شروع المؤلف في بيان السبب الثاني عشر وهو حسن التعامل مع نقائص البشر، وتوطين النفس على تحمّل عيوبهم: ١٨٣
- شرح قوله: «وفي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يَفْرَكُ مؤمن مؤمنةً) فائدتان عظيمتان...»: ١٨٣
- شرح قوله: «إحدهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة، والقريب والصاحب، والمعامل، وكل من بينك وبينه علاقة اتصال، وأنه ينبغي أن توطن نفسك...»: ١٨٥
- أبيات وكلمات في حسن المعاشرة، وتذكر المحاسن، والأخذ بالمداراة ١٨٦
- شرح قوله: «وبهذا الإغضاء عن المساوئ، وملاحظة المحاسن تدوم الصحة... وتحصل لك الفائدة الثانية، وهي زوال الهم والقلق...»: ١٩١
- شرح قوله: «ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ... فلا بد أن يقلق...»: ١٩٢
- كلام حول كيفية التعامل مع نقائص الناس ١٩٢
- بيتان للأحيمر السعدي، والشنفرى ١٩٢
- نظرية الطبلون في التعامل مع البشر ١٩٣

- شروع المؤلف ببيان السبب الثالث عشر، وهو توطين النفس على
القيام بصغار الأمور وكبارها :
١٩٦
- شرح قوله : « وكثير من الناس ذوي الهمم العالية يوطنون أنفسهم عند
وقوع الكوارث لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون ، ويتكدر
الصفاء ... »
١٩٦
- كلام لديل كارينجي حول هذا المعنى
١٩٧
- أمثلة من السير على ذلك : قصة لأحمد بن طولون مع ابنه العباس
١٩٩
- مثال في العصور المتأخرة لمن يأخذ بذلك : الشيخ ابن باز
٢٠٢
- فصل عقده المؤلف وذكر فيه أفكاراً متفرقة لبلوغ السعادة وطرد الهم
٢٠٤
- شرح قوله : « والعاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياة السعادة... »
٢٠٤
- شروع المؤلف ببيان السبب الرابع عشر، وهو لزوم الشكر، والأخذ
بالمقارنة الصحيحة
٢٠٥
- شروع المؤلف ببيان السبب الخامس عشر، وهو حسن التعامل مع أذية
الناس :
٢٠٧
- شرح قوله : « ومن الأمور النافعة أن تعلم أن أذية الناس لك
لا تضرك ، بل تضرهم إلا إذا أشغلت نفسك في الاهتمام بها ... »
٢٠٧
- أبيات وكلمات وحكم في ذلك المعنى
٢٠٧
- السلامة من الناس عزيزة المنال
٢٠٩
- التعامل الأمثل مع كلام الناس ، وكيف تكون المبالاة بذلك
٢٠٩

- ٢١١ - إفادة الشيخ السعدي من دليل كارنيجي في ذلك
- ٢١٢ - أسباب ذكرها ابن تيمية تعين على حسن التعامل مع أذى الناس
- ٢١٤ - شروع المؤلف ببيان السبب السادس عشر، وهو إصلاح الأفكار،
والخواطر:
- ٢١٤ - شرح قوله: «واعلم أن حياتك تبع لأفكارك...»:
- ٢١٤ - كلمات لابن القيم في إصلاح الخواطر والأفكار
- ٢١٦ - إفادة الشيخ السعدي من دليل كارنيجي في هذا السبب
- ٢١٧ - شروع المؤلف في السبب السابع عشر، وهو توطين النفس على تَطَلُّب
الشكر من الله دون من سواه:
- ٢١٧ - شرح قوله: «ومن أنفع الأمور لطردهم أن توطن نفسك على ألا تَطَلُّب
الشكر إلا من الله...»
- ٢١٨ - موقف لعبد الله بن جعفر لما سمع بيتين من الشعر يحثان على قَصْرِ المعروف
على الشاكرين فحسب
- ٢١٨ - بيتان للفقير بن السراج في ذلك
- ٢١٨ - موقف لأبي الديك المعتوه
- ٢١٩ - شرح قول المؤلف: «ويتأكد هذا في معاملة الأهل، والأولاد، ومن قوي
اتصالك بهم...»
- ٢٢٢ - شروع المؤلف في ذكر السبب الثامن عشر وهو الأخذ بالفضائل:
- ٢٢٣ - تقوية الإرادة وأثرها في الأخذ بالفضائل
- ٢٢٦ - شروع المؤلف ببيان السبب التاسع عشر وهو اعتياد النظر إلى الجانب

المشرق:

- ٢٢٦ - شرح قول المؤلف: «وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية...»
- ٢٢٦ - إفادة ذلك من دليل كارنيجي
- ٢٢٧ - شروع المؤلف ببيان السبب العشرين ، وهو الحرص على ما ينفع:
- ٢٢٧ - شرح قول المؤلف: «اجعل الأمور النافعة نصب عينيك...»
- ٢٢٧ - إفادته ذلك من كارنيجي
- ٢٢٩ - شروع المؤلف في بيان السبب الحادي والعشرين ، وهو الحزم في حسم الأعمال:
- ٢٢٩ - شرح قول المؤلف: «ومن الأمور النافعة حسم الأعمال في الحال ،
والتفرغ للمستقبل...»
- ٢٣٠ - أمثلة من واقع الناس في تأخرهم في حسم الأعمال
- ٢٣٣ - أمور تعين على حسم الأعمال:
- ٢٣٣ أ- أن يستحضر قيمة الزمن
- ٢٣٣ - كلمة لابن الجوزي والرافعي ، ومثال ، وبيتان للشافعي
- ٢٣٤ ب- الدقة في المواعيد
- ٢٣٤ ج- الحذر من التأجيل
- ٢٣٤ كلمة لابن المقفع
- ٢٣٥ د - ألا تحتقر شيئاً من العمل
- ٢٣٥ كلمات لابن حزم
- ٢٣٦ - شرح قول المؤلف: «وينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة الأهم

	فالأهم...» :
٢٣٦	- إفادته بعض ذلك من كارنيجي
٢٣٧	- كلمة لابن تيمية في تعيين مكسب على مكسب
٢٣٨	- خاتمة الرسالة
٢٣٨	- أسباب أخرى للسعادة :
٢٣٨	أولاً: الحرص على إقامة الصلاة:
٢٣٨	- وقفات مع حديث: «... وجعلت قرّة عيني في الصلاة»
٢٣٨	- تعليق لابن القيم على الحديث
٢٣٩	- ثانياً: البعد عن الذنوب والمعاصي :
٢٣٩	- بعض أضرارها
٢٤١	- كلمة لابن القيم في فوائد ترك المعاصي
٢٤٢	ثالثاً: طهارة القلب ، وسلامة المقاصد
٢٤٣	رابعاً: سلامة الذوق
٢٤٣	خامساً: سعة الأفق
٢٤٤	سادساً: عرض الحال على من يعين
٢٤٦	- المحتويات

صدر للمؤلف

- ١- رسائل في العقيدة.
- ٢- عقيدة أهل السنة والجماعة، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله.
- ٣- الإيمان بالقضاء والقدر، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله.
- ٤- شرح وتحقيق القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٥- الإيمان باليوم الآخر.
- ٦- مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.
- ٧- مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة: المفهوم والخصائص.
- ٨- لا إله إلا الله: معناها - أركانها - فضائلها - شروطها.
- ٩- توحيد الربوبية.
- ١٠- توحيد الألوهية.
- ١١- توحيد الأسماء والصفات.
- ١٢- الإيمان بالله، تُرجم إلى الإنجليزية.
- ١٣- الإيمان بالكتب.
- ١٤- كلمات في المحبة والخوف والرجاء، ترجم إلى الإنجليزية.
- ١٥- الطيرة.
- ١٦- نبذة مختصرة عن الشفاعة، والشرك، والرقية، والتمائم، والتبرك.
- ١٧- الإيمان: حقيقته، وما يتعلق به من مسائل.
- ١٨- الطريق إلى الإسلام، ترجم إلى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والسنالية، والهندية، والتاميلية، والصينية، والبشتو، والميلبارية.
- ١٩- الشيوعية. ٢٠- البابية.
- ٢١- البهائية. ٢٢- القاديانية. ٢٣- الوجودية.

- ٢٤- رسائل في الأديان والمذاهب والفرق.
- ٢٥- شرح رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي (الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب).
- ٢٦- مصطلحات في كتب العقائد (دراسة وتحليل).
- ٢٧- السحربين الماضي والحاضر.
- ٢٨- التقريب لتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.
- ٢٩- أغراض السور في تفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.
- ٣٠- مدخل لتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور.
- ٣١- هداية آيات.
- ٣٢- الدعاء مفهومه - أحكامه - أخطاء تقع فيه، قرأه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله. ٣٣- أدب الموعظة
- ٣٤- التوبة وظيفه العمر. ٣٥- الطريق إلى التوبة. ٣٦- توبة الأمة.
- ٣٧- شرح وتحقيق الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٣٨- من صور تكريم الإسلام للمرأة
- ٣٩- من أقوال الرافعي في المرأة.
- ٤٠- رمضان دروس وعبر تربوية وأسرار.
- ٤١- الحج آداب وأسرار ومشاهد.
- ٤٢- جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمته الله.
- ٤٣- من أحوال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الحج.
- ٤٤- الرسائل المتبادلة بين الشيخ ابن باز والعلماء.
- ٤٥- الهجرة دروس وفوائد.
- ٤٦- معالم في التعامل مع الفتن.
- ٤٧- رسائل في التربية والأخلاق والسلوك.
- ٤٨- الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة.

- ٤٩- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة.
- ٥٠- فقر المشاعر.
- ٥١- سوء الخلق.. مظاهره.. أسبابه.. العلاج، قرأه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله.
- ٥٢- لطائف في تفاضل الأعمال الصالحة.
- ٥٣- عقوق الوالدين.. أسبابه.. مظاهره.. سبل العلاج.
- ٥٤- قطيعة الرحم.. المظاهر.. الأسباب.. سبل العلاج.
- ٥٥- التقصير في تربية الأولاد.. المظاهر.. سبل الوقاية والعلاج.
- ٥٦- التقصير في حقوق الجار.
- ٥٧- الكذب.. مظاهره.. علاجه.
- ٥٨- العشق.. حقيقته.. خطره.. أسبابه.. علاجه.
- ٥٩- الجريمة الخلقية.
- ٦٠- الفاحشة (عمل قوم لوط) الأسباب - العلاج.
- ٦١- لماذا تدخن؟
- ٦٢- إلى بائع الدخان.
- ٦٣- رسائل في الزواج والحياة الزوجية.
- ٦٤- أخطاء في مفهوم الزواج.
- ٦٥- من أخطاء الأزواج.
- ٦٦- من أخطاء الزوجات.
- ٦٧- الهمة العالية، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمته الله.
- ٦٨- الصداقة بين العلماء (نماذج تطبيقية معاصرة).
- ٦٩- مع المعلمين.
- ٧٠- رسالة إلى طالب نجيب، ترجم إلى الأردية.
- ٧١- الإنترنت امتحان الإيمان والأخلاق والعقول.

- ٧٢- الجوال آداب وتنبهات.
- ٧٣- رسائل في أبواب متفرقة.
- ٧٤- محمد رسول الله: خلاصة سيرته، ومقالات نادرة فيها.
- ٧٥- الرحمة والعظمة في السيرة النبوية.
- ٧٦- تراجم - لتسعة من الأعلام
- ٧٧- فقه اللغة مفهومه - موضوعاته - قضاياها.
- ٧٨- مقدمة في فقه اللغة.
- ٧٩- الارتقاء بالكتابة.
- ٨٠- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الأولى).
- ٨١- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثانية).
- ٨٢- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثالثة).
- ٨٣- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الرابعة).
- ٨٤- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الأولى).
- ٨٥- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثانية).
- ٨٦- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثالثة).
- ٨٧- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة, ١.
- ٨٨- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة, ٢.
- ٨٩- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة, ٣.
- ٩٠- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة, ٤.
- ٩١- خواطر.
- ٩٢- ارتسامات.
- ٩٣- مسائل في الوصية.
- ٩٤- لطائف في السفر.
- ٩٥- ومضات.

- ٩٦- الحوار في السيرة النبوية -البحث الفائز بالجائزة العالمية للهيئة العالمية للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، التابعة لرابطة العالم الإسلامي.-.
- ٩٧- معالم في الصحابة والآل.
- ٩٨- كتاب أبيات في الاستشهاد لابن فارس دراسة وشرح.
- ٩٩- التمثل بالشعر.
- ١٠٠- بصائر.
- ١٠١- الإسلام: حقيقته - شرائعه - عقائده - نُظْمه - البحث الفائز بالمركز الأول للمسابقة العالمية (هذا هو الإسلام) التي تنظمها الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام التابعة لرابطة العالم الإسلامي -.
- ١٠٢- الشيخ محمد الخضر حسين: سيرته ومؤلفاته.
- ١٠٣- قراءة في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبدالرازق.
- ١٠٤- قراءة في بشارات الكتب السماوية بالإسلام.
- ١٠٥- مقدمات في الأديان.
- ١٠٦- رسائل في مذاهب فكرية معاصرة.
- ١٠٧- رسائل في الفرق: التصوف - النُصَيْرِيَّة - البابية - البهائية - القاديانية.
- ١٠٨- مروءات معاصرة.
- ١٠٩- منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية.
- ١١٠- قضايا يكثر حولها الجدل: السلام - التسامح - الإكراه - العنف - الجهاد - الإرهاب.
- ١١١- عناية الإسلام بالصحة والنظافة.
- ١١٢- توحيد الربوبية والألوهية التأليف فيهما والتفريق بينهما.
- ١١٣- موقف الشيخ محمد الخضر حسين من قضية الحرية.
- ١١٤- موقف الشيخ محمد الخضر حسين من ظاهرة الإلحاد.
- ١١٥- نظرات.
- ١١٦- ذوق الهدية.
- ١١٧- موقف ابن تيمية من خوارق العادات والمخالفين فيها.

- ١١٨- شيخ الإسلام ابن تيمية أضواء على سيرته ومنهجه.
- ١١٩- نوازل الضيافة.
- ١٢٠- الخلاصة في البحث العلمي وتحقيق المخطوطات.
- ١٢١- الشيخ سليمان السليمان كما عرفته.
- ١٢٢- إبراهيم بن أحمد الحمد ١٣١١ - ١٤٠٤هـ أمير الزلفي من عام ١٣٦١ - ١٣٧٠هـ سيرته - أعماله - أرشيفه.
- ١٢٣- شذرات.
- ١٢٤- شرح رسالة الوسائل المفيدة للحياة السعيدة للشيخ عبدالرحمن السعدي -دراسة وشرح-.
- ١٢٥- متن الوسائل المفيدة للحياة السعيدة - عناية وضبط -.
- ١٢٦- موقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من علم الكلام.
- ١٢٧- قضية التسامح مع المخالفين في الدين عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.
- ١٢٨- العلاقة بين علم العقيدة وعلم فقه اللغة: دراسة تحليلية مقارنة.
- ١٢٩- مسألة الهداية والإضلال وارتباطها بسِرِّ القدر والحكمة والتعليل.
- ١٣٠- النوم: حقيقته - غرائبُه - أحوالُ الناس فيه.

سيصدر - بإذن الله -

- ١٣١- لُمعٌ من سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.
- ١٣٢- المرأة في العقيدة النصيرية.

موقع الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد